# رسالة في فقه الشهادتين

أَلَّفَهُ وَكَتَبَهُ

الفقِيرُ إلى عَفْو رَبِّهِ

الشَّيْخُ الدُّكْتورُ/ عَبْدُ الرَّحْمن بْنُ حَسَنِ بْنِ نَفِيسَةَ

صَاحِبُ مُؤَسسَةِ البُحوث والدِّراسات الفقْهيَّة وَعلُوم اَلقُرآن الكرِيم (الوقْفيَّة)، وَمَجلَّة البُحوث الفقْهيَّة المعاصرة
-غفر الله لَه، ولوالديْه، وذرِّيَّته، وإخوانه والْمسْلمين-

## الرسالة الأولى: شهادة ألا إلّه إلا الله

الشهادة بمعنى العلم واليقين، شهد أي علم، وتأتي بمعنى قضى، فمن شهد على شيء عليه أن يكون عالماً به متيقناً منه، كما سأل رسول الله ﷺ من أراد أن يشهد قائلاً له: (هل ترى الشمس؟) فلما قال السائل: نعم، قال له عليه الصلاة والسلام: (على مثلها فاشهد)[1]. فدل هذا على وجوب اليقين في الشهادة، والقطع بما يشهد به الشاهد معنى ودلالة بما يصرف عن البحث في غير ما يشهد به، والمسلم المكلف ملزم أن يشهد أنه لا إلَه في الوجود إلا الله وهذا يقتضي توافر ستة شروط، هي: الإدراك، والتصديق، والالتزام، والعمل، والمحبة، والإخلاص.

---

([1]) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٤٩/١٣ رقم ١٠٤٦٩)، وصححه الحاكم وضعفه ابن حجر.

**الإدراك:**

**وهو العلم بالشهادة والمعرفة بما يشهد به الشاهد، ومصدره العقل والتلقي. أما العقل فهو إدراك المحسوسات بمعانيها، ولهذا يسقط التكليف عن المجنون ومن في حكمه، لقول رسول اللهﷺ : (رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، والمجنون حتى يفيق، والصغير حتى يبلغ)[1]. وأما التلقي فهو قبول العلم بما يجب أن يُعْلَم، وذلك بدليل قول الله -تعالى-: ﴿شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَائِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيم﴾[آل عمران:١٨] ، وقوله تعالى-: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُون﴾[النحل:٤٣] ، وقوله تعالى-: ﴿إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُون﴾[الزخرف:٨٦] ، وقوله تعالى-:﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللّهُ ﴾[محمد:١٩] ، وقول رسول اللهﷺ : (من مات وهو يعلم أنه لا إلّه إلا الله دخل الجنة)[2].**

**التصديق:**

**وهو القطع والجزم أن الله واحد أحد، لا معبود بحق في الوجود**

---

(1) أخرجه ابن ماجة في سننه في كتاب الطلاق، باب طلاق المعتوه والصغير والنائم، (٦٥٨/١ رقم ٢٠٤١).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا، صحيح مسلم مع شرحه إكمال إكمال المعلم للآبي، (١/ ١٨٦ رقم ٣٤).

إلا هو، وذلك خلافاً للأمم البائدة كقوم نوح وعاد وثمود، حين قالوا لرسلهم: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيب﴾ [إبراهيم:٩] ، فردت عليهم رسلهم بما قصه الله علينا في قوله تعالى-: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

والتصديق يقتضي عدم الشك والارتياب، كما يقتضي الإيمان المطلق بأن الله هو الخالق الواحد الأحد، وأنه المدبّر المنظّم للكون، وأنه لا إلَه غيره في الوجود، وفي هذا قال رسول الله ﷺفيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: (من شهد ألا إلّه إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة)[1].

الالتزام:

وأما الالتزام بالشهادة فهو الثبات علىها قولاً وعملاً وسلوكاً ومنهجاً، ولا يكون هذا إلا حين يتجرد (الشاهد) من كل شائبة أو نقيصة، خلافاً للمنافقين الذين يتظاهرون علناً بالالتزام بالشهادة، ثم يناقضونها في سرهم ومعاملاتهم، كما فعلوا ذلك مع رسول الله ﷺفي المدينة، فنزل فيهم قول الله تعالى: ﴿بَشِّرِ

(1) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا، صحيح مسلم بشرحه إكمال إكمال المعلم للآبي (١٩١/١ - ١٩٢ رقم: ٥٤).

**الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[النساء:١٣٨]، وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾[النساء:١٤٥].**

**العمل:**

**وأما العمل بالشهادة فالمراد ليس النطق المجرد بها، وإنما أداء ما توجبه وتقتضيه من العمل بأركان الإسلام والإيمان وسائر أصول الإسلام وفروعه. ولهذا لا تنفع الشهادة الذين ينطقون بها لمجرد النطق، ويرتكبون ما حرم الله ونهى عنه، وحذر منه، كما يفعل ذلك بعض المنحرفين من الصوفية وغيرهم.**

**وقد يثير بعض الغُفّل شبهاً حول ذلك، ويستدلون على فهمهم بأن الله -عز وجل- يقول: «وعزتي وجلالي لأخرجن من النار من قال: لا إلّه إلا الله»[1]. كما يستدلون على ذلك بأن رسول الله ﷺ عاتب أسامة بن زيد لما قتل الرجل الذي نطق بالشهادة مع أن هذا كان مشركاً ولم يعمل عملاً خالصاً لله [2]. كما يستدلون على فهمهم ذلك بقول رسول الله ﷺ: (من قال لا إلّه إلا الله دخل**

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، صحيح مسلم مع شرحه إكمال إكمال المعلم، (١/٦٠١ رقم ٣٢٦).

(2) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد قوله: لا إله إلا الله، صحيح مسلم مع شرحه إكمال إكمال المعلم، (١/٣٤١-٣٤٥ رقم ١٥٨).

**الجنة)[1]. ويرد على هؤلاء بأن عتاب رسول الله ﷺ لأسامة بن زيد كان لظنه رضي الله عنهأنه قالها خوفاً من القتل مع أن الرجل ربما قالها بنية الدخول حقاً في الإسلام، والعمل بما جاء به. أما لو كان قصده فعلاً النجاة من القتل لم يكن النطق بها ينفعه ولكن لما كانت النية مستترة لا يعلمها إلا الله، فقد كان من الواجب على أسامة رضي الله عنهعدم قتله لمجرد الظن بعدم صدقه.**

**أما الرد على الشبهة الثانية، فإن رسول الله ﷺ لم يجعل مجرد النطق بالشهادة كافياً لدخول الجنة؛ فمن المعلوم من الدين بالضرورة أن الله بمشيئته ورحمته حرم على النار من قال لا إلَه إلا الله إذا أخلص بها من قلبه، وأتبعها بما تقتضيه وما توجبه من عمل، ولو كان الأمر خلاف ذلك كما يظن أولئك الغافلون، لكان الإسلام مجرد قول لا عمل، وحاشاه ذلك. والأدلة على هذا أشهر من أن تذكر، منها قول الله تعالى: ﴿وَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُون﴾[التوبة:٩٤]، وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب الإيمان، باب فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله،(٥/٢٣-٢٤ رقم ٢٦٣٨). قال أبو عيسى: «ووجْهُ هذا الحديث عند بعض أهل العلم أن أهل التوحيد سيدخلون الجنة، وإن عُذِّبوا بالنّار، بذنوبهم فإنّهم لا يخلدون في النار».

فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُون﴾[التوبة:١٠٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاء الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُون﴾ [سبأ:٣٧] ، وقوله تعالى:﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه﴾[الزلزلة:٧-٨].

هذا من القرآن، أما من السنة، فمنها حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: قلت يا رسول الله دلَّني على عمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار، فقال: (سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج بيت الله الحرام)، ثم قال: (ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟) قلت: بلى يا رسول الله. قال: (رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد)[1]، ولما بعثه رسول اللهﷺ إلى اليمن قال له: (إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة ألا إلّه إلا الله، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة، تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة (١٣/٥ رقم ٢٦١٦).

**هم أطاعوك لذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب) [1].**

**ومن السنة أيضًا، ما رواه بشير بن الخصاصية قال: أتيت النبي ﷺ لأبايعه، فاشترط عليَّ شهادة ألا إلَه إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأن أقيم الصلاة، وأن أوتي الزكاة، وأحج حجة الإسلام، وأن أصوم رمضان، وأن أجاهد في سبيل الله. فقلت: يا رسول الله أما اثنتين فوالله ما أطيقهما: الجهاد والصدقة، فقبض رسول الله ﷺ يده، ثم حركها وقال: (فلا جهاد ولا صدقة، فبم تدخل الجنة إذًا). قلت: أبايعك فبايعته عليهن كلهن[2]. وما رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنهأن رجلاً قال: يا رسول الله دُلَّني على عمل إذا عملته دخلت الجنة، قال: (تعبد الله لا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان) فقال الرجل: والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا شيئاً ولا أنقص منه، فقال النبي ﷺ : (من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة، فلينظر إلى هذا)[3].**

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، صحيح مسلم مع شرحه إكمال إكمال المعلم، (١٦٣/١-١٦٥ رقم ٢٩).

(2) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج٥ ص٢٢٤.

(3) متفق عليه، أخرجه الإمام البخاري في كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، برقم فتح الباري للحافظ ابن حجر، (٣٠٨ رقم ١٣٩٧)، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان /٣

**أما المعقول، فما من عاقل يظن -ولو مجرد ظن- أن الدين مجرد قول أو شعار يتلذذ به صاحبه؛ ذلك أن كل تكليف يقتضي العمل؛ فليس لأحد أن يقول -مثلاً- أنه يسافر، وهو جالس في بيته، فالسفر يقتضي الجهد والانتقال من مكان إلى آخر. وليس لعاقل أن يقول إنه سيزرع أرضاً أو حديقة، دون أن يبذل في ذلك جهداً وعملاً، والدين تكليف بعمل، فليس لعاقل أن يقول إنه مسلم أو مؤمن، دون أن يؤدي ما فرضه عليه هذا الدين من عمل.**

**المحبة:**

**وهذه تقتضي صرف النظر بالكلية عن محبة غير الله ورسوله بالمعنى الاعتقادي، فإذا خالط هذه المحبة محبة لغير الله ورسوله، فقد انتفى هذا الشرط من شروط الشهادة، التي لا تصح إلا بها مجتمعة. وهذه المحبة لا تعود في نفعها إلا للمحب نفسه؛ لأن الله عز وجل غني عن محبة عبده له، ولهذا قال -عز وجل-: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:٥٤] .وقوله -عز وجل-: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيد﴾ [فاطر:١٥]. وعدم**

---

الذي يدخل به الجنة وأنّ من تمسك بما أمر به دخل الجنة، صحيح مسلم مع شرحه إكمال إكمال المعلم، (١٤١) رقم ١/٥١.

**محبة الله تكون إما عن طريق محبة أعدائه وموالاتهم ومشايعتهم في أقوالهم وأفعالهم، كما قال -عز وجل: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة:٢٢]. أو تكون عن طريق محبة الأنداد والأضداد، كما قال عز وجل-: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ﴾[البقرة:١٦٥]. فاقتضى هذا أن تكون المحبة لله عز وجل ورسوله، لا يعدلهما فيها أحد مهما كانت مرتبته ومنزلته، لقول رسول الله ﷺ: (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهم ...) الحديث[1].**

**الإخلاص:**

**وهو تنقية العمل من الشرك والمفاسد والشوائب، ليكون خالصًا لوجه الله، لا شريك له، ولا ند، ولا نظير، ولا مثيل، وذلك عملاً بأمره عز وجل لنبيه في قوله:﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّين﴾ [الزمر:٢]. وقوله:﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّين﴾ [الزمر:١١]. وقوله:﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾**

---

([1]) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهنّ وجد حلاوة الإيمان، صحيح مسلم مع شرحه إكمال إكمال المعلم، (٢٣٨ رقم ٦٨)./١

**[البينة:٥]. وقول رسوله عليه الصلاة والسلام: (إن الله حرم على النار من قال لا إلّه إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله عز وجل)[١]. وقوله عليه الصلاة والسلام: (أسعد الناس بشفاعتي من قال: لا إلّه إلا الله، خالصاً من قلبه أو نفسه)[٢].**

**الأصل في الشهادة التوحيد:**

**الأصل في الشهادة (بما تقتضيه من إدراك وتصديق والتزام وعمل ومحبة وإخلاص) التوحيد، أي توحيد الله عز وجل في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه، وصفاته؛ لأن التوحيد أول ما أنزل الله به كتبه، وأرسل به رسله إلى خلقه، ليبيّنوا لهم أنه خالق الخلق وحده، وأنه لا إلَه يعبد بحق إلا هو، وأن عبادة كل معبود سواه ضلال وفساد.**

**والتوحيد على أقسام أربعة:**

**- توحيد الله في ربوبيته.**

**- توحيد الله في ألوهيته.**

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان وبألفاظ مختلفة، صحيح مسلم مع شرحه إكمال إكمال المعلم، (١٩٧-٢١٢ رقم ٤٧، ٥٢، ٥٣)./١

(٢) أخرجه الإمام البخاري في كتاب العلم، باب الحرص على الحديث، فتح الباري (٢٣٣ رقم /١ ٩٩).

- توحيد الله في أسمائه.

- توحيد الله في صفاته.

**توحيد الله في ربوبيته:**

**لقد خلق الله الإنسان سويًّا في فطرته منذ كينونته بشراً في بطن أمه، وفي هذه الفطرة تتجلى معاني الإيمان وصوره. وبرغم ما قد تتعرض له فطرة الإنسان من خلل بسبب تنشئته وتربيته إلا أنه يظل يؤمن في نفسه أن هناك خالقاً ومسخراً ومسيراً لهذا الكون، وأنه لولا هذا التسخير والتسيير لتوقفت الحركة، واستقر كل شيء في مكانه، ناهيك أنه لو لم يكن هذا الخالق القادر لما وُجِدَت الحركة أصلاً، ولكان العدم هو الوجود.**

**هذا الإنسان يرى بفطرته أن الأنهار لا تجري إلا حين يندفع إليها الماء من مصادرها، وأن هذا الماء لم يوجد ذاته وإنما نزل من السماء بحكم فاعل قادر. وهذا الإنسان يرى أيضاً بفطرته أن الشمس لا تشرق ولا تغرب إلا بحكم خالق يجريها ويسيّرها، وأن القمر لا يطلع ولا يأفل إلا بحكم خالق يسيّره ويقدر منازله، وهذا هو ما هدته إليه فطرة أبي الأنبياء الخليل عليه السلام حين آمن أن هناك خالقاً واحداً صنع بقدرته كل شيء، وأن هذا الخالق هو الواحد المستحق وحده للعبادة، مما جعله ينكر على قومه عبادة الكواكب.**

**ولكي يكون عنده اليقين -وهو في حالة الإنكار على قومه- رأى**

كوكب الزهرة، فقال في صيغة الاستفهام ﴿هَـذَا رَبِّي﴾فلما أفل الكوكب أيقن أنه مسخر من الخالق، فقال: ﴿لا أُحِبُّ الآفِلِين﴾، ثم نظر إلى القمر وقال أيضاً في صيغة الاستفهام ﴿هَـذَا رَبِّي﴾ فلما أفل أيقن أنه مسخر من الخالق، ثم نظر إلى الشمس فرآها في صورة أكبر من الكوكب والقمر، فقال أيضاً في صيغة الاستفهام ﴿هَـذَا رَبِّي هَـذَا أَكْبَرُ﴾ ، فلما أفلت وتكاملت عنده مرحلة اليقين واجه قومه بالبراءة مما يفعلون، ووجَّه وجهه إلى من خلق الكون والأفلاك. وقد قص الله ذلك في قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِين *وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِين * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِين* فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّين * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـذَا رَبِّي هَـذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُون * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِين﴾[الأنعام: ٧٤-٩٧].

لقد عرف نبي الله إبراهيم حقيقة الكون ومن أوجده، ولكي يزداد عنده أيضاً اليقين فيواجه جدل المجادلين في ربوبية الخالق طلب

**من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، ومع علم الله بما في قلبه من الإيمان والتصديق بربوبيته سأله عما إذا كان لم يؤمن بقدرته، فأجابه عليه السلام بأنه مؤمن بقدرة ربه وعظمته، ولكن أراد أن يرى كيف تكون الصورة التي تتم بها هذه المعجزة؛ لهذا أمره ربه أن يذبح أربعة من الطير، ويقطعها إرباً إرباً، ويخلطها جميعاً، ثم يضعها على أربعة جبال، على كل جبل ربع هذه الأجزاء، فاتمر إبراهيم لذلك، ثم أخذ برأس كل طير ودعاه، فاجتمعت أجزاؤه المقطعة وجاء يسعى إليه، فقدم له رأسه فعلق به وطار في الهواء[1]. وهذا دليل قول الله -عز وجل-:** ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِـي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَـكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيم﴾ **[البقرة:٢٦٠]. لقد ازداد اليقين عند نبي الله إبراهيم، فتصدى بالحجة والبيان للمنكرين للخالق، ومنهم ملك بابل الذي استبد به الطغيان بعد أن مكَّنه الله من الملك والقوة، فادعى الربوبية، فلما قال له إبراهيم: إن ربي يحيي ويميت، قال: أنا أحيي وأميت.**

---

([1]) راجع تفسير الرازي (٤٠-٤٦)، وتفسير ابن كثير (٢٩٨-٢٩٩)./١/٤

ولعله قصد أن يقتل من أراد موته، ويبقي على من لم يرد موته فيحج إبراهيم بذلك، فحاجَّه إبراهيم بما يعجز عنه، وهو الإتيان بالشمس من المغرب، خلافاً لطلوعها من المشرق، فَبُهِتَ ملك بابل، وانقطعت مجادلته لمعرفته بعجزه. وقد بين الله ذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِـي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِـي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة:٢٥٨].

إن الله تعالى قد أخذ على بني آدم الميثاق بالإقرار بربوبيته وألوهيته، وأنه لا رب لهم ولا إلَه لهم غيره، فأخرج من صلب آدم ذريته أولهم وآخرهم، فأنطقهم بذلك، فأقروا واعترفوا، فأشهدهم على أنفسهم وهذا هو معنى قوله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِين* أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُون﴾ [الأعراف:١٧٢-١٧٣].

ومع إقرار ذرية آدم بربوبية الله وألوهيته بحكم الميثاق والفطرة، إلا أنه عز وجل لرأفته ورحمته بهم يرشدهم إلى

**الاستدلال على معرفته بآياته، التي تدرك إما بالحس، أو العقل.**

**الأدلة الحسية:**

**إن الإنسان العاقل يدرك بحسه وعقله أن له خالقاً قادراً أخرجه من العدم إلى الوجود، وهيأ له أسباب الحياة إلى أجل معلوم، والأدلة الحسية أكثر من أن تحصى، فمنها قصة الرجل الذي مر على قرية متداعية البنيان خالية من السكان، فقال في نفسه: كيف تعود هذه القرية إلى الحياة، وهي على هذه الحال من التداعي والخراب؟ فلكي يريه الله قدرته أماته ومكث في موته مئة عام، ثم بعثه وسأله عما لبثه في منامه فظن أنه نام مدة قصيرة، فقال: لبثت يوماً أو بعض يوم. فقال الله له: بل لبثت مئة عام، وأمره أن ينظر إلى طعامه وشرابه، فوجده لم يتغيَّر برغم مرور السنين عليه، وأن ينظر إلى حماره، فيرى أنه لم يبق منه سوى عظامه، فيما أخبر الله تعالى به عنه في قوله: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِـي هَـذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ﴾ [البقرة:٢٥٩]. والعبرة في**

هذا أن الله جعل هذا آية حسية للناس، يهتدون بها إلى الإيمان والإقرار بربوبيته وقدرته.

ومن الأدلة الحسية التي ذكرها الله لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام قصة نبي الله موسى، وهو يدعو قومه إلى الإيمان بالله ومحاجته لفرعون؛ فقد تظاهر هذا بإنكار الخالق عز وجل، وقال لقومه: إنه ربهم الأعلى، وإنه لا رب في الوجود غيره، فيما أخبر الله تعالى به عنه في قوله: ﴿يَاأَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾[القصص:٣٨]. وقوله: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى*فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾[النازعات:٢٣-٢٤]. ولما حاجه وناظره موسى وعرض عليه رسالته، وأنها من رب العالمين رد عليه فرعون مستنكراً وجاحداً دعوته، فيما أخبر الله تعالى به عنه في قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِين﴾[الشعراء:٢٣]. فرد عليه موسى بأن رب العالمين هو رب السماوات والأرض وما بينهما إن كانوا يوقنون بأن المخلوق لا بد له من خالق، وأنهم مخلوقون، وأن الخالق هو ربهم ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِين﴾ [الشعراء:٢٤]، ولما سمع فرعون ذلك قال لقومه متعجباً ومتعجرفاً ومتكبراً ﴿أَلاَ تَسْتَمِعُون﴾[الشعراء:٢٥]، فرد عليه موسى بما أخبر الله تعالى به عنه أنه ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ

آبَائِكُمُ الأَوَّلِين﴾[الشعراء:٢٦]،أي أن الله هو خالقهم ومن قبلهم من آبائهم وأجدادهم وعندئذٍ ازداد غيظ فرعون وحماقته وتكبره، فاتَّهم نبي الله موسى بالجنون، بما أخبر الله تعالى به عنه ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُون﴾[الشعراء:٢٧]، فأجاب موسى أنه ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُون﴾[الشعراء:٢٨]، أي إنه خالقهم، وهو رب المشرق والمغرب ورب السماء والأرض، ورب الكون كله ومن فيه.

ولما أعيت فرعون الحيل، وسقطت حججه في المناظرة، توعد موسى بالسجن، بما أخبر الله تعالى به عنه ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِين﴾[الشعراء:٢٩]. فرد عليه موسى متسائلاً عما إذا كان سيسجنه ولو جاءه ببينة ساطعة، تدل على صدق رسالته ونبوته، وذلك بما أخبر الله تعالى به عنه ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِين﴾[الشعراء:٣٠]، وهنا تراجع فرعون فيما أخبر الله تعالى به عنه ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِين﴾ [الشعراء:٣١]، وهنا ألقى موسى عصاه، فإذا هي ثعبان واضح للعيان، وأخرج يده من جيبه فإذا هي بيضاء لمن ينظر إليها ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِين * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِين﴾[الشعراء:٣٢-٣٣].

وبرغم هذه المعجزة الدالة على صدق رسالة موسى ونبوته، ظن فرعون أن ما أتى به موسى مجرد سحر، وأن جمع السحرة من أنحاء بلاده سيقضي على موسى، فقال لقومه: إن موسى ساحر متمكن بسحره، ويريد أن يخرجهم من أرضهم بهذا السحر ولهذا يستشيرهم فيما يعملون لمقاومته. وقد حكى الله تعالى ذلك عنه ﴿قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيم * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُون﴾[الشعراء:٣٤-٣٥]. فأشاروا عليه أن يتريث في أمر موسى وأخيه، وأن يبعث إلى كل مدينة من مملكته رجالاً يأتون بكل ساحر متمرس في السحر ﴿قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِين * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيم﴾ [الشعراء:٣٦-٣٧]. وقد تم توقيت الاجتماع في يوم معلوم، وطلب من الناس الاجتماع، لكي يتبعوا السحرة في حال غلبتهم لموسى.

ومن الطبعي في حال كهذه أن يسأل السحرة فرعون عن أجرهم في حال غلبتهم، فأجابهم فرعون بأن ذلك سيحصل لهم، بل سيكونون من المقربين إليه، وذلك فيما أخبر الله تعالى به في قوله ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُوم * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُون * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِين * فَلَمَّا جَاء

السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِين * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِين﴾[الشعراء:٣٨-٤٢]. فلما تجمَّعوا وانتظموا أَمَرَهُم أن يلقوا في الساحة ما لديهم من السحر، وعندئذٍ ألقوا أدوات سحرهم من الحبال والعصي، وحلفوا بعزة فرعون أنهم سيغلبون بسحرهم موسى؛ فما كان منه عليه السلام وبأمر الله له، إلا أن ألقى عصاه فإذا هي تخطف سحرهم وأدواته، فتبتلعه في جوفها، فأدرك السحرة أن الأمر ليس بالشيء الذي كانوا يتصورونه، فخروا على الأرض ساجدين لله تعالى، مؤمنين برسالة موسى ونبوته، كافرين بفرعون ومن معه، وذلك فيما أخبر الله به في قوله -عز وجل-: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُون * فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُون * فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُون *فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِين * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِين *رَبِّ مُوسَى وَهَارُون﴾[الشعراء:٤٣-٤٨].

وفي ذلك المشهد العجيب أُسْقِطَ في يد فرعون، فخشي من عواقب ما حدث، وأن يكون السحرة في إيمانهم سبباً لغيرهم، فيتبع الناس موسى وأخاه، وينتهي ملك فرعون، فخاطب السحرة منكراً عليهم إيمانهم، مدعياً أن موسى كبيرهم الذي علمهم السحر، ثم توعدهم

بتقطيع أيديهم وأرجلهم وصلبهم جميعاً، ليكونوا عبرة لغيرهم، فردوا عليه جميعاً، بأن ما ذكره من وعيدهم لن يضيرهم، بل إنهم يرجون أن يكفِّر الله عنهم خطيئتهم بعد توبتهم. وقد حكى الله ذلك في قوله -عز وجل-: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِين *قَالُوا لاَ ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُون * إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِين﴾ [الشعراء:٤٩-٥١]. وحتى يكتمل المشهد بنهاية فرعون لقاء تكذيبه لربوبية الله ومعاندته ومكابرته وتكذيبه لرسالة الله، أوحى الله إلى موسى أن يذهب بقومه ليلاً، وذلك لعلم الله أن فرعون يتعقبهم، فلما علم فرعون بنيتهم الخروج، أرسل إلى مدن مصر قائلاً لهم: إن موسى ومن معه طائفة قليلة يريدون إغاظتنا، ومع هذا فنحن منهم حذرون، وقد حكى الله ذلك في قوله -عز وجل: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُون * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِين*إِنَّ هَؤُلاَء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُون *وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُون *وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُون﴾ [الشعراء:٥٢-٥٦].

وحتى تكتمل الصورة، وينتهي فرعون وملكه، خرج فرعون وقومه عند شروق الشمس، ليردُّوا موسى وأتباعه عن سفرهم،

ويعيدوهم إلى ما كانوا عليه، فلما تقارب جمعهما، خاف أتباع موسى من لحاق فرعون وجنوده بهم، فرد عليهم موسى مطمئناً لهم ومسرّياً عنهم الخوف، لأنه يسير بأمر الله وتدبيره؛ وذلك فيما أخبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِين *فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُون *قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِين﴾[الشعراء:٦٠-٦٢].وفي تلك اللحظات من المشهد العظيم الذي يضرب الله فيه الأمثال لسوء عاقبة المنكرين الجاحدين لربوبيته المكذبين لرسله، أوحى الله إلى نبيه موسى: أن يضرب بعصاه البحر، ليتحول بعد ذلك إلى قسمين، كل قسم مثل الجبل العظيم، فينجو موسى ومن معه، ويغرق فرعون ومن معه. وقد بين الله أن فيما حدث عبرة للمعتبرين، وآية للمدكرين، وأن من هلك مع فرعون كان من غير المؤمنين، وذلك فيما أخبر الله تعالى عنه في قوله ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيم﴾[الشعراء:٦٣].

الأدلة العقلية:

إن الله عز وجل أراد بهذه المعجزات إرشاد خلقه إلى الإقرار بربوبيته لصالح مآلهم بعد رجوعهم إليه، ومع قدرته عز وجل أن يجعل كل الخلق يؤمن بربوبيته وألوهيته، كما قال تعالى ﴿وَلَوْ

شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[يونس:٩٩]، إلا أنه منح المخلوق العاقل فرصة للتفكُّر والتدبُّر، ليهتدي من نفسه، فخاطبه بما يعقله ويفهمه: أنه لم يُخلَق دون خالق، وأنَّ الذي خلقه هو القادر على هذا الخلق المستحق للإقرار المطلق بربوبيته. ولهذا نبه الله نبيه ورسوله محمداً عليه الصلاة والسلام أن يدفع الكافرين بالحجة، فقال -عز وجل-: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُون * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُون * أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُون﴾ [الطور:٣٥-٣٧]. إن في هذه الآيات دلالات للعاقل في الإقرار المطلق بربوبية الله، ولهذا كاد عقل جبير بن مطعم يطير لما سمعها، فقد روى البخاري عن الحميدي عن سفيان، قال حدثوني عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بهذه الآيات من سورة الطور فكاد قلبي أن يطير[1]. إن العاقل وهو المخاطب من الله يدرك أن خلق السموات والأرض تم بفعل خالق واحد قادر، وأن اختلاف ألسنة البشر وألوانهم وأوصافهم لا يكون إلا بفعل قادر ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ

(1) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، تفسير سورة الطور، فتح الباري (٤٦٩ رقم (٤٨٥٤)، /٨ ومسلم مختصرًا (٤٦٩/٨ رقم ٤٦٢).

لِّلْعَالِمِين﴾ [الروم: ٢٢].

وهذا الإدراك يحدث بالضرورة من كل ذي عقل؛ لأن من الممتنع عقلاً أن يكون الخلق بدون خالق، فالعسل -مثلاً- لا يوجد ذاته، بل لا بد له من نحل ينتجه، والنحل لا يوجد ذاته، بل لا بد له من خالق يوجده، وفي هذا المعنى حكي عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله: أن نفراً من المتكلمين جادلوه في توحيد الربوبية، فطلب منهم قبل البحث معه أن يخبرهم عن مسألة سفينة تذهب في نهر دجلة، فتأخذ الطعام وغيره من تلقائها، وتعود من تلقائها، فترسي كذلك من تلقائها، وتفرغ وترجع من تلقاء نفسها، فقالوا: هذا من المحال، ولا يمكن حدوثه أبداً! فقال رحمه الله: إن كان هذا من المحال في السفينة -كما ذكرتم- فكيف يكون الأمر في هذا العالم كله علوه وسفله؟! فبهت القوم، وسكتوا واهتدوا.

كما أن من الممتنع عقلاً أن يخلق الخلق ويدبرهم خالقان، ففي عالم الجمادات مثلاً -ولله المثل الأعلى- المركبة لا يقودها قائدان في نفس لحظة سيرها؛ لأن هذا من المحال عقلاً، لكونها ذات مقود واحد، ولا يستطيع قائدان توجيهها في لحظة سيرها، فإن حدث ذلك تنازعا، لأن كل واحد منهما سيسيِّرُها حسبما يريد ، وحسبما يعتقد، وحينئذٍ تنحرف المركبة عن مسارها وتتحطَّمُ.

**وفي عالم الإنسان -ولله المثل الأعلى- تدار الممالك والبلدان بملك أو رئيس واحد، ولا يسيرها ملكان أو رئيسان؛ لأن كل واحد، منهما سوف يسيِّرها حسب إرادته وفهمه، فيتنازعان، فيفسد ما تحت أيديهما. والجيوش كذلك لا يسيِّرها في القتال سوى قائد واحد، ترجع إليه وتستمد توجيهها منه، فإن اشترك معه آخر في نفس القيادة تنازعا واختلفا فيضيع الجند، ويخسروا المعركة.**

**وقد بين الله ذلك، وأبطل دعوى المنكرين لربوبيته وألوهيته في قوله -عز وجل-: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُون﴾ [الأنبياء:٢٢].**

**وفي هذا المعنى يقول الإمام القاضي علي بن محمد بن أبي المعز الدمشقي: «والمقصود هنا: أنه ليس في الطوائف من يُثْبِت للعالم صانعين متماثلين، مع أن كثيراً من أهل الكلام والنظر والفلسفة تعبوا في إثبات هذا المطلوب وتقريره، ومنهم من اعترف بالعجز عن تقرير هذا بالعقل، وزعم أنه يتلقى من السمع.**

**والمشهور عند أهل النظر إثباته بدليل التمانع، وهو: أنه لو كان للعالم صانعان، فعند اختلافهما -مثل أن يريد أحدهما تحريك جسم والآخر تسكينه، أو يريد أحدهما إحياءه والآخر إماتته-: فإما أن يحصل مرادهما، أو مراد أحدهما، أو لا يحصل مراد واحد منهما،**

**والأول ممتنع، لأنه يستلزم الجمع بين الضدين، والثالث ممتنع، لأنه يلزم خلو الجسم عن الحركة والسكون، وهو ممتنع، ويستلزم أيضاً عجز كل منهما، والعاجز لا يكون إلَهاً، وإذا حصل مراد أحدهما دون الآخر، كان هذا هو الإلَه القادر، والآخر عاجزاً لا يصلح للإلَهية»[1].**

**كما خاطب الله المخلوق العاقل بما يعرفه ويعيشه في نفسه من حاجته إلى الراحة في الليل لصالح جسده، والعمل في النهار لصالح معاشه ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُون﴾[الروم:٢٣]، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء أَفَلاَ تَسْمَعُون * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُون * وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون﴾[القصص:٧١-٧٣].**

**كما خاطبه بالتفكر في نفسه، وما يمر به من المراحل في حياته من الطفولة إلى الشباب إلى الكهولة، ثم الشيخوخة والهرم، وما**

---

([1]) شرح العقيدة الطحاوية، للإمام علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي، (٢٨)./١

يحتاجه جسده من الطعام والشراب والراحة، وكيف يتحوَّل الطعام إلى مواد وكيف تعمل أجهزة الجسم في شكل يحيِّر الألباب ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُون﴾[الذاريات: ٢١].

كما خاطب الله المخلوق العاقل بما يشاهده، ويتعرض له في حياته من الظواهر الطبيعية مثل البرق والرعد ونزول الماء من السماء إلى الأرض، وتأثير هذا الماء في حياته ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاء مَاء فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُون﴾[الروم: ٢٤].

إن هذه الآيات التي ضربها الله لكل مخلوق عاقل من خلقه، لم تكن لإنسان في وقت من الأوقات أو مكان من الأمكنة، بل هي شواهد ودلائل له أينما وحيثما كان، فلو حاول أن يقلِّب المعادلة الإلَهية فينام بالنهار، ويعمل في الليل لوجد ذلك صعباً إن لم يكن مستحيلاً، فقد دلت الوقائع المحسوسة أن نوم الليل يحمي الجسد، وأن نوم النهار يهدمه، ودلت الوقائع في بساطتها أنه لا يستطيع نيل معاشه في الليل. ودلَّت الشواهد أن كل الظواهر الطبيعية تؤثر فيه، فحين يتأخر الماء من السماء يعرف قيمة هذا الماء حين يرى النبات والشجر يموت، فتضيق به الأرض بما رحبت، فلا يجد له ملجأً إلا الله يدعوه. وحين تزأر الرياح ويتناثر البرق

من حوله، ويزمجر الرعد من فوقه يبحث عن أي مكان آمن يختبئ فيه، وينظر بفطرته إلى السماء خوفاً من مصير لا يعرفه.

**توحيد الله في ألوهيته:**

إن الآيات الكونية والظواهر الطبيعية بكل دلالاتها الحسية والعقلية جعلت الإنسان يؤمن بوجود «خالق» مدبر للكون، حتى فرعون ومن على شاكلته من الماديين. لقد تظاهر فرعون بإنكاره للخالق فيما أخبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِين﴾[الشعراء:٢٣]، وقوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَاب * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾[غافر:٣٦-٣٧]، ومع ذلك فقد عرف بفطرته أن هناك «خالقاً» هو الله، ولكنه كان ينكر ذلك إنكار العارف الجاحد، وفي هذا قال الله عنه وقومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِين﴾[النمل:١٤].

لكن الإنسان يختلف في مفهومه لهذا الخالق وفقاً للمعتقد الذي نشأ عليه، فمنه من كان يعتقد أن هناك خالقين للكون، كما هو حال

**«التثنويين»[1] و«المانويين»[2] الذين يرون أن العالم صدر عن النور والظلمة، وأن النور هو الصانع للخير، وأن الظلمة هي الصانع للشر. ومنه من يعتقد أن الله ثالث ثلاثة، كما يراه المؤمنون بالتثليث من المسيحيين (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً).**

**أما العرب في جاهليتهم فقد كانوا يؤمنون بربوبية الله، ولكنهم كانوا يشركون مع الله في ألوهيته، وقد بين الله ذلك في كتابه في قوله عز وجل: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُون﴾[لقمان:٢٥]. وفي قوله: ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُون *سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُون *قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيم * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُون * قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُون *سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى**

---

(1) التثنوية مذهب ديني فلسفي، يمثِّل أحد أطوار الديانة المجوسية، شاع في بلاد فارس قبل النصرانية وبعدها، ويقوم على أساس أنَّ العالم مركَّب من أصلين قديمين أزليين وممتزجين هما: النور والظلمة، ويختلفان في الجوهر والطبع والصفات والفعل، فجوهر النور: الصفاء والنقاء والجمال، وجوهر الظلمة، القبح واللؤم، إلا أنّ طوائف الثنوية تختلف في تقرير طريقة هذا الامتزاج، ولم يتأثر من المسلمين بالثنوية إلا قلة يسيرة أتُّهمت بالزندقة. انظر: الملل والنحل، للشهرستاني، ج١ ص٢٦٨.

(2) هم أصحاب ماني بن فتق بابك الحكيم، الذي ظهر بعد عيسى عليه السلام، أخذ ديناً بين المجوسية والنصرانية، وكان يقول بنبوة عيسى عليه السلام، ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام، وكان يزعم أنّ العالم مصنوع من أصلين قديمين، أحدهما نور، والآخر ظلمة،جوهر النور حسن فاضل كريم صاف حسن المظهر، وجوهر الظلمة قبيح ناقص لئيم قبيح الريح. انظر: المصدر السابق، ج١ ص٢٦٨-٢٦٩ .

تُسْحَرُون﴾[المؤمنون:٨٤-٨٩].

وقد اتخذ الشرك عند العرب في جاهليتهم وعند غيرهم من الأمم طريقتين:

الطريقة الأولى: الاعتقاد في شخص أو أشخاص يعتقدون نفعهم أو ضرهم أو شفاعتهم عند الله. وكان هذا عمل قوم نبي الله نوح، حين نحتوا تماثيل لقوم صالحين يعتقدون شفاعتهم، فلما دعاهم نبيهم إلى توحيد الله بالعبادة أنكروا ذلك عليه، وقالوا فيما قص الله عنهم:﴿وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[نوح:٢٣]، وفي رواية البخاري أن هذه أسماء قوم صالحين من قوم نوح عليه السلام، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن أنصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت، وقد اتخذ العرب في جاهليتهم من هذه الأسماء أوثاناً فـ«ود» كان لقبيلة كلب في دومة الجندل، و«سواع» كان لقبيلة هذيل، و«يغوث» كان لقبيلة قراد، ثم لبني غطيف في الجرف عند سبأ، و«يعوق» كان لقبيلة همدان أما «نسر» فكان لقبيلة حمير لآل ذي كلاع. ولم تكن للعرب هذه الأوثان فحسب؛ بل كان في جاهليتهم أوثان أخرى، وأشهرها اللات والعزى ومناة. وفي

**البخاري عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن «اللات» كان رجلاً يلت السويق للحجاج في الجاهلية، أما العزى فكانت شجرة عليها بناء وأستار في «نخلة»، وهي موقع معروف الآن بين مكة والطائف، كانت قريش تعظمها، وقد افتخر بها أبو سفيان يوم غزوة أحد بقوله: «لنا العزى ولا عزى لكم»، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام لأصحابه: (قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم)[1].**

**وخشية من سبق لسان بعض الصحابة على الحلف باللات والعزى بسبب تعودهم ذلك في الجاهلية، قال عليه الصلاة والسلام: (من حلف فقال في حلفه: واللات والعزى. فليقل لا إلّه إلا الله)[2]. وروى النسائي عما حدث به مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه، قال: حلفت باللات والعزى، فقال لي أصحابي: بئس ما قلت هجراً. فأتيت رسول اللهﷺ فذكرت ذلك له، فقال: (قل لا إلّه إلا الله، وحده لا شريك له له، الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. وانفث عن يسارك ثلاثًا، وتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم لا تعد)[3].**

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة أحد، فتح الباري (٤٠٥/٧ رقم ٤٠٤٣).

(2) أخرجه النسائي في كتاب الأيمان والنذور، باب الحلف باللات والعزى، سنن النسائي (٧)./٧

(3) أخرجه النسائي في كتاب الأيمان والنذور، باب الحلف باللات والعزى، سنن النسائي (٧-٨)./٧
قلت: وعلى ذكر سبق اللسان، فما زال بعض النساء في بعض المناطق يقلن عندما تنزل بهن نازلة أو تحل بهن مصيبة: «واعزتا لي» وهذا السبق من اللسان تسلسل من القدم دون أن يكون له هدف عقدي، ومع ذلك إذا كانت هذه الكلمة تعني العزى فهي منكر يجب توجيه من يقلنها بما وجه به رسول الله سعد بن أبي وقاص .

أما «مناة» فكانت في المشلل عند قديد بين مكة والمدينة، وكانت الأوس والخزرج وخزاعة يعظمونها في الجاهلية، ويهلون منها للحج إلى الكعبة، وقد بعث إليها رسول الله خالد بن الوليد فهدمها وجعل يقول:

يا عزى كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك [1]

وقد تسلسلت هذه المعتقدات الوثنية عبر تاريخ الإنسان، وما زال الجهل يسيطر على العديد من مواقعه في آسيا وأفريقيا وغيرهما؛ فينحت بنفسه أصناماً وأوثاناً، ويقف عندها طويلاً يستجدي منها ما يجلب له النفع ويدفع عنه الضر، ومن المؤسف أن هذا الجهل يولد عنده نزعة التعصب لهذه الأوثان، فيلغي عقله وتفكيره، ويظل لا يرى في حياته إلا ما ورثه عن أسلافه.

الطريقة الثانية: الاستغاثة: وهي طلب الغوث، ومثلها في المعنى الاستعانة، وهي على قسمين: الأول: أن تكون الاستغاثة من المخلوق الحي في الأمور، التي يقدر عليها مثل المساعدة بالمال أو الجاه أو بذل المعروف، فهذه بمعنى قولهم أغاث الشخص الآخر أي أعانه ونصره فهو مغيث[2]، وهذه الاستغاثة محصورة فيما يقدر عليه المخلوق الحي، ويدخل في ذلك التوسل

(1) البداية والنهاية، للحافظ ابن كثير مبحث بعث خالد بن الوليد لهدم العزى، ج٤ ص٣١٥.
(2) المصباح المنير، للفيومي، ج١ ص٤٥٥.

**والشفاعة بدعائه، فقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يتوسَّلون برسول الله في الاستسقاء عندما يصيبهم القحط، ومن ذلك ما رواه أنس بن مالك ﷺ أن أعرابيًّا جاء إلى رسول الله ، فقال: يا رسول الله، والله لقد أتيناك وما لنا بعير يئط ولا صبي يغط[1]، فقام رسول الله حتى صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: (اللهم اسقنا)، فجاء أهل البطانة يصيحون الغرق الغرق فضحك رسول الله ﷺ فقام رجل من بني كنانة فأنشد:**

**لك الحمد والحمد ممن شكر سقينا بوجه النبي المطر**

**دعا الله خالقه دعوة وأشخص منها إليه البصر**

**فلم يك إلا كالف الردا وأسرع حتى رأينا الدرر[2]**

**ومن ذلك فعل عمر بن الخطاب ، فقد استسقى بالعباس بن عبد المطلب، فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسَّل إليك بعم نبينا فاسقنا. قال: فيسقون [3].**

**ومن ذلك فعل معاوية بن أبي سفيان، فقد استسقى بـ«يزيد بن**

---

(1) يئط: بفتح أوله وكسر الهمزة، وكذا «يغط» بالمعجمة والأطيط صوت البعير المثقل، والغطيط صوت النائم كذلك، وكنى بذلك عن شدة الجوع، لأنهما إنما يقعان عند الشبع. فتح الباري ج٢ ص٥٧٥.

(2) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للعيني، ج٧ ص٣١.

(3) أخرجه البخاري في كتاب الاستسقاء، باب »سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا، برقم (١٠١٠)، فتح الباري ج٢ ص٥٧٤. وفي أثر آخر: «أن عمر صعد إلى المنبر ومعه العباس فقال عمر: اللهم إنا توجهنا = إليك بعم نبيك وصنو أبيه، فأسقنا الغيث، ولا تجعلنا من القانطين. ثم قال: قل يا أبا الفضل فقال العباس: اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يكشف إلا بتوبة، وقد توجه القوم بي لمكاني من نبيك، وهذه أيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا بالتوبة، فأسقنا الغيث فأرخت السماء مثل الجبال حتى أخصبت الأرض، وعاش الناس». العيني على البخاري، ص٣٢-٣٣.

**الأسود الجرشي»، فقال: اللهم نستشفع أو نتوسل إليك بخيارنا، يا يزيد ارفع يديك، فرفع يديه ودعا، ودعا الناس حتى سقوا [1].**

**ويدخل في حكم ذلك طلب الدعاء من الحي الحاضر، ومن ذلك دعاء الرجل ضرير البصر، الذي قال: اللهم إنّي أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة. يا محمد يا رسول الله إنّي أتوجه بك إلى ربي في حاجتي[2]، ومنه قصة المرأة التي جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: يارسول الله إني أصرع وأتكشف، فادع الله لي، قال: (إن شئت صبرت فلك الجنة)[3]، ومن ذلك طلب الدعاء من الصالحين الأحياء أو الضعفاء، كما كان الرسول عليه الصلاة والسلام يستفتح ويستنصر بفقراء المهاجرين[4]، وقوله لعمر ابن الخطاب: (إن استطعت أن يستغفر لك أويس القرني القادم من اليمن فافعل)، وكان هذا بارًّا بوالدته[5]، ولما ودع رسول الله**

---

([1]) أورده حافظ الحكمي في معارج القبول، ج١ ص٤٨٣.

([2]) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، باب دعاء الضيف برقم (٣٥٧٨)، سنن الترمذي ج٥ ص٥٣١، وأخرجه ابن ماجة في كتاب الإقامة، باب ما جاء في صلاة الحاجة برقم (١٣٨٥)، ج١ ص٤٤١.

([3]) أخرجه الإمام البخاري في كتاب المرضى، باب فضل من يصرعُ من الريح، برقم (٥٦٥٢)، فتح الباري ج١٠ ص١١٩.

([4]) انظر على سبيل المثال: صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة، والتوسّل بصالح الأعمال. شرح الأبي ج٩ ص١٤٦-١٥٠.

([5]) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أويس القرني ، برقم (٢٢٥)، إكمال إكمال المعلم ج٨ ص٤٧٠.

ﷺعمر قال له: (لا تنسنا من دعائك) أو قال: (أشركنا في دعائك)[1]. وكما يقول الأصدقاء والإخوان لبعضهم: لا تنسونا من دعائكم الصالح.

ويدخل في حكم جواز الدعاء من الحي الرقى، استدلالاً بقول النبي ﷺ : (اعرضوا عليَّ رقاكم، لا بأس بالرقي ما لم يكن فيه شرك)[2]. فدل هذا على جواز الرقية في حق من مسّه عين أو شيطان أو مرض، على ألا يكون فيها ما يتضمن الشرك من طلاسم أو كلام غير مشروع؛ فانبنى على هذا جواز التوسل والشفاعة والدعاء من الحي الحاضر، على أن يكون ذلك مقروناً بإخلاص النية بأن الله هو المتوسَّلُ إليه بالأعمال الصالحة، وبدعاء الصالحين، عملاً بقوله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ﴾ [الأنفال: ٩]. وقوله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ﴾[المائدة:٣٥].

القسم الثاني: أن تكون الاستغاثة من المخلوق الميت فهذه الاستغاثة محرمة، سواء كانت بنبي أو رسول أو ولي أو غيرهم؛

---

(1) أخرجه ابن ماجة في كتاب المناسك، باب فضل دعاء الحاج برقم (٢٨٩٤)، سنن ابن ماجة ج٢ ص٩٦٦.

(2) أخرجه مسلم في كتاب السلام، باب لا بأس بالرقي ما لم يكن فيه شرك، برقم (٦٤)، إكمال إكمال المعلم، ج٧ ص٣٨٠-٣٨١.

**لأن الميت حين يفضي إلى ربه لا يستطيع فعل شيء من دعاء أو خلافه؛ فطلب التوسل أو الشفاعة أو الدعاء منه يعد من الشرك إذا كان المتوسِّل يعتقد أن المتوسَّل به يضر أو ينفع من دون الله، أما إذا كان قصده مجرد التوسل فهذا يعد محرماً. ويشمل هذا السؤال بجاه الأنبياء أو الرسل أو زيارة قبورهم بقصد طلب الدعاء منهم، فكل ما ورد في هذا من أحاديث لا أصل له[1]، وإنما المشروع هو الصلاة على نبي الله في الفرائض والنوافل وفي غيرها. والصلاة هنا بمعنى الدعاء، كقول من سمع النداء: «اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمدًا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته» استدلالاً بحديث: (اسألوا الله لي الوسيلة، فإنها درجة في الجنة)[2]. كما أن المشروع هو الدعاء للأموات، والاستغفار لهم، والترحم عليهم، وزيارة القبور تكون**

---

(1) ومن ذلك حديث: إذا كانت لكم إلى الله حاجة فاسألوه بجاهي، فإن جاهي عند الله عظيم. وحديث: من حج فلم يزرني فقد جفاني. فهذان الحديثان ونحوهما باطلان، يقول الشيخ الألباني في معرض حكمه على الحديث الأخير في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ج١ ص٦١: «موضوع. قاله الحافظ الذهبي في الميزان (٢٣٧/٣)، وأورده الصنعاني في الأحاديث الموضوعة» (ص٦) وكذا الزركشي وابن الجوزي، كما في «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص٤٢). ومما يدلّ على وضعه أنّ جفاء النبي من الذنوب الكبائر إن لم يكن كفراً، وعليه فمن ترك زيارته يكون مرتكباً لذنب كبير، وذلك يستلزم أنّ الزيارة واجبة كالحج، وهذا مما لا يقوله مسلم، ذلك لأن زيارته وإن كانت من القربات، فإنّها لا تتجاوز عند العلماء حدود المستحبات، فكيف يكون تاركها مجافياً للنبي ».

(2) أخرجه أحمد في المسند ج٣ ص٨٣.

**للاتعاظ والادكار، عملاً بقول رسول اللهﷺ : (زوروا القبور، فإنها تذكركم الموت)[1].**

**قلت: وقد شاع في بلاد المسلمين بدع، أضلت عدداً من المسلمين عن حقيقة دينهم، فيلجؤون إلى القبور والأضرحة، يستنجدون بها، ويتبركون عندها، فكان أهل (تستر)[2] يستسقون بقبر لـ(دانيال)[3]، فكتب أبو موسى إلى عمر في ذلك، فأجابه عمر: احفر ثلاثة عشر قبراً في النهار، ثم اجعله في أحدها، حتى يخفى على الناس. وكان أهل القسطنطينية [4] يستسقون بقبر أبي أيوب الأنصاري[5] عندما يصيبهم الجدب[1]. وكان في بلاد**

---

([1]) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ربّه عز وجل في زيارة قبر أمه، برقم (١٠٦، ١٠٧)، إكمال إكمال المعلم، ج٣ ص٣٩٦.

([2]) ويقال شستر وشوشتر مدينة في عربستان تقع حالياً في إيران، وعربستان هي خوزستان القديمة وهي على جرف يجري إلى غربه نهر دجيل، وكانت لها أهمية تجارية وحربية كبيرة، وسكانها خليط من العرب والإيرانيين. انظر: دائرة المعارف الإسلامية ج٥ ص٢٤١-٢٤٤.

([3]) هو النبي دانيال كما رجّحه ابن كثير في البداية والنهاية وهو من أنبياء بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام كان ممن أسرهم بختنصر في بيت المقدس، ولكن المسعودي في كتابه مروج الذهب يفرّق بين اثنين يحملان اسم دانيال، وأما أصغرهما فقد عاش أيام التيه في حين ظهر الآخر في زمن قديم بين عهدي نوح وإبراهيم، ويقال أيضاً أنّه ألّف كتاباً في النبوّات يسمى «الجغر». انظر: مروج الذهب ج٢ ص١٢٨. البداية والنهاية ج١ ص٣٧، ٣٨. دائرة المعارف الإسلامية، ج٩ ص١١٨-١٢٠.

([4]) واحدة من أعظم وأهم المدن التركية التي تقع على جانبي البسفور، الذي يفصل البحر الأسود شمالاً ببحر مرمرة المتفرع عن البحر الأبيض المتوسط إلى الجنوب الغربي، وهي من أكبر الثغور البحرية، كانت مركزاً للتراث الروماني والإغريقي على مرّ العصور القديمة، وازدادت أهميتها بعدما دخلها الإسلام، وبها مركز أبحاث التاريخ والفنون والثقافة الإسلامية بأكثر من عشرين لغة، انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي والحاضرة الإسلامية، لشلبي، ج٥ ص٨٧ وما بعدها.

([5]) هو الصحابي الجليل خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة بن عبد بن عوف بن غنم بن مالك بن النجار الأنصاري الخزرجي النجاري، شهد العقبة، وبدراً، وأحداً، والخندق، وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ، وهو الذي نزل عليه رسول الله ﷺ لما قدم المدينة، توفي ﷺ سنة خمسين بالقسطنطينية فدفن هناك. انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ج٤ ص٣٨١-٣٨٢.

**المسلمين من يذهب إلى قبور الصالحين يتبرك بها، ويستدفع بها ما يصيبه، ويستنزل بها ما ينفعه.**

**ومما يؤسف له أن هذه البدع والمنكرات ما تزال في العديد من بلاد المسلمين بعد أن غلب الجهل على عدد من العامة فيها، وخاصة أيام الاحتلال الأجنبي لها وغفلة العلماء والدعاة أو مجاراة بعضهم للعامة وعدم الإنكار عليهم حتى أصبح التبرك بالقبور والدعاء عندها سنة من السنن، بل واجب من الواجبات عند البعض.**

**كما أن مما يؤسف له أن تجعل قبور بعض العلماء أو الصالحين في المساجد، سواء كان ذلك بوصية منهم أو بمبادرة من مريديهم ومحبيهم، مما يجعل من أضرحتهم مزاراً للعامة يتوارثونه جيلاً بعد جيل، مما يدفع بالغلاة والجهال إلى الاعتقاد فيهم، والتبرك بهم، والدعاء عندهم، والذبح لسدنة هذه الأضرحة، مما يخل بعقيدة التوحيد عند المسلم، فيشرك بالله ويحبط عمله، ويكون يوم القيامة ممن يأتي بأعمال كالجبال، ثم يقول الله لها كوني هباء فتكون هباء.**

---

([1]) الاستيعاب، لابن عبدالبر، ج٤ ص١٦٠٦. والبداية والنهاية ج١ ص٣٧-٣٨.

**وقد حذر رسول الله ﷺ من هذه الأعمال في قوله: (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)[1]. وقوله عليه الصلاة والسلام: (ألا وإنَّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك)[2].**

**قلت: إن دين الإسلام بَيِّنٌ كل البيان، واضح كل الوضوح، فليس بين الله وبين عباده واسطة ولا حجب، فقد فتح باب الدعاء لكل سائل، بل وأمر عباده بدعائه في قوله -عز وجل-: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[البقرة: ٦٨١]، وقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِين﴾[غافر: ٦٠]. ومن الاستكبار دعوة المخلوق دون الخالق، ومن الاستكبار الاستغاثةوالاستعانة بالمخلوق دون الخالق.**

**وفي هذه الأحوال من تيه الإنسان وضياعه تغشاه حالة من الفزع والخوف من المجهول؛ فمنه من يبقى على ضياعه وضلاله،**

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد، برقم (٤٨) ، فتح الباري، ج١ ص٦٢٤ ومسلم (٣٧٦/١ رقم ٥٢٩)، وأالنسائي في كتاب الجنائز، باب اتخاذ القبور مساجد، سنن النسائي ج٤ ص٩٧.

(2) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويُتخذ مكانها مساجد؟ برقم (٤٢٧)، فتح الباري ج١ ص٦٢٤.

ومنه من يبحث عن الحقيقة، فلا يجدها إلا في الإيمان بـ«خالق واحد» ومعبود واحد، هو الله الذي أرسل رسله، ليبينوا لقومهم أن الله هو الواحد الأحد، وأنه لا معبود بحق إلا هو، وأن عليهم إفراده بالعبادة وحده، لا لملك مقرب، ولا لنبي مرسل، ولا لغيرهما من الأولياء والصالحين، وهذا هو ما دعا إليه أنبياء الله ورسله، فقد قال هود لقومه فيما ذكره الله عنه:﴿قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُه﴾[الأعراف:٦٥]، وقال نبي الله صالح لقومه: ﴿يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٧٣] ، وقال نبي الله شعيب لقومه:﴿قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ﴾[الأعراف:٨٥] .

وأخبر الله عز وجل نبيه ورسوله محمداً أن الرسل الذين أرسلوا من قبله أوحي إليهم أنه لا إلَه إلا هو، المستحق وحده للعبادة فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُون﴾[الأنبياء:٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]،

وأمر الله عز وجل الناس أن يعبدوه وحده لأنه هو خالقهم، فقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون﴾[البقرة:١٢].وفي هذا التوحيد نفع

**ظاهر لهم، فمع أن التوحيد هو الأساس في خلقهم ووجودهم بدليل قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون﴾[الذاريات:٥٦]، إلا أن الله عز وجل وعد بجزائهم وثوابهم عليه بدليل الكتاب والسنة. أما الكتاب فالآيات فيه كثيرة، منها قول الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَـذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُون﴾[البقرة:٢٥]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُون﴾[الأنعام:٨٢]، وقوله عز وجل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُون﴾ [النحل:٩٧]، وقوله عز وجل: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾[الطلاق:١١].أما السنة فالأحاديث في هذا كثيرة، منها قول رسول الله : (ﷺما من أحد يشهد ألا إلّه إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله صدقاً من قلبه، إلا حرمه الله على النار)[١]. ومنها ما رواه أبو هريرة رضي الله عنهأن رسول**

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، برقم (٤٤)،

**اللهﷺ بعثه، فقال: (من لقيت من وراء هذا الحائط يشهد ألا إلّه إلا الله مستيقناْ بها فبشره بالجنة)[1].**

**وفي هذه الآيات المحكمات وغيرها من الآيات والأحاديث بشارة للمؤمنين المتقين بالجنة، بما أعد الله فيها لأهلها من الثمرات والخيرات، وبشارة لهم بالأمن والطمأنينة في حياتهم في الدنيا والآخرة، وبشارة لهم بالجزاء على إيمانهم وعملهم الصالح، وهذا لا يكون إلا من خلال توحيد الله أولاً بأنه الإلَه الواحد الأحد، الذي لا معبود بحق سواه، وأن صلاح الأعمال مبني على هذا التوحيد، وأن فسادها مبني على نفيه، قال تعالى: ﴿* وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِين﴾[الأنبياء:٢٩].**

**توحيد الله في أسمائه:**

**أسماء الله هي ما أثبتها عز وجل لنفسه، وبينها لخلقه في كتابه أو على لسان رسوله محمد ﷺ، وأمر عباده أن يدعوه بها، وصدَّق بها واستجاب لها المؤمنون الموحدون من عباده،**

---

صحيح مسلم مع شرحه إكمال إكمال المعلم، ج١ ص١٨٨-١٩٠. وأخرجه أحمد في مسنده، ج٤ ص٤٤.

(1) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، برقم (٥٢)، صحيح مسلم مع شرحه إكمال إكمال المعلم، ج١ ص٢٠١-٢٠٥.

وجحدها الملحدون والمشركون من خلقه. والأصل فيها الكتاب والسنة والمعقول. أما الكتاب ففيه آيات عديدة عن أسماء الله، ووجوب دعائه بها، منها قوله -تعالى-: ﴿وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُون﴾ [الأعراف:١٨٠].

وقد نزلت الآية في رجل من المسلمين كان يناجي ربه في صلاته قائلاً: «يارحمن يارحيم» فقال رجل من المشركين في مكة: أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً، فما بال هذا يدعو اثنين، فأنزل الله سبحانه هذه الآية. والمراد بالدعاء بهذه الأسماء أن يطلب العبد من ربه بكل اسم ما يليق به كقول (يا رزاق ارزقني) و(يا فتاح افتح لي) و(يا هادٍ اهدني) وهكذا. ومن هذه الآيات قول الله تعالى:﴿قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى﴾[الإسراء:١١٠]، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى﴾[طه:٨]، وقوله عز من قائل: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيم﴾[الحشر:٢٤].

وأما السنة فقد روى أبو هريرةرضي الله عنه أن رسول الله ﷺقال: (إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة، وهو

**وتر يحب الوتر)[1]. وقد ذكرها الإمام الحافظ ابن حجر كما يلي:**

**«الله، الرب، الإلَه، الواحد، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الحي، القيوم، العلي، العظيم، التواب، الحليم، الواسع، الحكيم، الشاكر، العليم، الغني، الكريم، العفو، القدير، اللطيف، الخبير، السميع، البصير، المولى، النصير، القريب، المجيب، الرقيب، الحسيب، القوي، الشهيد، الحميد، المجيد، المحيط، الحفيظ، الحق، المبين، الغفار، القهار، الخلاق، الفتاح، الودود، الغفور، الرؤوف، الشكور، الكبير، المتعال، المقيت، المستعان، الوهاب، الحفي، الوارث، الولي، القائم، القادر، الغالب، القاهر، البر، الحافظ، الأحد، الصمد، المليك، المقتدر، الوكيل، الهادي، الكفيل، الكافي، الأكرم، الأعلى، الرزاق، ذو القوة المتين، غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب ذو الطول، رفيع الدرجات، سريع الحساب، فاطر السموات والأرض، بديع السموات والأرض، نور السموات والأرض، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام»[2].**

---

([1]) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب لله مئة اسم غير واحدة، رقم (٦٤١٠)، فتح الباري ج١١ ص٢٠٢٦ رقم ٢٦٧٧)./٢١٨ ومسلم (٤

([2]) فتح الباري ج١١ ص٢١٩-٢٢٠.

وأسماء الله الحسنى ليست محصورة بما ورد من اسم له جل وعلا في القرآن الكريم، أو فيما بينه رسوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الآنف الذكر، بل إنه عز وجل استأثر بأسماء له في علم الغيب لِعِلْمٍ عَلِمَه، وحكمة قدَّرها استدلالاً بتوجيه رسول الله ﷺلمن أصابه هم أو غم أن يقول: (اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضُ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداْ من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي) الحديث[1].

ويقول الإمام ابن القيم: جعل الله أسماءه ثلاثة أقسام: «قسم سمى به نفسه، فأظهره لمن شاء من ملائكته أو غيرهم ولم ينزل به كتابه، وقسم أنزل به كتابه فتعرف به إلى عباده. وقسم استأثر به في علم غيبه، فلم يطلع عليه أحد من خلقه، ولهذا قال «استأثرت به»، أي انفردت بعلمه، وليس المراد انفراده بالتسمي به؛ لأن هذا الانفراد ثابت في الأسماء التي أنزل بها كتابه، ومن هذا قول النبيﷺ في حديث الشفاعة: (فيفتح لي بمحامده، لم

(1) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ج١ ص٣٩١.

**يحمده بها أحد كان قبلي، ولا يحمده أحد كان بعدي ..)[1]، وتلك المحامد هي تفي بأسمائه وصفاته، ومنه قوله : (لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك)[2].**

**ويقول في موضع آخر: «وإحصاء الأسماء الحسنى والعلم بها أصل للعلم بكل معلوم، فإن المعلومات سواه: إما أن تكون خلقاً له تعالى أو أمراً إما علم بما كونه أو علم بما شرعه، ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنى، وهما مرتبطان بها ارتباط المقتضى بمقتضيه، فالأمر كله مصدره عن أسمائه الحسنى، وهذا كله حسن لا يخرج عن مصالح العباد والرأفة والرحمة بهم والإحسان إليهم، بتكميلهم بما أمرهم به ونهاهم عنه، فأمره كله مصلحة وحكمة ورحمة ولطف وإحسان، إذ مصدره أسماؤه الحسنى، وفعله كله لا يخرج عن العدل والحكمة والمصلحة والرحمة، إذ مصدره أسماؤه الحسنى، فلا تفاوت في خلقه ولا عبث، ولم يخلق خلقه باطلاً ولا سدى ولا عبثاً. وكما أن كل موجود سواه فبإيجاده، فوجود من سواه تابع لوجوده تبع المفعول المخلوق لخالقه، فكذلك العلم بها أصل للعلم بكل ما سواه، فالعلم بأسمائه وإحصاؤها أصل لسائر**

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ج٣ ص٢٤٨.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب في الدعاء في الركوع والسجود، برقم (٨٧٩)، سنن أبي داود، ج١ ص٢٣٢، انظر: بدائع الفوائد، ج١ ص١٦٦.

العلوم، فمن أحصى أسماءه كما ينبغي للمخلوق أحصى جميع العلوم، إذ إحصاء أسمائه أصل لإحصاء كل معلوم؛ لأن المعلومات هي من مقتضاها ومرتبطة بها. وتأمل صدور الخلق والأمر عن علمه وحكمته تعالى، ولهذا لا تجد فيها خللاً ولا تفاوتاً، لأن الخلل الواقع فيما يأمر به العبد أو يفعله، إما أن يكون لجهله به أو لعدم حكمته. وأما الرب تعالى فهو العليم الحكيم، فلا يلحق فعله ولا أمره خلل ولا تفاوت ولا تناقض».

ثم يقول رحمه الله: «وأسماء الله كلها حسنى، ليس فيها اسم غير ذلك أصلاً، وإن من أسمائه ما يطلق عليه باعتبار الفعل نحو الخالق والرزاق والمحيي والمميت، وهذا يدل على أن أفعاله كلها خيرات محض لا شر فيها؛ لأنه لو فعل الشر لاشتق له منه اسم، ولم تكن أسماؤه كلها حسنى وهذا باطل، فالشر ليس إليه، فكما لا يدخل في صفاته ولا يلحق ذاته لا يدخل في أفعاله، فالشر ليس إليه، لا يضاف إليه فعلاً ولا وصفاً وإنما يدخل في مفعولاته. وفرق بين الفعل والمفعول، فالشر قائم بمفعوله المباين له، لا بفعله الذي هو فعله، فتأمل هذا، فإنه خفي على كثير من المتكلمين، وزلت فيه أقدام، وضلت فيه أفهام، وهدى الله أهل الحق لما اختلفوا فيه بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط

**مستقيم»[1].**

**قلت: وإحصاء أسماء الله يفرض علينا الإيمان المطلق بأن كل اسم له جل وعلا يدل على قدرته في فعل ما سمى به نفسه، مما علّمه خلقه أو استأثر به في علم غيبه، فقولنا مثلاً (الرحمن الرحيم) يوجب علينا الإيمان بأنه لا يضاهيه في رحمته أحد في الوجود، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، فهو رحيم بعباده، رغم ما يرتكبونه من المعاصي، وما يفعلونه من السيئات، فقال عز وجل:** ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيد﴾**[الشورى:٢٨]، وقال:** ﴿* قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيم﴾**[الزمر:٥٣]، وقولنا (القوي والقدير) يعني أن نؤمن أنه لا يضاهيه أحد من خلقه في قوته وقدرته، فهو الفاعل للقوة والمالك للقدرة، وكل ما سواه لا يملك منها إلا ما وضعه فيه، فهو الذي وضع للإنسان ما يقدر أن يتكلم به، وهو الذي وضع للطير ما يستطيع الطيران به، وقوة الله وقدرته تعني إحاطته بكل معاني القوة والقدرة وصفاتهما، وقوة الله وقدرته ثابتة بعلمه ووصفه وإحاطته بكل ما في الوجود، وهو مدار قوله**

---

([1]) بدائع الفوائد، للإمام ابن القيم، ج١ ص١٦٣-١٦٤.

جل وعلا: ﴿اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيم﴾[البقرة:٢٥٥]، وقوله عز وجل: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى أَلاَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّار﴾ [الزمر:٥]، وهكذا في كل اسم من أسمائه الحسنى، ومن ابتغى سبيلاً يميل فيه عن الإيمان بهذه الأسماء، فيكون ممن وصفهم الله بالملحدين في أسمائه في قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُون﴾[الأعراف:١٨٠].

والإلحاد في أسماء الله له أقسام عدة: منها القول بتعدد الألوهية كحال المشركين العرب الذين قالوا للمسلمين: ما بالكم تعبدون إلَهين عندما سمعوا أحدهم يقول (يا رحمن يا رحيم)، ومنها وصف الله بما لا يليق به كإطلاق صفة الفقر والبخل عليه كما فعل اليهود (تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً) وقد رد الله عليهم في كتابه العزيز في قوله -جل وعلا-: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاء

بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[آل عمران:١٨١][1]، وقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة:٦٤].[2]

**ومن هذه الأقسام وصف الله بالأبوة كحال المثلثة من النصارى، الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة (الإلَه الأب، والإلَه الابن، والإلَه الروح القدس)، فرد الله عليهم مكذباً ومتوعداً لهم بالعذاب الأليم إذا لم ينتهوا عن كفرهم وإلحادهم في أسمائه، فقال تعالى:** ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ

---

(١) روى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهم لما نزل قول الله تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللّهُ﴾قالت اليهود: يا محمد افتقر ربك فسأل عباده القرض، فأنزل الله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء﴾. وقيل: إن أبا بكر رضي الله عنه دخل بيت المدراس، فوجد عنده يهوداً قد اجتمعوا على رجل منهم، يقال له فنحاص، وكان من علمائهم وأحبارهم، فقال له أبو بكر: ويحك اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول من عند الله، قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله حاجة من فقر، وإنه إلينا لفقير، وإنا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنيًّا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم. انظر كامل القصة في تفسير الإمام ابن كثير، ج١ ص٤١٠. المدراس: هو البيت الذي يدرس فيه اليهود التوراة، انظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير، ج٣ ص١١٣.

(٢) قصد اليهود من قولهم: يد الله مغلولة. أنه لم يوسع عليهم الرزق وإنما ضيقه عليهم.

أَلِيم﴾[المائدة:٧٣]، ومن هذه الأقسام تحريف أسماء الله عن معانيها كتسمية الأوثان والأصنام باسم الله، وتجريد الجهمية أسماء الله عن معانيها، ويقول الإمام ابن القيم: «لقد برأ الله أتباع رسوله وورثته القائمين بسنته من ذلك، فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه، ولم يجحدوا صفاته، ولم يشبهوها بصفات خلقه، ولم يعدلوا بها عما أنزلت عليه لفظاً ولا معنى، بل أثبتوا له الأسماء والصفات، ونفوا عنه مشابهة المخلوقات، فكان إثباتهم بريئاً من التشبيه وتنزيههم خلياً من التعطيل»[1].

**توحيد الله في صفاته:**

لقد ابتليت الأمة بالعديد من المنحرفين، الذين ضلوا في أنفسهم ثم نشروا ضلالهم؛ تكلموا في صفات الله فأنكروها، وتأولوها فعطلوها ذمّوا الرسل، وادّعوا أنهم ضيقوا على أتباعهم، ومدحوا فرعون وقومه وأحلوا المحرمات، وتجرؤوا على الله، فوصفوه بما لا يصفه به عاقل - تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا - فكانوا بصنيعهم هذا أشد كفراً من الكافرين، وأكثر ضلالاً من الضالين. ومن هؤلاء الجعد بن

(1) بدائع الفوائد، ج١ ص١٧٠

**درهم[١]، والجهم بن صفوان [٢]، وابن عربي[٣]، والحلاج[٤]، وأمثالهم ممن ضاقت الأمة بضلالهم وكفرهم وإلحادهم في مراحل من تاريخها.**

**وفي هذا الحيز من توحيد الصفات قد لا يكون من المستحب ذكر**

---

([١]) يقول حافظ الحكمي: فإن الجعد لما أظهر القول بخلق القرآن تطلبه بنو أمية، فهرب منهم فسكن الكوفة فلقيه فيها الجهم بن صفوان، فتقلد هذا القول عنه، ولم يكن له أتباع كثيرة غيره، ثم يسّر الله تعالى قتل الجعد على يد خالد بن عبدالله القسري قتله يوم عيد الأضحى بالكوفة وذلك لأن خالداً خطب الناس، فقال في خطبته تلك: «أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مضحّ بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى تكليماً تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً» فنزل فذبحه في أصل المنبر، وقد أخذ مقالته في الصفات عن بيان بن سمعان وأخذها بيان عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النبي . انظر: معارج القبول، لحافظ الحكمي ج١ ص٢٣٠-٢٣١.

([٢]) كان ملحداً عنيداً وزنديقاً زائغاً مبتغياً غير سبيل المؤمنين لم يكن يصف الله عز وجل بما وصف به نفسه، وانتهى قوله إلى جحود، الخالق عز وجل، وقد روي عنه كفريات كثيرة، وقد يسّر الله تعالى ذبحه على يد سالم بن أحوز بأصفهان وقيل بمرو، انظر: معارج القبول في التوحيد، للشيخ حافظ الحكمي، ج١ ص٢٣٠.

([٣]) هو الملقب بالشيخ الأكبر، ولد بالأندلس سنة ٥٦٠هـ وتوفي سنة ٦٣٨، رئيس مدرسة وحدة الوجود، يجعل نفسه خاتم الأولياء، ورحل إلى مصر، وحج وزار بغداد، واستقر في دمشق حيث مات ودفن، طرح نظرية الإنسان الكامل التي تقوم على أن الإنسان وحده من بين المخلوقات يمكن أن يتجلّى فيه جميع الصفات الإلَهية إذا تيسّر له الاستغراق في وحدانية الله، وله كتب كثيرة، ومنها: روح القدس، والفتوحات المكية، وفصوص الحكم، انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة، ج١ ص٢٦٣، انظر أيضاً: مصرع التصوف أو (تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي)، للعلامة البقاعي ص٢٢-٥٠.

([٤]) هو أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج (٢٤٤-٣٠٩هـ) ولد بفارس حفيداً لرجل زرادشتي، ونشأ في واسط بالعراق، وهو من أشهر الحلوليين والاتحاديين رمي بالكفر، وقتل مصلوباً لتهم أربع وُجّهت إليه: ١- اتصاله بالقرامطة. ٢- قوله «أنا الحق». ٣- اعتقاد أتباعه ألوهيته. ٤- قوله في الحج، حيث يرى أن الحج ليس من الفرائض الواجب أداؤها. راجع:= =الموسوعة الميسرة، ج١ ص٢٦٠، وانظر: فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، للدكتور غالب عواجي ج٣ ص٩٨٦-١٠٦٦.

أقوال هؤلاء وضلالاتهم، بل نذكر باختصار مذهب أهل السنة والجماعة في صفات الله، مثل الوجه واليدين والسمع والبصر والعين والنفس والكرم والمحبة والرضا والغضب والإرادة والعدل والإحسان -فهؤلاء- رضوان الله عليهم آمنوا، وصدقوا بما أثبته الله عز وجل لنفسه من صفات، وما أثبته رسوله عليه الصلاة والسلام من هذه الصفات، ومعتمدهم في ذلك الكتاب والسنة. أما الكتاب فقول الله تعالى للرد على اليهود الذين قالوا: إن يد الله مغلولة: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء﴾[المائدة:٦٤]، وقوله عز وجل عن الكافرين: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[الزمر:٦٧]، وقوله عن استكبار إبليس: ﴿قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[ص:٧٥].

وقوله -عز وجل-عن التحذير من عقابه:﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران:٣٠]، وقوله عما قاله نبيه عيسى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾[المائدة:١١٦]،وقوله لنبيه موسى:﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه:٤١].

وقوله:﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ [البقرة:١١٥]، وقوله: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ

مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف:٢٨]، وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾[القصص:٨٨]، وقوله -عز وجل-:﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلاَ يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُون﴾[الروم:٣٩]، وقوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلاَ شُكُورًا﴾[الإنسان:٩]، وقوله:﴿وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى * إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى﴾[الليل:١٩-٢٠].

وفي الكتاب العزيز آيات عديدة في صفات الله، كالعين والرضا والمحبة والرحمة والشهادة والقبض والبسط والتنزل والاستواء على العرش، وغير ذلك من الآيات التي تدل على أسماء الله الحسنى وصفاته العلا.

أما السنة، فقد وردت أحاديث عديدة في صفات الله، منها قول رسول اللهﷺ : (لما قضى الله الخلق كتب في كتابه على نفسه، فهو موضوع عندي على العرش: «إن رحمتي تغلب غضبي»)[1]، وقوله عليه الصلاة والسلام: (يقول الله تعالى: أنا مع عبدي حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيد* فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظ﴾، برقم (٧٥٥٣)، فتح الباري، ج١٣ ص٢١٠٧ رقم ٢٧٥١)./٥٣٢ ومسلم (٤

**ملأ ذكرته في ملأ خير منهم)[1]، وقوله عليه الصلاة والسلام لما نزلت هذه الآية: (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم) قال: (أعوذ بوجهك)[2]، وقوله: (من استعاذ بالله فأعيذوه ومن سألكم بالله فأعطوه)[3]، وقوله عليه الصلاة والسلام: (إذا قمتم إلى الصلاة فلا تلتفتوا، فإن الله ينصبَ وجهه لوجه عبده)[4]، وقوله: (مثل المجاهد في سبيل الله ابتغاء وجه الله مثل القائم المصلي حتى يرجع المجاهد)[5]، وقوله لسعد بن أبي وقاص: (إنك لن تخلَف فتعمل عملاً تبتغي وجه الله تعالى إلا ازددت به درجة ورفعة)[6]، وقوله: (من تصدَق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يصعد إلى الله إلا الطيب، فإن الله يتقبَّلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها، كما يربي أحدكم فلوه، حتى تكون مثل الجبل)[7]،**

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ﴾، برقم (٧٤٠٥)، فتح الباري ج١٣ ص٢٠٦١ رقم ٢٦٧٥) /٣٩٥ ومسلم (٤

(2) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ﴾، برقم (٧٤٠٦)، فتح الباري ج١٣ ص٤٠٠.

(3) أخرجه أبو داود في كتاب الزكاة باب عطية من سأل بالله، برقم (١٦٧٢)، سنن أبي داود ج٢ ص١٢٨.

(4) أخرجه الترمذي في كتاب الأمثال، باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة، برقم (٢٨٦٣)، سنن الترمذي ج٥ ص٤٥-٤٦.

(5) أخرجه الإمام مالك في الموطأ في كتاب الجهاد، باب الترغيب في الجهاد برقم ٩٦٤، الموطأ ص٢٩٤، والبخاري في كتاب الجهاد، باب أفضل الناس مؤمن مجاهد برقم (٢٧٨٧)، فتح الباري ج٦ ص٨-٩.

(6) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب قول النبي : (اللهم أمضِ لأصحابي هجرتهم) برقم (٣٩٣٦)، فتح الباري ج٧ ص١٢٥٠ رقم ١٦٢٨) /٣١٦ ومسلم (٣

(7) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد باب قول الله تعالى ﴿تعرج الملائكة والروح﴾ برقم (٧٤٣٠)، فتح الباري ج١٣ ص٧٠٢ رقم ١٠١٤)./٤٢٦ ومسلم (٢

**وقوله: (إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها)[١]، وقوله: (إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن، يقلّبها كيف يشاء)[٢]، والأحاديث التي تدل على صفات الله كثيرة والإيمان بها، كما وردت تدحض شبه المشبهين، وتكذب المتكلمين والملحدين، الذين نزعوا من قلوبهم الإيمان، فتلبسوا بالباطل فضلوا سواء السبيل.**

**وفي تلك المرحلة التي ظهر فيها المتأولون والمشبهون والمعطلون بَيَّنَ الأئمة ما يجب على المسلم أن يقوله في الصفات، فروى الخلال في كتاب السنة عن الأوزاعي قال: سئل مكحول والزهري عن تفسير الأحاديث، فقال: «أمروها كما جاءت»[٣]. كما سئل مالك بن أنس عن ذلك، فقال: «أمروها كما جاءت بلا كيف»[٤]. كما روى الخلال عن سفيان بن عيينة أن ربيعة بن أبي**

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، برقم (٢٧٥٩)، إكمال إكمال المعلم، ج٩ ص١٧٢-١٧٣.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه في كتاب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، برقم (٢١٤٠)، سنن الترمذي ج٤ ص٣٩٠-٣٩١، ابن ماجة في كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء برقم (٣٨٣٤)، سنن ابن ماجة ج٢ ص١٢٦٠.

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة، للالكائي ص٣٩٧-٣٩٨.

(٤) الأسماء والصفات، للبيهقي ص٤٠٨-٤٠٩، والدر المنثور، للسيوطي ج٣ ص٩١، والرسالة التدمرية، لابن تيمية ص٤٣-٤٤ ، تحقيق د. محمد عودة السعودي.

**عبدالرحمن سئل عن قول الله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ كيف استوى؟ قال: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، ومن الله البيان، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق»[1]. وروى أبو الشيخ الأصبهاني وأبو بكر البيهقي عن يحيى بن يحيى قال: كنا عند الإمام مالك فجاءه رجل فقال: يا أبا عبدالرحمن «على العرش استوى»، كيف استوى؟ فأطرق مالك برأسه، ثم قال: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عن الكيفية بدعة، وما أراك إلا مبتدعًا، فاخرج عنا .[2]**

**وقد سئل الإمام عبدالعزيز بن عبدالله بن أبي سلمة الماجشون أحد أئمة المدينة عما قاله الجهم بن صفوان وأتباعه من جحود لصفات الله، فقال:**

**«أما بعد: فقد فهمت ما سألت فيما تتابعت الجهمية ومن خلفها، في صفة «الرب العظيم» الذي فاقت عظمته الوصف والتقدير، وكلت الألسن عن تفسير صفته، وانحصرت العقول دون معرفة قدرته، وردت عظمته العقول، فلم تجد مساغاً فرجعت خاسئة وهي حسيرة. وإنما أمروا بالنظر والتفكر فيما خلق بالتقدير،**

---

([1]) الأسماء والصفات، للبيهقي ص٤٠٨-٤٠٩، وانظر: الرسالة التدمرية ص٤٣-٤٤ ، ٩٨.

([2]) الأسماء والصفات، للبيهقي ص٤٠٩، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير ج٣ ص١٣٨.

**وإنما يقال «كيف» لمن لم يكن مرة، ثم كان. فأما الذي لا يحول، ولا يزول، ولم يزل، وليس له مثل، فإنه لا يعلم كيف هو إلا هو. وكيف يعرف قدر من لم يبدأ، ومن لا يموت ولا يبلى؟ وكيف يكون لصفة شيء منه حد أو منتهى -يعرفه عارف أو يحد قدره واصف؟- على أنه الحق المبين، لا حق أحق منه، ولا شيء أبين منه. الدليل على عجز العقول عن تحقيق صفته عجزها عن تحقيق صفة أصغر خلقه لا تكاد تراه صغراً يجول ويزول، ولا يرى له سمع ولا بصر؛ لما يتقلب به ويحتال من عقله أعضل بك، وأخفى عليك مما ظهر من سمعه وبصره، فتبارك الله أحسن الخالقين، وخالقهم، وسيد السادة، وربهم ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِير﴾ [الشورى: ١١].**

**اعرف -رحمك الله- غناك عن تكلف صفة ما لم يصف الرب من نفسه بعجزك عن معرفة قدر ما وصف منها؛ إذا لم تعرف قدر ما وصف فما تكلفك على ما لم يصف؟ هل تستدل بذلك على شيء من طاعته، أو تزدجر به عن شيء من معصيته؟**

**فأما الذي جحد ما وصف الرب من نفسه تعمقاً وتكلفاً، فقد ﴿اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ [الأنعام: ٧١]، فصار يستدل -بزعمه- على جحد ما وصف الرب وسمى من نفسه بأن قال: لا**

**بد إن كان له كذا من أن يكون له كذا، فعمى عن البين بالخفي، فجحد ما سمى الرب من نفسه لصمت الرب عما لم يسم منها، فلم يزل يملي له الشيطان حتى جحد قول الله عز وجل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَة * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَة﴾[القيامة:٢٢-٢٣] ، فقال: لا يراه أحد يوم القيامة، فجحد والله أفضل كرامة الله التي أكرم بها أولياءه يوم القيامة من النظر إلى وجهه ونضرته إياهم ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِر﴾[القمر:٥٥]، قد قضى أنهم لا يموتون، فهم بالنظر إليه ينضرون. إلى أن قال: وإنما جحد رؤية الله يوم القيامة إقامة للحجة الضالة المضلة؛ لأنه قد عرف أنه إذا تجلى لهم يوم القيامة رأوا منه ما كانوا به قبل ذلك مؤمنين، وكان له جاحداً.**

**وقال المسلمون: يا رسول الله! هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول اللهﷺ : (هل تضارون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب؟) قالوا: لا. قال: (فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟) قالوا: لا. قال: (فإنكم ترون ربكم يومئذ كذلك).[1]**

---

([1]) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَة *إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَة﴾برقم (٧٤٣٧)، فتح الباري ج١٣ ص٤٣٠.

وقال رسول اللهﷺ : (لا تمتلئ النار حتى يضع الجبار فيها قدمه، فتقول: قط قط، وينزوي بعضها إلى بعض)[1]، وقال لثابت بن قيس: (لقد ضحك الله الليلة -أو عجب- من فعلكما[2]، وقال فيما بلغنا أنه قال: (ضحك ربّنا من قنوط عباده)[3]، فقال له رجل من العرب: إن ربنا ليضحك؟ قال: (نعم). قال: لا نعدم من رب يضحك خيراً [4]. إلى أشباه لهذا مما لا نحصيه.

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرِ﴾[الشورى:١١]،﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[الطور:٤٨] ، وقال تعالى-:﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾[طه:٣٩]، وقال تعالى-:﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[ص:٧٥]، وقال تعالى-:﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُون﴾ [الزمر:٦٧].

فوالله ما دلهم على عظم ما وصفه من نفسه، وما تحيط به قبضته: إلا صغر نظيرها منهم عندهم، إن ذلك الذي ألقي في

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب ما جاء في قول الله تعالى:﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِين﴾ برقم (٧٤٤٩)، فتح الباري ج١٣ ص٤٤٤.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب قول الله عز وجل: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ برقم (٣٧٩٨)، فتح الباري ج٧ ص١٤٩.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج٤ ص١٢.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند ج٤ ص١١.

روعهم، وخلق على معرفة قلوبهم، فما وصف الله من نفسه وسماه على لسان رسوله سميناه كما سماه، ولم نتكلف منه صفة ما سواه -لا هذا ولا هذا- لا نجحد ما وصف ولا نتكلف معرفة ما لم يصف.

اعلم -رحمك الله- أن العصمة في الدين أن تنتهي في الدين حيث انتهى بك، ولا تجاوز ما قد حد لك، فإن من قوام الدين معرفة المعروف وإنكار المنكر، فما بسطت عليه المعرفة، وسكنت إليه الأفئدة، وذكر أصله في الكتاب والسنة، وتوارثت علمه الأمة: فلا تخافن في ذكره وصفته من ربك ما وصف من نفسه عيباً؛ ولا تتكلفن بما وصف لك من ذلك قدراً.

وما أنكرته نفسك ولم تجد ذكره في كتاب ربك، ولا في حديث عن نبيك -من ذكر صفة ربك- فلا تكلفن علمه بعقلك؛ ولا تصفه بلسانك؛ واصمت عنه كما صمت الرب عنه من نفسه؛ فإن تكلفك معرفة ما لم يصف من نفسه مثل إنكار ما وصف منها؛ فكما أعظمت ما جحده الجاحدون مما وصف من نفسه: فكذلك أعظم تكلف ما وصف الواصفون مما لم يصف منها.

فقد -والله- عز المسلمون؛ الذين يعرفون المعروف وبهم يعرف؛ وينكرون المنكر وبإنكارهم ينكر؛ يسمعون ما وصف الله به نفسه

**من هذا في كتابه، وما بلغهم مثله عن نبيه، فما مرض من ذكر هذا وتسميته قلب مسلم، ولا تكلف صفة قدره ولا تسمية غيره من الرب مؤمن.**

**وما ذكر عن النبي ﷺ أنه سماه من صفة ربه، فهو بمنزلة ما سمي وما وصف الرب تعالى من نفسه.**

**والراسخون في العلم - الواقفون حيث انتهى علمهم، الواصفون لربهم بما وصف من نفسه، التاركون لما ترك من ذكرها- لا ينكرون صفة ما سمي منها جحداً، ولا يتكلفون وصفه بما لم يسم تعمقاً؛ لأن الحق ترك ما ترك، وتسمية ما سمى﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا﴾[النساء:١١٥] . وهب الله لنا ولكم حكماً، وألحقنا بالصالحين» انتهى[١].**

**كما سئل الإمام أبو سليمان الخطابي عن الصفات، فقال: «فأما ما سألت عنه من الصفات، وما جلي منها في الكتاب والسنة، فإن مذهب السلف إثباتها وإجراءها على ظواهرها ونفي الكيفية والتشبيه عنها، وقد نفاها قوم فأبطلوا ما أثبته الله، وحققها قوم**

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، مبحث الأسماء والصفات ج٥ ص٤٦. جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم وابنه.

**من المثبتين فخرجوا في ذلك إلى ضرب من التشبيه والتكييف. وإنما القصد في سلوك الطريقة المستقيمة بين الأمرين ودين الله تعالى بين الغالي فيه والجافي والمقصر عنه.**

**والأصل في هذا: أن الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات ويحتذى في ذلك حذوه ومثاله. فإذا كان معلوماً أن إثبات الباري سبحانه إنما هو إثبات وجود لا إثبات كيفية، فكذلك إثبات صفاته إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف.**

**فإذا قلنا يد وسمع، وبصر وما أشبهها، فإنما هي إثبات صفات أثبتها الله لنفسه؛ ولسنا نقول: إن معنى اليد القوة أو النعمة، ولا معنى السمع والبصر العلم؛ ولا نقول إنها جوارح، ولا نشبِّهها بالأيدي والأسماع والأبصار، التي هي جوارح وأدوات للفعل ونقول: إن القول إنما وجب بإثبات الصفات؛ لأن التوقيف ورد بها؛ ووجب نفي التشبيه عنها لأن الله ليس كمثله شيء؛ وعلى هذا جرى قول السلف في أحاديث الصفات»[1].**

**قلت: هذا كلام أهل السنة والجماعة في الصفات، فقد وصفوا الله بما وصف به نفسه، وما وصفه به رسوله من غير تشبيه ولا**

---

([1]) انظر رسالته في الغنية عن الكلام وأهله.

**تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل[1]، وينطبق عليهم قول رسول الله ﷺ عن الفرقة الناجية: (هم من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابي)[2].**

---

([1]) انظر: الرسالة، لشيخ الإسلام ابن تيمية ص٦-١٩.

([2]) أخرجه البيهقي في المعجم الأوسط ج ٨ ص ٢٥ ورواه الآجري في الشريعة ص١٦.

**الشرك ينافي التوحيد**

**الشرك المقاسمة في الأمر؛ وأَشْرَكْتَه في الأمر والبيع والشراء والمال جعلته لك شريكاً، ومن أشرك بالله فقد جعل ندّاً له، وجمع الشريك شركاء(١)، قال الله -تعالى-: ﴿أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ﴾[الرعد:١٦]. والشرك قديم قدم الإنسان، وأساسه الجهل والتربية الفاسدة. أما الجهل فسببه عدم وصول بلاغ الحق إلى الإنسان في مجاهله. ولعلم الله بحال الإنسان وما هو عليه من الجهل أرسل إليه الرسل لإبلاغه بما يجب عليه، وفي هذا قال -تعالى-:﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾[النحل:٣٦] ، وقال لنبيه ورسوله محمد -عليه الصلاة والسلام-:﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾[المائدة:٦٧].**

**ولما بلَّغ رسول الله ﷺالرسالة وبيَّن للأمة ما يجب عليها، ودَّعها عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع في خطبته الجامعة، قائلاً: (اللهم بلَّغت اللهم فاشهد). وبعد وفاته عليه الصلاة والسلام انتقلت مسئولية البلاغ إلى أمته، لكي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، عملاً بقول الله -تعالى-: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**

(١) انظر النهاية في غريب الحديث ج٢ ص٤٦٦-٤٦٧ ، مادة (شرك).

تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ﴾[آل عمران:١١٠].

وعملاً بهذا قال رسول اللهﷺ : (لتأمُرنَّ بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يدي الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرًا، ولتقصَرنَه على الحق قصرًا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعّنَنَّكم كما لعنهم)[١].

وأما التربية الفاسدة فهي أساس ضلال الإنسان وبعده عن الحق؛ وهذه التربية لا تنشأ معه في خلقته، بل تحدث له بعد ولادته؛ لأن كل مولود يولد على الفطرة، مؤمناً بتوحيد الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، كما قال رسول الله ﷺ : (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)[٢]. إن الأمم التي ضلت عن سواء السبيل تعاني من هذه التربية حين أنكرت الرسالات، التي جاء بها الأنبياء والرسل، فظلت هذه التربية تصدها عن الحق، وتتبع ما كان عليه أسلافها من الضلال، وقد ذكر الله ذلك في كتابه العزيز عن المشركين في قوله -تعالى-:

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم باب الأمر والنهي برقم (٤٣٣٦-٤٣٣٧)، سنن أبي داود ج٤ ص١٢١-١٢٢، ومعنى لتأطرنّه: أي لتردنّه إلى الحق ولتعطفنّه عليه. «كما لعنهم» أي بني إسرائيل.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين برقم (١٣٨٥)، فتح الباري ج٣ ص٢٠٤٧ رقم ٢٦٥٨)/٢٩٠ ومسلم (٤

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُون * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُون﴾ **[الزخرف:٢٣-٢٤].**

**لقد كان الشرك ولا يزال داء الأمم وفسادها. وقد حذر الله منه في كتابه العزيز في آيات كثيرة، منها قوله -تعالى-:** ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ **[النساء:٤٨] ، وقوله:** ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾ **[النساء:١١٦]، وقوله -عز وجل- على لسان لقمان:** ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَابُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيم﴾ **[لقمان:١٣]، وقوله لنبيه ورسوله محمد :** ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِين﴾ **[الزمر:٦٥].**

**والشرك بمفهومه العام شركان: شرك أكبر يخرج من الإسلام، ولا يغفر الله لصاحبه، فيكون مخلداً في النار إن لم يتب منه. وشرك أصغر لا يخرج صاحبه من الإسلام، ولكنه ينقص عمله وحسناته، وهو تحت مشيئة الله، إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه.**

**الشرك الأكبر:**

**يقع هذا الشرك في صور عديدة:**

**الصورة الأولى: إشراك الملائكة أو الرسل أو الصالحين، أو من في حكمهم في ربوبية الله وألوهيته، وهذا كما يفعله النصارى القائلون بالتثليث، أو كما يفعله بعض جهلة المسلمين من الاعتقاد في نفع الأولياء أو ضرهم أو جلبهم للخير، أو دفعهم للشر أو نحو ذلك، مما يُشْرَكُ مع الله غيره بأي صورة من الصور. وقد أخبر الله عن حال أولئك في قوله تعالى:** ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُون﴾ **[التوبة:٣١]، وقوله:** ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ **[الزمر:٣]، كما أخبر عن حال المعبودين وعدم رضاهم، بل وسخطهم على إشراكهم مع الله فقال تعالى عن نبيه عيسى -عليه السلام-:** ﴿وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوب * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ

عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد﴾ [المائدة:١١٦-١١٧]، وقال تعالى عن ملائكته: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلاَئِكَةِ أَهَؤُلاَء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُون* قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾[سبأ:٤٠-٤١].

الصورة الثانية: إشراك الجبابرة أو الطواغيت أو الشياطين أو من في حكمهم مع الله في ربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه وصفاته، كما فعل ذلك أتباع فرعون وإبليس. قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاأَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾[القصص:٣٨]، إلى قوله: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُون﴾[القصص:٣٩]، وقال عز وجل في آية أخرى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُود﴾ [هود:٩٨]، وعن حال أتباع إبليس قال -تعالى-: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِين﴾[ص:٨٥]، وعن حال أتباع الطواغيت قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَاب *وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّار﴾[البقرة:١٦٦-١٦٧].

الصورة الثالثة: عبادة الأوثان المادية من الأحجار والأشجار أو

**التقرب بها: وهذا كان معروفاً عند العرب في جاهليتهم، وكان ولا يزال عند غيرهم من الأمم الأخرى كالهندوس[1] والبوذيين[2] وعبدة النار والنجوم كما سبق ذكره، وقد أخبر الله عنهم في قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس:١٨] ، كما أخبر عن مآلهم وعقابهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُون * لَوْ كَانَ هَؤُلاَء آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُون * لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُون﴾ [الأنبياء:٩٨-١٠٠].**

**الصورة الرابعة: الاستعاذة بغير الله: الاستعاذة هنا بمعنى الاعتصام والالتجاء، وهذه لا تكون إلا من الله، فهو المعيذ وهو المختص الواحد بها، ومن طلبها من غيره فقد أشرك معه غيره، وقد أمر عباده أن يستعيذوا به إذا تعرضوا لوساوس الشيطان، حتى تكون هذه الاستعاذة عاصمة لهم عما يتعرضون له في**

---

(١) هم أتباع الديانة الهندوسية، وهي ديانة وثنية يعتنقها معظم أهل الهند، وهي مجموعة من العقائد والعادات والتقاليد، التي تشكلت عبر مسيرة طويلة من القرن الخامس عشر قبل الميلاد إلى وقتنا الحاضر، متخذة عدة آلهة بحسب الأعمال المتعلقة بها، فلكل منطقة إلَه، ولكل عمل أو ظاهرة إلَه، انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب ج٢ ص٧٣٤-٧٤١.

(٢) هم أتباع الديانة البوذية، وهي فلسفة وضعية انتحلت الصبغة الدينية، وقد ظهرت في الهند بعد الديانة الهندوسية في القرن الخامس قبل الميلاد، وتعاليمها ليست وحياً، وإنّما هي آراء وعقائد في إطار ديني، تحوّلت بعد موت مؤسّسها إلى معتقدات باطلة ذات طابع وثني، ولقد غالى أتباعها في مؤسّسها حتى ألّهوه، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب ج٢ ص٧٦٨-٧٧٣.

حركاتهم وسكناتهم، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيم﴾[فصلت:٣٦] ، وأمر نبيه أن يستعيذ من الشيطان الرجيم حال قراءته القرآن، حتى لا يلبس عليه في قراءته، ويوسوس له حين تلاوته، قال تعالى:﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيم * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون﴾[النحل:٩٨-٩٩]، وأمر نبيه أن يستعيذ به من شر مخلوقاته من الإنس والجن ومختلف الكائنات من حيوانات وجمادات، وأن يستعيذ به من شر الليل إذا أظلم، ومن شر السحرة والساحرات، ومن شر الحسد والحاسدين، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَق *مِن شَرِّ مَا خَلَق *وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَب *وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَد *وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَد﴾[الفلق:١-٥].

كما أمر نبيه أن يستعيذ به من شر الشيطان الذي يوسوس في القلب، فيلقي فيه المكائد، ويصرفه عن عبادة الله وطاعته بما يزينه لصاحبه من ارتكاب المعاصي والآثام وحب الشهوات، وهذا أخطر ما يتعرض له الإنسان؛ لأن في قلبه صلاحه وفي فساده فساده، وهذه الوسوسة لا تأتي من شياطين الجن فحسب، بل تأتي من شياطين، الإنس الذين يفعلون في النفوس أكثر مما يفعله شياطين

**الجن، قال تعالى لنبيه:﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاس﴾ [الناس:١]، إلى قوله عز وجل: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاس *الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاس *مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاس﴾[الناس:٤-٦].**

**فاقتضى هذا كله أن الاستعاذة لا تكون إلا بالله، وأن من طلبها من غيره فقد أشرك، ولا يزيده فعله هذا إلا إثماً وخطيئة؛ كما قال تعالى في حال العرب الذين كانوا يستعيذون بالجن، عندما ينزلون منزلاً أو يطئون وادياً، فيطلبون من سيد الجن أن يكف أتباعه عنهم، لئلا يتعرضوا لهم بسوء: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[الجن:٦] ، أي خوفاً.**

**وقد أرشد رسول الله ﷺ المسلم أن يستعيذ بكلمات الله التامات، فعن خولة بنت حكيم قالت: سمعت رسول اللهﷺ يقول: (من نزل منزلاً، فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك)[١].**

**كما روى عبدالرحمن بن أبي ليلى أن شيطاناً كان يأتي الرسول ﷺوبيده شعلة نار، فيقوم بين يديه وهو يصلي، فيقرأ ويتعوذ فلا يذهب، فأتى جبريل عليه السلام إلى النبيﷺ ، فقال له: «قل أعوذ**

---

([١]) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، باب ما جاء ما يقول إذا نزل منزلاً برقم ٣٤٣٧، سنن الترمذي ج٥ ص٤٦٢-٤٦٣.

بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما يلج في الأرض، وما يخرج منها، وما ينزل من السماء، وما يعرج فيها. ومن شر فتن الليل والنهار، وطوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير يارحمن» فَطُفِئَتْ نارهم، وهزمهم الله تبارك وتعالى[1].

الصورة الخامسة: الاستعانة بغير الله: إن الله هو المعين المالك المدبر المتصرف في خلقه، ولا يكون المسلم موحداً إلا إذا اعتقد اعتقاداً جازماً، وآمن إيماناً مطلقاً، بأنه لا ينفع ولا يضر إلا الله، وأن الجن والإنس كلهم مخلوقون، وأن المخلوق لا يملك لنفسه ولا لغيره ضراً ولا نفعاً، وأن الاستعانة على قضاء الحاجات وتفريج الكربات، وجلب النفع ودفع الضر لا يكون إلا من الله؛ فمن ابتغى غير ذلك فقد أشرك مع الله غيره وحبط عمله وأصبح من الخاسرين. إن المسلم حين يقرأ الفاتحة في صلاته وفي قراءته، ويقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِين﴾[الفاتحة:٥]، يجب أن يدرك أن العبادة لا تُصْرَفُ إلا لله، وأن الاستعانة لا تكون إلا منه، فإذا أخلص في قوله وفعله أعانه الله على قضاء حاجاته، فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ عن رسول اللهﷺ : يقول الله

---

([1]) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج٣ ص٤١٩ .

**تعالى: (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: (الحمد لله رب العالمين) قال الله: حمدني عبدي. وإذا قال: (الرحمن الرحيم) قال الله: أثنى عليَّ عبدي. فإذا قال: (مالك يوم الدين) قال الله: مجَّدني عبدي. وإذا قال: (إياك نعبد وإياك نستعين) قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل)** [1]**، وفي تفسير الإمام ابن كثير قال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: (إياك نعبد) يعني إياك نوحد ونخاف ونرجوك ياربنا لا غيرك، (وإياك نستعين) على طاعتك وعلى أمورنا كلها، وقال قتادة: (إياك نعبد وإياك نستعين) يأمركم أن تخلصوا له العبادة، وأن تستعينوه على أموركم**[2]**.**

**قلت: ولا يتعارض مع هذا أن يستعين الخلق بعضهم على بعض في أمور الدنيا، كمن يستعين بقريبه على قضاء دين عجز عن وفائه، أو يستعين بقوي يناصره في ضعفه برد ظالم ظلمه، أو يستعين بمن يشفع له في غير ما يضر بغيره، أو بأي صورة أخرى يستعين بها الإنسان من آخر في أمر من أمور الحياة. ولكن يجب أن يعتقد أن المعين في كل ذلك هو الله، وأن من يعينه على**

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة برقم (٣٨)، إكمال إكمال المعلم ج٢ ص٢٦٠-٢٦٢ .

(2) تفسير القرآن العظيم، للإمام ابن كثير ج١ ص٢٥ .

قضاء حاجته لا يفعل ذلك من تلقاء ذاته، وإنما قد أمره الله أن يفعل ما فعل، لأن أمور العباد وتصرفاتهم مرهونة بأمر الله وتدبيره.

الصورة السادسة: الاستغاثة بغير الله: الاستغاثة طلب الغوث، ولا تكون إلا ممن يقدر عليها وهو الله، قال -تعالى-: :﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ﴾ [الأنفال: ٩]، وقال -تعالى-: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ﴾[الأنعام:١٧] ، وقال -تعالى-: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُون﴾[النمل:٦٢] ، وقال -تعالى-:﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾[الشورى:٢٨]، فاقتضى هذا حكماً أن تكون الاستغاثة بالله وبدعائه وحده في جلب النفع، وكشف الضر، ونزول الغيث، والنصر على العدو، فمن ابتغى غير ذلك فقد أشرك مع الله، وحبط عمله، وأصبح من الخاسرين.

وقد حذر رسول الله من الاستغاثة بغير الله، وأرشدهم إلى أن المغيث هو الله، فقد روى الطبراني أنه كان في زمن النبيﷺ منافق يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله من شر هذا المنافق، فقال عليه الصلاة والسلام: (إنه لا

**يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله)[1]. وكان رسول الله عليه الصلاة والسلام يستغيث بالله في صلاة الاستسقاء، فيرفع يديه إلى السماء، ثم يقول: (اللهم أغثنا ثلاث مرات)[2]، فإذا كان رسول اللهﷺ يحذر من الاستغاثة به، فتحريم الاستغاثة بغيره آكد وأعظم، ففي هذا تنبيه وتحذير للمسلمين من أمته من الالتجاء إلى غير الله من الأنبياء أو الأولياء أو الصالحين، والاستغاثة بهم ودعائهم؛ لأن المغيث والمستجيب هو الله وحده، قال -تعالى-: ﴿وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس الآية ١٠٦]، وقال تعالى:﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ﴾[الأحقاف:٥] ، وقال -عز وجل-: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾[الجن:١٨].**

**قلت: وقد سبقت الإشارة إلى أن الذين يذهبون إلى القبور يستغيثون بأصحابها في جلب نفع أو دفع ضر إنما يشركون مع الله غيره، وهذا الشرك لا يغفره الله، ولو جاء صاحبه بحسنات كالجبال؛ لأن الله عز وجل حكم على نفسه بأنه لا يغفر لمن أشرك معه غيره في ربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه أو صفاته، فقال -**

---

(١) معارج القبول للحكمي ج١ ص٤١٢ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في خطبة الجمعة برقم ١٠١٤، فتح الباري ج٢ ص٥٨٩ .

تعالى-: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء﴾[النساء:١١٦].

الصورة السابعة: النذر لغير الله: النذر نوع من أنواع العبادة، ولا يكون إلا لله وحده، فمن نذر لغيره نذراً فقد أشرك معه غيره، قال - تعالى-: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَار﴾[البقرة:٢٧٠]. قال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات من النفقات والمنذورات، وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين ذلك ابتغاء وجهه، ورجاء موعوده، وتوعد من لا يعمل بطاعته، بل خالف أمره، وكذب خبره، وعبد معه غيره، فقال: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَار﴾[البقرة:٢٧٠][1].

والنذر لا يكون إلا في طاعة الله، وهو محرم في معصيته؛ فمن نذر أن يطيع الله، ويتقرب إليه بأنواع العبادات وجب عليه الوفاء بنذره، وفي هذا قال تعالى مادحاً المؤمنين: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾[الإنسان:٧]، وقال رسول الله ﷺللرجل الذي سأله قائلاً: إن أختي نذرت أن تحج وإنها ماتت قبل أن تحج،

(1) تفسير ابن كثير ج١ ص٣٠٥-٣٠٦ .

**فقال عليه الصلاة والسلام: (لو كان عليها دين أكنت قاضيه؟). قال نعم، قال: (فاقض الله فإنه أحق بالقضاء)[1].**

**ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه؛ لأن النذر عبادة، ولا تكون العبادة بمعصية، وفي حديث عائشة -رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال: (من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه)[2]، وما رواه أبو داود أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال: (لا نذر في معصية، ولا نذر فيما لا يملك ابن آدم)[3].**

**ومما فشا بين بعض الجهلة من المسلمين النذر بوضع القناديل والسرج على قبور الأولياء والصالحين، أو النذر بزيارة قبر الولي فلان أو الدعاء أو الصلاة عنده، أو النذر بجعل ولده خادماً عند قبره، ونحو ذلك من النذور البدعية، فهذه نذور باطلة، لا يجوز الوفاء بها، ومن وفى بها فقد ارتكب إثماً وخطيئة.**

**الصورة الثامنة: صرف النسك لغير الله: النسك من صلاة وذبح وصوم وحج ووصية ونحوها عبادة، ولا تكون العبادة إلا لله، وفي**

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، فتح الباري ج١١ ص٥٩٢. رقم الحديث (٦٦٩٨) .

(2) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب النذر فيما لا يملك وفي معصية، برقم (٦٦٧٠)، فتح الباري ج١١ ص٥٩٤ .

(3) أخرجه ابن ماجة في كتاب الكفارات، باب النذر في المعصية برقم (٢١٢٤، ٢١٢٥)، سنن ابن ماجة ج١ ص٦٨٦ .

هذا قال الله -تعالى-: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِين * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣] ، قال ابن كثير رحمه الله: يأمر الله نبيه أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله، ويذبحون لغير اسمه أنه مخالف لهم في ذلك، فإن صلاته لله، ونسكه على اسمه وحده لا شريك له، وهذا كقوله -تعالى-: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَر﴾ أي اخلص له صلاتك وذبحك، فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام، ويذبحون لها، فأمر الله تعالى نبيه بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله -تعالى-[١].

فمن ذبح لغير الله، ومن وجَّه أي نوع من أنواع العبادة لغيره، فقد أشرك وحبط عمله . ففي صحيح مسلم عن علي بن أبي طالب قال: حدثني رسول اللهﷺ بأربع كلمات: (لعن الله من ذبح لغير الله) الحديث[٢]، وفي مسند الإمام أحمد عن طارق بن شهاب أن رسول اللهﷺ قال: (دخل الجنة رجل في ذباب، ودخل النار رجل في ذباب) قالوا: وكيف ذلك يارسول الله؟ قال: (مر رجلان على قوم لهم صنم، لا يجاوزه أحد حتى يقرب له شيئًا، فقالوا لأحدهما:

---

(١) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٨٨-١٨٩ .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله برقم (٤٣)، صحيح مسلم شرحه إكمال إكمال المعلم ج٧ ص٧٨-٧٩ .

**قرب. قال: ليس عندي شيء أقرب. فقالوا له: قرب ولو ذبابًا. فقرب ذبابًا، فخلوا سبيله فدخل النار. وقالوا للآخر: قرب. قال: ما كنت لأقرب لأحد شيئاْ دون الله عز وجل. فضربوا عنقه فدخل الجنة)[1].**

**إذا عُلِمَ هذا فإن ما يفعله السحرة والمشعوذون من تقديم القرابين للجن واسترضائهم للحصول منهم على نفع أو دفع ضر، إنما هو من الذبح لغير الله، ومن الشرك الذي لا يغفره كما سيأتي.**

**الصورة التاسعة: طلب الشفاعة من المخلوق: الشفاعة لا تكون إلا بعد إذن الله ورضاه، والآيات في هذا كثيرة، منها قوله -تعالى-:** ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ **[البقرة:٢٥٥]، وقوله:** ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ* وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ **[سبأ:٢٢-٢٣]. وقوله -عز وجل-:** ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُون﴾ **[الأنبياء:٢٨].**

**وينبني على هذا أن الشفاعة شفاعتان: شفاعة ثابتة، وهي**

---

([1]) أخرجه الإمام أحمد في مسند طارق بن شهاب، وأورده حافظ الحكمي في معارج القبول ص٤١٣ .

**شفاعة رسوله محمد وغيره من الأنبياء، وهذه لا تكون إلا بإذن الله، فليس لأحد أياً كان أن يشفع إلا بعد إذنه، وليس له أن يشفع إلا فيمن أذن له أن يشفع فيه. وشفاعة نبي الله ورسوله محمد معلومة، ومن أجَلِّ وأعظم الشفاعات عند الله، ولا يستحقها إلا المؤمنون الموحدون، كما قال رسول اللهﷺ : (لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئًا)[1]، وسيأتي الحديث عن ذلك إن شاء الله.**

**الشفاعة الثانية: شفاعة مردودة، وهي التي يبتغيها المشركون من أربابهم وآلهتهم ممن يقفون عند القبور، يرجون أصحابها ويطلبون منهم الشفاعة. وقد رد الله عليهم عملهم بقوله -عز وجل-: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ [سبأ:٢٢]، قال ابن كثير رحمه الله: «بَيَّنَ تبارك وتعالى أنه الإلَه الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لا نظير له ولا شريك له، بل هو المستقل بالأمر وحده من غير مشارك ولا منازع ولا معارض، فقال: ﴿قُلِ**

---

([1]) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب اختباء النبي دعوة الشفاعة لأمته، صحيح مسلم مع شرحه إكمال إكمال المعلم، ج١ ص٦١٣ .

ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾، أي من الآلهة التي عبدت من دونه»[1].

فاقتضى ما ذكر أن الجهلة من المسلمين الذين يقفون عند القبور يطلبون من أصحابها الشفاعة لهم عند الله يشركون مع الله غيره، وهم لا يشعرون ويجب تحذيرهم من هذه الأفعال المنافية لحقيقة التوحيد، وما يقتضيه من إخلاص العبادة لله وحده، عملاً بقوله - تعالى-: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُون﴾[الأنعام:٥١].

الصورة العاشرة: السحر: السحر حرام بلا خلاف، ومن اعتقد إباحته كفر؛ فيكفر الساحر بتعلمه وفعله سواء اعتقد الحرمة أو لا، ويقتل بفعله، ويؤيد ذلك الكتاب والسنة والمأثور والمعقول؛ أما الكتاب فقول الله تعالى: ﴿وَلَـكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾[البقرة:١٠٢] ، وقوله تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُون﴾[البقرة:١٠٢] ، ففي هذه الآيات دلالة واضحة على أن السحر، كفر وأن من يتعلم السحر ليس له في الآخرة من خلاق. وفي هذا وعيد شديد وعقاب عظيم للذي

(1) تفسير ابن كثير، ج٣ ص٥١٤-٥١٥ .

**يصنعه.**

**وأما السنة فما روي عن رسول الله ﷺ قوله: (حد الساحر ضربة بالسيف)[1]، وقوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه أبو هريرة ﷺ : (من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك)[2].**

**وما روي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: (من أتى كاهنًاْ أو عرافًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد )[3]. وما روي عنه أيضاً عليه الصلاة والسلام أنه قال: (ليس منا من تطير أو تطير له، أو تكهن أو تكهن له، أو سحر أو سحر له، ومن أتى كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد )[4].**

**وأما المأثور فقد روى بجالة بن عبدالله بن قبيس قال: كنت كاتباً لجزء بن معاوية عم الأحنف بن قيس، إذ جاءنا كتاب عمر بن الخطاب قبل موته بسنة: «اقتلوا كل ساحر، فقتلنا في يوم ثلاثة**

---

(1) سنن الترمذي، ج٣ ص١٠ باب ما جاء في حد الساحر، حديث رقم (١٤٨٥) .

(2) سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي، ج٧ ص١١٢ .

(3) رواه البزار ورجاله رجال الصحيح، خلا عقبة بن سنان وهو ضعيف، مجمع الزوائد ج٥ ص١١٧.

(4) رواه البزار بإسناد جيد، ورواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله: «من أتى ..» إلى آخره.

**سواحر»[1]، وممن روي عنه القول بكفر الساحر وقتله حفصة وعثمان وابن عمر وغيرهم من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين [2].**

**وأما المعقول، فإن من يذهب إلى صاحب صنعة يتعلمها منه يتطلع إلى أن يكون مثل رب هذه الصنعة، كالتلميذ الذي يذهب إلى المدرسة يتعلم العلم فيها، ليكون مدرساً أو طبيباً أو مهندساً أو عالماً. فمن يذهب إلى ساحر لا يخلو من ثلاث حالات: إما أن يتعلم السحر ليكون ساحراً مثله، وإما أن يأخذ من سحره ليضر به غيره، وإما أن يتداوى بسحره فهو في كل الحالات قد آمن بما آمن به الساحر من الشركيات والمنكرات؛ فيكون مثله في صنعته، وينطبق عليه من الأحكام ما ينطبق على الساحر.**

**ويتكيف عقاب الساحر حسب طبيعة فعله؛ فإن كان يستعين بما تمليه عليه الشياطين من الذبح لغير الله والاستعانة والاستعاذة بغيره فهذا يعد شركاً أكبر. أما إن كان عمله من باب الشعوذة والكهانة والطلاسم مما لا يرتقي إلى الشرك فهذا يعد كفراً.**

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في أخذ الجزية من اليهود برقم ٣٠٤٣، سنن أبي داود ج٣ ص١٦٨.

(2) المغني والشرح الكبير، ج١٠ ص١١٤، أحكام السحر ومعناه والأقوال فيه، وأوجز المسالك، ج١٣ ص١١٧.

**قلت: هذا هو الشرك الأكبر في صوره العشرة الآنفة الذكر، وقد بين الله حكمه في كتابه وعلى لسان رسوله. أما الكتاب فالآيات في عظم تحريمه وأليم عقابه كثيرة، منها قول الله تعالى في الآية السابقة: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء﴾[النساء:٤٨] ،﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾ [النساء:١١٦]، وقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَار﴾[المائدة:٧٢]. وقوله -تعالى-: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُون﴾ [الأنعام:٨٨]، وقوله لنبيه محمد -عليه الصلاة والسلام-: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِين﴾[الزمر:٦٥].**

**وأما السنة فالأحاديث في عظم الشرك وتحريمه كثيرة، منها قول رسول الله ﷺ: (من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار)[1]، وقوله: (إن الله تعالى يقول: يا عبدي ما عبدتني ورجوتني فإني غافر لك على ما كان منك. يا عبدي إنك إن لقيتني بقراب الأرض**

---

([1]) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب من مات لايشرك بالله شيئاً دخل الجنة ومن مات مشركاً دخل النار، برقم (١٥)، صحيح مسلم مع شرحه إكمال إكمال المعلم ج١ ص٣٣٢ -٣٣٣.

**خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا، لقيتك بقرابها مغفرة)[1]، وقوله عليه الصلاة والسلام: (ما من نفس تموت لا تشرك بالله شيئًا، إلا حلت لها المغفرة، إن شاء الله عذبها، وإن شاء غفر لها)[2]، وقوله: (من مات لا يشرك بالله شيئاْ دخل الجنة)[3]، وقوله عليه الصلاة والسلام: (الدواوين ثلاثة: ديوان لا يعبأ الله به شيئاْ، وديوان لا يترك الله منه شيئًا، وديوان لا يغفره الله. فأما الديوان الذي لا يغفره الله فالشرك بالله، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء﴾ وقال: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ﴾ ، وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئاْ فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين الله من صوم يوم تركه أو صلاة، فإن الله يغفر ذلك ويتجاوزه إن شاء. وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئاْ فظلم العباد بعضهم بعضاً، القصاص لا محالة)[4]. وقوله عليه الصلاة والسلام في حديث أبي ذر: (أتاني جبريل فبشرني أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئاْ دخل**

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، باب فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله بعباده برقم (٣٥٤٠)، سنن الترمذي ج٥ ص٥١٢ .

(2) أخرجه الإمام أحمد في المسند ج٥ ص٢٢٩، وأخرج الإمام مسلم بمثله في كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب.

(3) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ومن مات مشركاً دخل النار برقم (١٥٠).

(4) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج٦ ص٢٤٠.

**الجنة، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق)[1].**

**والأحاديث في عظم الشرك الأكبر وعقابه كثيرة، وقد لا يأبه بعض العامة من المسلمين لهذا الأمر الخطير، فيشركون مع الله غيره، وهم لا يشعرون، وهذا للأسف قد فشا في بعض بلاد المسلمين، ومن ذلك المزارات التي أصبحت مرتاداً للقبوريين، الذين يعتقدون أن فيها أولياء، أو صالحين، فيقصدونها للدعاء والتضرع، وطلب الشفاعة، ويقدمون لحراسها والقائمين عليها الهدايا والأطعمة، وهم وإن كانوا بهذا حسني النية فيما يفعلون، إلا أنهم يشركون مع الله غيره، وهم لا يشعرون، فيقعون تحت الوعيد بالعقاب-. وقد حكى الله عنهم في قوله -تعالى-: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُون﴾[يونس:١٨]، وقوله -تعالى-: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[الزمر:٣].**

**وإذا كان هذا حال بعض العامة، فإن كثيراً من المسئولية تقع على العلماء؛ فما من عالم في أمته إلا وعليه عبء الدعوة إلى الله، بما**

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ومن مات مشركاً دخل النار، برقم (١٥٣)، صحيح مسلم مع شرحه إكمال إكمال المعلم ج١ ص٣٣٤.

**جاء في كتابه، وما جاء على لسان نبيه ورسوله ﷺ، عملاً بأن العلماء هم ورثة الأنبياء في تبليغ رسالاتهم بعد مماتهم. وقد بين الله ذلك لرسوله محمد عليه الصلاة والسلام في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وقوله: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤]، كما بين ذلك رسول الله ﷺ في قوله: (ما من عالم يكتم علمًا إلا ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار)[1].**

**الشرك الأصغر:**

**إن الشيطان يتابع الإنسان في حركاته وسكناته لإحباط عمله، ويستخدم في سبيل ذلك كل أنواع الغواية والضلال، فإذا لم ينل منه أن يعبد الأوثان والأصنام دخل عليه من باب آخر هو الرياء.**

**وللرياء صورتان: صورة كفرية، وصورة شركية. أما الصورة الكفرية فالنفاق، وهو ما يفعله الإنسان في ظاهره خلافاً لباطنه؛ فيظهر الإيمان بلسانه، ويبطن الكفر في قلبه وهذا أشد أنواع الكفر**

---

([1]) أخرجه ابن ماجة في مقدمة سننه، باب من سئل عن علم فكتمه برقم ٢٦١، سنن ابن ماجة ج١ ص٩٦.

وأعظمها. وقد ذكر الله حال المنافقين في آيات عديدة من كتابه العزيز، منها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُون * اللّهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُون *أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِين﴾ [البقرة:١٤-١٦].

وقوله في المنافقين من اليهود: ﴿وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُون﴾ [البقرة:٧٦]، وقوله: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُون * لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُون﴾ [التوبة:٥٦-٥٧] . وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُون * لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِين﴾ [التوبة:٦٥-٦٦].

والآيات التي كشفت حال المنافقين، وهتكت أستارهم كثير . وكما بيَّن الله حالهم وما هم عليه من النفاق بيَّن عقابهم ومآلهم في قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَـاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاء قَرِينًا﴾ [النساء:٣٨]

، وقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلا﴾[النساء:١٤٢]، وقوله -عز وجل-:﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾[النساء:١٤٥].

**ويوجد المنافقون في كل زمان ومكان؛ لأن النفاق مرض يصيب الإنسان في عقله بعد انتكاس عقيدته، فينعكس ذلك على سلوكه، فيرى الباطل حقاً والحق باطلاً. وصور المنافقين في الوقت الحاضر كثيرة، فمنهم أولئك الذين يندسون بين ظهراني الأمة يتكلمون بلسانها، ويظهرون شفقتهم على دينها وتراثها في نفس الوقت الذي يحاربونها تارة باسم «التنوير»، وتارة باسم «التجديد»، وتارة باسم «التحديث». ومن هذه الصور التلميح تارة والتصريح تارة أخرى بوجوب الفصل بين الدين والسياسة والاقتصاد، بحجة إعطاء النظريات السياسية والاقتصادية والثقافية المعاصرة فرصة للمشاركة في الحياة العامة، دون تقييدها بالأسس والمبادئ الدينية. ومن هذه الصور الانتماء السري إلى الجمعيات والمحافل المشبوهة، والالتزام بتعاليمها وأدبياتها. وفي الوقت نفسه يظهر فيه المنتمون إليها بلباس ديني.**

**ومن هذه الصور التفسير القسري للنصوص القطعية الثابتة**

بحجة التيسير على الناس تحت اسم فقه الواقع، والاجتهاد المصاحب لقضايا العصر ومقتضياته، ومن ذلك تحليل الفوائد البنكية وغيرها من الصور الأخرى للربا.

أما الصورة الشركية فتظهر في عدة صور: منها أن يقوم المسلم بتحسين عبادته من صلاة وصيام وزكاة ونحوها، لما يرى من نظر الناس إليه وثنائهم عليه، كحال الذين يدعون الناس للوقوف عند أبوابهم لتوزيع الصدقات عليهم، وكحال الذين يعتمرون أو يحجون كل عام حتى ينظر الناس إليهم.

ومن هذه الصور إبراز أعمال الخير والبر في وسائل الإعلام بقصد الشهرة أو الحصول على منفعة محتملة، كالانتخاب لعضوية المجالس أو المنتديات الاجتماعية ونحوها.

ومن هذه الصور إبراز العالم لعلمه بطريقة يقصد منها الشهرة وثناء الناس على علمه بما يفتيهم به في قضايا الاختلاف بين العلماء، أو فيما يعتقد أنه بفتياه يوسع على الناس في دينهم، فيرتكب بذلك إثمين: إثم الرياء وإثم التعجل في الفتاوى بغير دليل شرعي قاطع.

وقد وصف الرسول ﷺ الرياء بـ«الشرك الخفي» لما يسره ويخفيه صاحبه في نفسه من ابتغاء الثناء عليه من الناس، وهو لا يعلم

أن الله يطلع على سريرته، كما قال -عز وجل-: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُور﴾[غافر:١٩]، والأصل في تحريمه الكتاب والسنة. أما الكتاب فقول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُون* أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُون﴾[هود:١٥-١٦]، قال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: «إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم في الدنيا، وذلك أنهم لا يظلمون نقيراً. يقول: من عمل صالحاً التماس الدنيا صوماً أو صلاة أو تهجداً بالليل لا يعمله إلا التماس الدنيا، يقول الله تعالى: أوفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة، وحبط عمله الذي كان يعمله لالتماس الدنيا، وهو في الآخرة من الخاسرين»[1].

وقوله -عز وجل-: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[الكهف:١١٠]، وقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا *وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا * كُلاًّ نُّمِدُّ هَـؤُلاء وَهَـؤُلاء مِنْ عَطَاء

(1) تفسير ابن كثير، ج٣ ص٥٤١ .

رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[الإسراء:١٨-٢٠]، وقوله عز من قائل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيب﴾[الشورى:٢٠].

وقد دلت هذه الآيات على أن أي عمل يبتغي به صاحبه الدنيا يجازى به في الدنيا، فمن تعلم علماً ليبتغي به مركزاً أو منصباً يحصل له مبتغاه في الدنيا، وليس له من عمله في الآخرة من نصيب. ومن تصدق بصدقة يبتغي منها الثناء عليه يجازى في الدنيا بهذا الثناء، وليس له في الآخرة من صدقته شيء، وهكذا في كل عمل لا يبتغي به صاحبه وجه الله وهذا هو معنى قول الله -عز وجل-: ﴿وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيب﴾.

أما السنة، ففي حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: (ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟) قالوا: بلى يا رسول الله، قال: (الشرك الخفي، يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته، لما يرى من نظر رجل)[1]، وفي حديث أبي هريرةرضي الله عنه مرفوعاً، قال الله تعالى: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاْ أشرك معي فيه غيري تركته

(1) أخرجه ابن ماجة في كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة برقم (٤٢٠٤) ، سنن ابن ماجة ج٢ ص١٤٠٦.

**وشركه)[1]. وفي حديث أبي سعيد بن فضالة الأنصاري أن رسول الله ﷺقال: (إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة، ليوم لا ريب فيه، نادى منادُ: من كان أشرك في عمل عمله لله، فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله تعالى أغنى الشركاء عن الشرك)[2].**

**وفي حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنهقال: فبينا نحن كذلك إذ طلع شداد بن أوس، فقال: إن أخوف ما أخاف عليكم أيها الناس لما سمعت رسول الله ﷺيقول من الشهوة الخفية والشرك، فقال عبادة ابن الصامت وأبو الدرداء: اللهم غفراً أو لم يكن رسول الله ﷺقد حدثنا أن الشيطان قد يئس أن يعبد في جزيرة العرب. أما الشهوة الخفية فقد عرفناها هي شهوات الدنيا من نسائها وشهواتها، فما هذا الشرك الذي تخوفنا به يا شداد؟ فقال شداد: أرأيتكم لو رأيتم رجلاً يصلي لرجل أو يصوم له أو يتصدق له، أترون أنه قد أشرك، قالوا: نعم والله، إنّه من صلى لرجل أو صام له أو تصدق له فقد أشرك، فقال شداد: فإني قد سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من صلى يرائي فقد أشرك)، قال**

---

([1]) أخرجه ابن ماجة في كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة برقم (٤٢٠٢) ، سنن ابن ماجة ج٢ ص١٤٠٥.

([2]) أخرجه ابن ماجة في كتاب الزهد باب الرياء والسمعة برقم (٤٢٠٣) ، سنن ابن ماجة ج٢ ص١٤٠٦.

**عوف بن مالك عند ذلك: أفلا يعمد إلى ما ابتغي فيه وجهه من ذلك العمل كله فيقبل ما خلص له ويدع ما يشرك به؟ فقال شداد عند ذلك: فإني قد سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الله عز وجل يقول: أنا خير قسيم لمن أشرك بي، من أشرك بي شيئاْ فإن عمله قليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به أنا عنه غني)[1].**

**وفي حديث أنس بن مالك ﷺ أن رسول اللهﷺ قال: (تعرض أعمال بني آدم بين يدي الله عز وجل يوم القيامة في صحف. مختمة، فيقول الله: ألقوا هذا واقبلوا هذا. فتقول الملائكة: يا رب والله ما رأينا منه إلا خيرًا! فيقول: إن عمله كان لغير وجهي، ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما أريد به وجهي)[2].**

**الرسالة الثانية: فقه شهادة أن محمدًا رسول الله**

**تمهيد:**

**إن دين الله واحد، وهذا الدين هو الإسلام، فكل من أرسله الله من رسله في أي زمان ومكان كان يدعو قومه بلغتهم إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة الأوثان والأصنام، ويعمل وفق ما وضعه الله**

---

([1]) أخرجه الإمام أحمد في المسند، ج٤ ص١٢٦ .

([2]) رواه البزار في مسنده ج١٤ ص٩ والدار قطني ج١ ص٧٦ والطبراني في المعجم الأوسط ج٣ ص٧٦ وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ج٦ ص١٩٤ برقم (٢٦٧٢) ضعيف جدًا.

للإنسان من قواعد وأحكام، وفي هذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[إبراهيم:٤]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] . وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥].

وكان مبعث الرسل اختباراً للأمم وحجة عليهم في أقوالهم وأفعالهم ومختلف سلوكهم، والأصل في هذا الكتاب والسنة، أما الكتاب، فقول الله تعالى: ﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[النساء:١٦٥]. فمن آمن منهم برسالة رسوله وصدّقه، وعمل بما جاء به فقد نجا، ومن كذبه وعصاه فقد هلك، وفي هذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاء أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُون *ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِين * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِين * فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُون * فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِين﴾ [المؤمنون:٤٤-٤٨].

وأما السنة فما ورد في حديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: (... ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث

**المبشرين والمنذرين)، وفي لفظ آخر: (من أجل ذلك أنزل الكتب والرسل)[1].**

**فاقتضى هذا وجوب الإيمان بجميع رسالات الأنبياء والمرسلين، وما جاؤوا به من البينات والهدى، عملاً بأمره في قوله -تعالى-: ﴿قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون﴾[البقرة:١٣٦].**

**وأمره عز وجل لنبيه -وهو أمر لأمته- أن يؤمن بجميع الأنبياء والرسل وما جاؤوا به في قوله جل ثناؤه: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون﴾[آل عمران:٨٤].**

**وأمره أيضاً عز وجل للمؤمنين أن يؤمنوا به وبرسوله وبالقرآن وما سبقه من الكتب والصحف السماوية المنزلة في قوله -تعالى-:**

---

(1) وتمام الحديث: (لا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل، من أجل ذلك مدح نفسه، ولا أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين). وفي لفظ آخر: (من أجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه). متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول النبي «لا شخص أغير من الله»، حديث رقم (٧٤١٦) فتح الباري ج١٣ ص٤١١، وأخرجه مسلم في كتاب التوبة باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش برقم (٣٣، ٣٤، ٣٥)، صحيح مسلم مع شرحه إكمال إكمال المعلم للأبي ج٩ ص١٧٤-١٧٥ .

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾ **[النساء:١٣٦].**

**فاقتضى هذا أن المسلم ملزم بالإيمان بالكتب السماوية المنزلة على الأنبياء والمرسلين، كما أنزلت من الله عز وجل قبل تحريفها من قبل من أنزلت إليهم. ثم الإيمان بأنها قد نسخت برسالة رسول الله محمد .**

**وفي ظل التحريف وعصيان الأنبياء والرسل عم العالم الظلم والفساد؛ فحل العقاب بمجتمعات وأمم، فبادت بعد أن سادت، ثم أراد الله بحكمته أن يبعث آخر الرسل إلى البشرية لهدايتهم، فكان المجتمع الذي ولد فيه محمد ليس ببعيد عن تلك المجتمعات، من حيث الطغيان والفساد، فلم يكن مجتمع مودة ومحبة .. ولم يكن مجتمع حضارة بالمفهوم الروحي .. ولم يكن مجتمع دولة في المفهوم السياسي .. ولم يكن مجتمع تنمية بالمعنى الاقتصادي والاجتماعي.**

**وفي ظل هذا المناخ كثر الضعفاء .. فتحولوا إلى أسرى وازدادت قوة الأقوياء .. فتحولوا إلى طغاة.**

**كثر المرابون فازداد المدينون، واستعظم الدائنون فتحولت**

العلاقة إلى سيد ومسود وقوي وضعيف.

دُفِنَت الفتيات البريئات في التراب، وهن أحياء ينظرن بحسرة إلى من يحثو عليهن التراب، ليميتهن في أبشع صورة للموت.

رُفِعَت الرايات التي تمثل العبث بالأخلاق في أرذل صوره، وانتشرت الوثنية في كافة طقوسها؛ فصار المعبود شجرة تنحر عندها القرابين، وتضرب عندها المزامير، وتجتمع، عندها الجموع وصار الإلَه حجراً تسجد له الجباه، وتتطأطأ أمامه الرؤوس، وتنحني له الأجسام.

ولما طال الليل، وادلهمت غياهبه رأت آمنة بنت وهب في منامها نوراً يخرج منها يمتد في ضوئه نحو الشام، ثم ولد النبي ﷺ ليكون شاهداً على أمم الأرض على اختلاف أجناسها، ولغاتها، وديانـاتها .. وُلِدَ ليكون مبشراً بالحق ومخلّصاً للإنسان من الضلال .. وُلِدَ ليكون نذيراً لخلق الله بأن العذاب سيحيق بمن يجحد ربوبية الله وألوهيته، ويتجبر على خلقه .. وُلِدَ ليكون داعياً إلى الله، ومُقِرّاً بربوبيته ووحدانيته وتصرفه في خلقه .. وُلِدَ ليكون سراجاً ينير للبشر طريق حياتهم، ومنهج سلوكهم ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦] .

**لقد تميزت رسالة محمد بن عبدالله بأنها رسالة أممية شاملة لجميع الإنس والجن، فهي بهذا تختلف عن رسالات الأنبياء السابقين، الذين كانوا يُرسلون إلى أقوامهم ..**

**كما تميزت رسالة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام بأنها خاتمة الرسالات وآخر الديانات، فليس بعد محمد نبي يُبْعَث، وليس بعده رسول يُرْسَل، وليس بعده وحي يُنَزَّل ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب:٤٠].**

**إن رسالة محمد بن عبدالله منهج كامل للسلوك المثالي الذي يجب أن يكون عليه الإنسان، فهي رسالة خُلُق تقوم على المحبة وصفاء العلاقة بين الإنسان .. واضحة في قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيم﴾[القلم:٤]، وفي قوله عليه الصلاة والسلام حين سئل أي المؤمنين أفضل؟ قال: (أحسنهم خلقاً)[١]، و(بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[٢].**

**وهي رسالة أمل لا رسالة قنوط، أوضحها الله في قوله تعالى: ﴿* قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ**

---

(١) أخرجه ابن ماجة في كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له برقم (٤٢٥٩)، سنن ابن ماجة ج٢ ص١٤٢٣هـ.

(٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ، باب حسن الخلق، والإمام أحمد في المسند ج٢ ص٣٨١.

اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيم﴾[الزمر:٥٣]، وأوضحها رسوله عليه الصلاة والسلام في قوله: (لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفروا الله، فيغفر لهم)[١].

وهي رسالة سلام تجسد كل معاني التآلف والمحبة؛ فاسم الإسلام فيه دلالة للسلام، والألفاظ التي يرددها المسلم في صلاته وفي علاقته هي ألفاظ السلام.

وهي رسالة وفاء بالعهد ووفاء بالقول ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ﴾[المائدة:١]. وقوله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُون*كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُون﴾[الصف:٢-٣].

وهي رسالة عدل تحرم الظلم والطغيان، وتعطي كل ذي حق حقه، صغيراً كان أم كبيراً، مسلماً كان أم غير مسلم ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة:٨]. ﴿* إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ﴾ [النحل:٩٠].

وفي ضوء هذه التعاليم كيف يكون فهمنا لهذه الرسالة، هل هو مجرد أخذ لبعضها وترك الآخر، أم هو مجرد تسلسل وراثي وجدنا

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار، برقم( ٢٧٤٨) و(٢٧٤٩)، صحيح مسلم مع شرحه إكمال إكمال المعلم للأبي ج٩ ص١٥٧-١٥٨.

**أنفسنا فيه فقبلناه؟.**

**الأصل والمقتضى أن نؤمن بها كما وردت، وليس كما نريد .. نؤمن بها إيماناً لا يتأثر بأهوائنا ومصالحنا واجتهادنا .. نؤمن بها إيماناً أساسه محبتنا لها أكثر من محبتنا لأنفسنا وما نملكه من متاع الدنيا ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِين﴾ [التوبة: ٢٤].**

**التزامنا بها ينبغي أن يكون التزاماً يجعلها أساس حياتنا في أصولها وفروعها .. دقائقها وجلائلها نحب من أحبها.. ونعادي من عاداها .. ونعمل لإبلاغها ونلتزم بنشرها لتكون رسالة الأرض كافة وعقيدة البشرية جمعاء، لترتفع حينئذٍ راية العدل والسلام بين الإنسان.**

**والتزامنا على هذا الوجه يعني أولاً وآخراً ممارستنا لتعاليم الرسالة في أنفسنا .. أمانة في الأداء .. قوة في العمل .. وصفاء في العلاقة .. وصدقاً في التعامل .. واستشهاداً في الحق .. وسلامة في الوسيلة، وصلاحاً في السريرة، وحينئذ يتحقق وعد الله لعباده الصالحين في قوله -تعالى-: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا**

مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور:٥٥].

**مولد النبي محمد ﷺ**

**كان عام الفيل وغزو الكعبة من قبل الأحباش وملكهم أبرهة مقدمة لمولد آخر الأنبياء والمرسلين[١]؛ فقد ولد محمد بن عبدالله يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول، وكانت ولادته إيذاناً بمولد رسالة إلَهية جديدة، تقضي على الوثنية والطغيان، وتعيد الإنسان إلى جادة الحق والسلام، امتداداً لرسالات الأنبياء والمرسلين بعد أن توقفت، وفعل قومها ما فعلوا من الضلال والصد عن ذكر الله ومحاربة أنبيائهم.**

**وقد توفي أبوه عبدالله وهو في بطن أمه[٢]، فأصبح يتيماً ولم تتطلع المرضعات إلى رضاعته إلا حليمة السعدية، رغم ما كانت تعرفه بأن أحداً لن يقدم لها أجراً في تلك السنة العجفاء، التي كانت المرضعات يبحثن فيها عن أب لصبي يدفع لهن أجراً على إرضاع ولده. ولما أخذته حليمة وجدت بركة الصبي في ثدييها وفي غنمها وفي أولادها**

(١) انظر: المستدرك، للحاكم، ج٢ ص٦٠٣، والبداية والنهاية، لابن كثير، ج٢ ص٢٤٢-٢٤٣.
(٢) وقيل: إن أباه توفي وله ثمانية وعشرون يوماً، البداية والنهاية، ج٢ ص٢٤٤-٢٤٥.

**وفي بني سعد قومها.**

**ولما أتم الرضاعة منها وفطمته قدمت به على أمه، وكلمتها في مكثه عندها، فأجابتها إلى طلبها، فلبث عندها إلى أن ردته إلى أمه وجده وهو ابن خمس سنين، ثم توفيت أمه آمنة وهو ابن ست سنين أو سبع في الأبواء[1] بعد رجوعها من زيارة أخواله بني النجار في المدينة.**

**وبوفاة أبيه وأمه كان من الطبيعي -كعادة العرب- أن يكفله جده عبدالمطلب، وكان مقامه عنده أحسن مقام، ليس لأنه جده أو لأنه يتيم فحسب، بل إن محبة الله له وتهيئته لحمل رسالته جعلت له محبة في قلب كل من عاشره من مرضعة وكفيل وقرين. ولما أحس عبد المطلب بدنو أجله كان يجد في ابنه أبي طالب الرجل الشفيق على الصبي؛ فأوصاه بكفالته ورعايته والبر به، وكان له خير كفيل وخير رفيق وأمين.**

**و ذات يوم خرج أبو طالب إلى الشام في تجارة له فتعلق به الصبي فلزمه، ولما وصلوا إلى بصرى كان الراهب «بحيرا» يتعبد في صومعته، فاستضاف أبا طالب ومن معه، وصنع لهم ما**

---

([1]) البداية والنهاية ج٢ ص٢٥٩. والأبواء تقع بين مكة والمدينة، وهي قرية من أعمال الفرع من المدينة، وقيل الأبواء جبل على يمين آرة، ويمين الطريق للذاهب إلى مكة من المدينة، معجم معالم الحجاز لعاتق البلادي ج١ ص٣٧-٣٨.

شاء أن يصنع من الطعام والشراب، ولكنه كان يتفحص الصبي، ويسأله عن صفاته، ليرى ما إذا كانت تتطابق مع الصفات التي يراها في كتابه، ثم جعل يسأل عنه عمه أبا طالب، فأخبره أنه ابن أخيه، وأنه يتيم الأبوين.

لقد وقر في نفس الراهب أن هذا الصبي هو النبي والرسول الذي بشر به نبي الله عيسى، فيما حكاه الله عنه في قوله -عز وجل-: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[الصف:٦]. وخوفاً على النبي والرسول المرتقب من الاعتداء، أشار على عمه ألا يقدم به إلى الشام، فقبل أبو طالب مشورته، فأعاده مع بعض غلمانه إلى مكة[١].

وكان النبي محمد ﷺ في شبابه جلداً صبوراً، يحب العمل والسعي، فرعى الغنم وتاجر وثابر، فضرب بسلوكه أروع الأمثلة في الأمانة وحسن التعامل. لم يكن عليه الصلاة والسلام يلهو ولو مجرد لهو، أو يلعب مجرد لعب بريء، كما يفعل الشبان في سنّه، فقد روى ابن الأثير الجزري أنه عليه الصلاة والسلام قال: (ما هممت بشيء مما كان في الجاهلية يعملونه غير مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبينه، ثم ما هممت به حتى أكرمني الله عز وجل بنبوته. قلت ليلة

(١) انظر: البداية والنهاية، ج٢ ص٢٦٣-٢٦٧.

**للغلام الذي كان يرعى معي بأعلى مكة: لو أبصرت غنمي حتى أدخل مكة، وأسمر بها كما يسمر الشباب فقال: افعل، فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفًا، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: عرس فلان بفلانة، فجلست أسمع فضرب الله على أذني، فنمت فما أيقظني إلا حر الشمس، فعدت إلى صاحبي، فسألني فأخبرته، ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك، ودخلت مكة، فأصابني مثل أول ليلة ثم ما هممت بعده بسوء)[1].**

**وفي تلك الأثناء التي بلغ فيها رسول الله ﷺ خمساً وعشرين سنة من عمره كانت خديجة بنت خويلد تضارب بالتجارة في مكة وفي محيطها، وقد سمعت عن محمد ﷺ ما سمعته من الأمانة والبركة في السعي والإخلاص في العمل؛ فبعثت إليه تخبره عن رغبتها في بعثه في تجارة لها، فقبل ذلك وخرج إلى الشام، فباع واشترى وضارب، كما لو كان يفعل ذلك لنفسه، فربح مالاً كثيراً. ولما عرفته عنه خديجة وما رأته من أمانته وصدقه، أرسلت إليه تعرض الزواج منه، فقبل ذلك عليه الصلاة والسلام، فخطبها من عمها عمرو بن أسد بن عبدالعزى فقبل ذلك فتزوجها وعمره خمس وعشرون سنة، فولدت له كل أولاده، ما عدا إبراهيم، فكانت خير**

---

([1]) الكامل في التاريخ، ج٢ ص٢٤ وانظر: البداية والنهاية، ج٢ ص٢٦٧.

معين له، وهو في بداية الرسالة تدعمه وتؤيده وتناصره عليها رضوان الله وعليه صلاته وسلامه[1].

**مبعث النبي محمد ﷺ**

ومن مقدمات بعثة النبوة والرسالة إلى حقيقتها، فأول ابتداء الوحي لرسول الله ﷺ كانت الرؤيا الصادقة التي يراها، ثم تكون كما رآها، ثم حبب الله إليه الانعزال والخلوة، فكان يذهب إلى غار حراء في أعالي مكة، يتعبد فيه الليالي ذوات العدد، حتى جاءه جبريل بالوحي قائلاً له: إنك يا محمد رسول الله. ولما سمع ذلك عليه الصلاة والسلام جثا على ركبتيه، ثم جعل يرجف من شدة الوحي، فدخل على خديجة يخبرها بما حدث، حتى ذهب عنه الروع، ثم جاءه جبريل مرة أخرى، فقال له: يا محمد أنا جبريل الملك، وأنت رسول الله، وأمره أن يقرأ، فقال عليه الصلاة والسلام: (ما أنا بقارئ؟)، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[العلق:١]، فقرأها ثم أتى خديجة، فقال لها ما حدث، وما أصابه من شدة الوحي، فقالت له: ابشر يا محمد، فإن الله لا يخزيك أبداً .. إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة،

---

(1) انظر: المستدرك، ج٣ ص١٨٢، المصنف لعبدالرزاق، ج٥ ص٣١٩-٣٢١، والطبقات لابن سعد، ج١ ص١٥٥-١٥٧ .

**وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق[1].**

**كانت خديجة -رضي الله عنها- تعرف ما عند ابن عمها ورقة بن نوفل من علم التوراة والإنجيل، حيث كان نصرانيًّا، فانطلقت برسول الله إليه، فقالت: اسمع من ابن أخيك ما حدث له، فسأل ورقة رسول الله فأخبره بما حدث، فقال ورقة: هذا هو الناموس الذي أنزل على موسى بن عمران، ليتني كنت حيًّا حين يخرجك قومك . فقال رسول اللهﷺ متسائلاً: (أمخرجيّ هم؟). فقال ورقة: «نعم إنه لم يأت أحد بمثل ما أتيت به إلا عاداه قومه، ولئن أدركني يومك لأكونن لك نصيراً»[2].**

**وفي سياق الوحي وإشراقات النبوة ودلائلها توقف الوحي فترة من الزمن، فشق ذلك على رسول اللهﷺ ، وحزن حزناً شديداً، فجعل يعدو إلى شواهق الجبال في مكة، فكان جبريل يظهر له عندها، فيقول: إنك نبي الله ورسوله، فيهدأ روعه، وتطيب بذلك نفسه، وبينما هو على تلك الحال رأى الملك الذي كان يأتيه في غار حراء على كرسي بين السماء والأرض، فأصابه الرعب من هيئته، فرجع إلى زوجته خديجة وقال لها: (زملوني) فزملته**

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب رقم ٣، حديث رقم ٣، فتح الباري للحافظ ابن حجر ج١ ص٣٠-٣١.

(2) فتح الباري، ج١ ص٣٠-٣١ .

ودثرته، فأنزل الله عليه قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّر *قُمْ فَأَنذِر * وَرَبَّكَ فَكَبِّر * وَثِيَابَكَ فَطَهِّر * وَالرُّجْزَ فَاهْجُر * وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِر * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِر﴾[المدثر:١-٧]. فكانت هذه الآيات دعوة له عليه الصلاة والسلام إلى إنذار قومه في مكة وكل الناس بما سيحيق بهم من العذاب إذا لم يتركوا الكفر والشرك. كما كانت دعوةً له عليه الصلاة والسلام إلى تكبير الله وتعظيمه وإجلاله، وتطهير ثيابه من النجاسات التي يتصف بها مجتمع مكة آنذاك، وهجر الأوثان التي يعبدها ويعظمها المشركون. كما كانت دعوةً له عليه الصلاة والسلام إلى عدم المن بالعطاء والصبر على حمل الرسالة، وما سيلقاه في سبيلها من قومه وغيرهم.

وفي تلك الأثناء أيضاً من توقف الوحي كان المشركون يتربصون برسول الله يبحثون عن أخباره وأحواله، لعلهم يجدون ما يصدق دعواهم في محاربته وتأليب العامة عليه، فقالوا بينهم ولأتباعهم: إن ما يزعم أنه ربه قد قلاه، أي أبغضه وتركه؛ فكانت أم جميل العوراء زوجة أبي لهب رأس الشرك والكفر تأتي إليه، وتقول: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك، ولم أره قربك. فأنزل الله قوله -تعالى-:﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى*مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾[الضحى:١-٣]. فكانت هذه الآيات ردًّا على المشركين بأن

الله لم يتركه ولم يبغضه، بل امتن عليه بالآخرة لما أعده له فيها من النعيم، وأنه سوف يعطيه ما يرضيه من كمال الرسالة وظهورها، وهذا هو معنى قوله -عز وجل-: ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾[الضحى:٤-٥] .

وتكذيباً لهم أكد الله محبته لنبيه ونصرته له، فذكَّره بما امتن به عليه من إيوائه أيام يتمه، حين كفله وقام على رعايته عمه أبو طالب وما منَّ به عليه من نعمة الهداية من بين قومه، الذين كانوا على الشرك والضلال، وما امتن به عليه أيضاً من نعمة الغنى، حيث لم يترك له أبوه ولا جده ولا أمه مالاً، فرزقه الله القناعة وملأ قلبه بها، فأصبح غني النفس عفيف اليد، لا يسأل أحداً مالاً، ولا يرجو من أحد منة، وهذا هو معنى قول الله عز وجل:﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى *وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾[الضحى:٦-٨].

وهذه المنن الإلَهية الثلاث تربية وتعليم له عليه الصلاة والسلام بأن يتذكر أيام يتمه فلا يذل يتيماً أو يتعرض له في ماله، ولا ينهر أو يتأفف من سائل أو فقير أو ذي حاجة، وأن عليه أن يتحدث بنعم الله عليه من الهدى ونور الإيمان ويشكر الله عليها وهذا هو معنى قول الله -عز وجل-: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَر * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ

تَنْهَر * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّث﴾ [الضحى:٩-١١][1].

وتتابعت على رسول الله إشراقات الوحي الإلَهي، فبعد أن كانت في صورة الرؤيا الصادقة -كما ذكر- كانت تأتيه في صورة النفث في قلبه من قبل الملك دون أن يراه، وفي ذلك قال عليه الصلاة والسلام: (إنَ روح القدس نفث في روعي)[2]. وكانت هذه الإشراقة تأتيه في صورة صلصلة الجرس فيلتبس به الملك، وكانت تأتيه في صورة رجل عادي يخاطبه ويعلمه، فيدرك ما يقوله، وكان صحابة رسول الله يرونه أحياناً عنده دون أن يعرفوه. وفي هذا قال عمر بن الخطاب ﷺ : «بينما نحن (جلوس) عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبيﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول اللهﷺ : (الإسلام: أن تشهد أن لا إلّه إلا الله، وأن محمداْ رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاْ) قال: صدقت. قال: فعجبنا له يسأله ويصدِّقه، قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه، ورسله، واليوم الآخر،

---

(1) انظر تمام القصة في تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٤ ص٥٢٣-٥٢٥، تفسير سورة الضحى.

(2) فتح الباري، ج١ ص٢٦٧.

**وتؤمن بالقدر خيره وشرَ)، قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)، قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: (ما المسئول عنها بأعلم من السائل)، قال: فأخبرني عن أماراتها؟ قال: (أن تلد الأمة ربَّتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان). ثم انطلق فلبثت مليًّا، ثم قال: (لي) يا عمر أتدري من السائل؟ قلت الله ورسوله أعلم، قال: (هذا جبريل أتاكم يعلِّمكم دينكم)»[1].**

**دعوته قومه إلى الله**

**لما بدأت أعداد المسلمين تتزايد أحس المشركون بخطورة الأمر، فبدأ أذاهم يشتد على رسول الله وعلى من آمن به واتبعه . ولما كان هؤلاء قلة في جانب المشركين أذن رسول الله ﷺ لهم بالهجرة إلى الحبشة، لما علمه من عدل ملكها النجاشي، ولما تصوره من إيوائه لهم، فذهب إلى الحبشة مجموعة، وهم أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، منهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت**

---

([1]) هذا الحديث تفرّد به مسلم عن البخاري بإخراجه، فخرجه من طريق كهمس عن عبدالله بن بريدة عن يحيى بن يعمر. قال: كان أوّل من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبدالرحمن الحميري حاجين أو معتمرين، لقينا عبدالله بن عمر، فذكرنا القدر وما يقولون فيه. فاقتصَّ الحديث كنحو حديثهم عن عمر ﷺ ، عن النبيﷺ ، وفيه شيء من زيادة وقد نقص منه شيئاً. صحيح مسلم مع شرحه إكمال إكمال المعلم للأبي، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان. رقم الحديث ١، ج١ ص٩١-١٢١.

**رسول الله ﷺ .**

**وبعد مدة من إقامتهم عادوا إلى مكة بعد أن بلغهم أن قريشاً أسلمت، وأن مكة أصبحت آمنة. ولما وصلوا إليها تبين لهم أن الخبر كان غير صادق، فعاد بعضهم إلى الحبشة، وبقي البعض الآخر في مكة، فاشتد عليهم الأذى والضيق، فأذن لهم رسول الله ﷺ بالهجرة ثانية إلى الحبشة، فهاجر من الرجال ثمانون ومن النساء ثماني عشرة امرأة، فأكرمهم النجاشي وأحسن مقامهم ووفادتهم.**

**ولما علمت قريش بذلك أرسلوا نفراً منهم عمرو بن العاص إلى الحبشة للكيد لهم والوشاية بهم عند النجاشي. فلم يجدوا مبتغاهم منه، فاشتد أذاهم على رسول الله ﷺ فحاصروه ومن معه في شعب أبي طالب. وفي أثناء هذا الحصار مات عمه أبو طالب وزوجته خديجة، فاشتد عليه الحزن والضيق فخرج إلى الطائف يدعو أهلها، لعله يجد عندهم نصراً فلم يجيبوه[1]، ولقي الكثير من العنت والضيق فعاد إلى مكة، وفي مكان يسمى نخلة بين مكة والطائف**

---

([1]) لم يؤمن به إلا عداس، وكان نصرانيًّا من أهل نينوى في العراق جاء للطائف للعمل فيه أجيرا كما يبدو من سياق قصته البداية والنهاية، ج٣ ص١٣٤.

**جاءه نفر من جن نصيبين[1]، فأسمعهم كلام الله، فآمنوا به وصدقوه، ورجعوا إلى قومهم يبشرونهم بالإسلام ويدعونهم إليه، وذلك فيما حكاه الله عنهم في قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِين * قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيم *يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيم * وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِين﴾[الأحقاف: ٢٩-٣٢].**

**ومع دعوته عليه الصلاة والسلام عشيرته الأقربين كان يذهب إلى مواســـــم الاجتماعات في سوق عكاظ[2] ومجاز[3]**

---

(1) حي من الجن، تفسير ابن كثير، ج٤ ص١٦٩.

(2) سوق عكاظ هو المعرض العربي أيام الجاهلية، والسوق التجارية الكبرى، يحمل إليها من كل بلد تجارته وصناعته، وهو معرض لكثير من عادات العرب وأحوالهم الاجتماعية والأدبية والسياسية، موقعه الجغرافي بين مكة والطائف جنوب مكة إلى الشرق، انظر: أسواق العرب للأفغاني ص ٥٣٦، وأخبار مكة للأزرقي ص١٣١، وفي معجم معالم الحجاز كان سوق عكاظ يقام في مكان من الأرض في حدود مساحة تبلغ عشرين كيلاً من العبلاء (العبل اليوم) جنوباً إلى خَلْص شمالاً، ومن قرب التقاء شرب بالريكة غرباً إلى المبعوث شرقاً ج٦ ص١٤٧-١٥٢.

(3) مجاز على مسافة فرسخ من عرفة بناحية كبكب، وكبكب جبل بعرفات خلف ظهر الإمام إذا وقف، وقيل إنها موضع بمنى، ومنى بين مكة وعرفات في نصف الطريق تقريباً، وسمي ذا

**ومجنة[1]، وكان يسأل عن القبائل واحدة واحدة، فعرض رسالته على قبائل كندة وكليب وبني عامر وسليم وعبس وبني النضر وعذره وغيرهم، ويقول لهم: (قولوا لا إلّه إلا الله، فإذا قلتموها أفلحتم، وملكتم العرب وغيرهم). وكان عمه أبو لهب يتعقبه ويطارده عند القبائل، ويقول لهم: لا تصدقوه، فإنه صابئ كذاب، فيطيعونه. ويقولون للرسول عليه الصلاة والسلام: لو كنت على حق لاتبعك قومك وعشيرتك.**

**وفي تلك الأثناء من الحصار والضيق نزل عليه ملك الجبال، وسأله إن كان يريد أن يطبق على قومه أخشبي[2] مكة، فرد عليه**

---

المجاز، لأن إجازة الحاج كانت منه. وذو المجاز من ديار هذيل، انظر: أسواق العرب للأفغاني، ص٣٥٨ ، وأخبار مكة، ص١٣٢. وفي معجم معالم الحجاز مجاز شعب يسيل من جبل كبكب من جهته الغربية، فيتجه غرباً حتى يدفع في وادي عرنة عند التقائه بوادي حنين على ثمانية أكيال من علمي طريق نجد شرقاً وطول هذا الشعب لا يزيد عن عشرة أكيال وهو موقع سوق ذي المجاز الشهير شمال عرفة على نصف المسافة تقريباً بينها وبين الشرائع ج٨ ص٢٢-٢٤.

(1) مجنة موقع وقيل بلد قرب مكة على أميال منها، تقع بمر الظهران، قرب جبل يقال له الأصفر وهو أسفل مكة، ميمها بالفتح وتكسر، انظر: أسواق العرب للأفغاني ص٣٥٩ ، وأخبار مكة ص١٣٣، ومدينة العرب في الجاهلية والإسلام لرشدي، ج٢ ص٢٥٦ وما بعدها، وقال عاتق بن غيث البلادي، إنها بلدة بحرة حالياً بين مكة وجدة، انظر: معجم معالم الحجاز ج٨ ص٣٠-٣٣.

(2) الأخشبان: جبلان في مكة، ويقال إنهما أبو قبيس وقعيقعان، وأبو قبيس من أشهر جبال مكة يشرف على المسجد الحرام، وهو بين شعب علي وبين أجياد، وهو من الجبال المأهولة بالسكان. انظر: معالم مكة التاريخية والأثرية عاتق بن غيث البلادي ص١١ . أما قعيقعان فهو يشرف على المسجد الحرام من الشمال الغربي، ويمتد شمالاً إلى الحجون، وغرباً إلى بئر طوى، وجنوباً إلى حارة الباب والشبيكة، ومن أقسامه اليوم جبل هندي وجبل العبادي وجبل السليمانية وجبل الفلق، انظر: معالم مكة التاريخية والأثرية ص١٢ .

**رسول اللهﷺ أنه يريد أن ينتظر بهم لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده ولا يشرك به شيئاً. وفي تلك الأثناء من الحصار أيضاً دعا عليه الصلاة والسلام دعاءه المشهور (اللهم أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس..)[1]. ولما وصل إلى مكة نزل إلى جوار المطعم بن عدي[2]، وفي تلك الفترة أسري به إلى السماء، وفرضت عليه الصلوات الخمس. ونسوق هنا حديث الإسراء والمعراج، كما في صحيح الإمام البخاري:**

**حدثنا يحيى بن بُكير قال حدَّثنا الليث عن يونس عن ابن شهاب عن أنس بن مالكرضي الله عنهقال: كان أبو ذر يُحدِّث أن رسول الله ﷺ قال: (فُرِجَ عن سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرّج صدري، ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطّست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانًا، فأفرغه في صدري ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئت إلى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء: افتح. قال: من هذا؟ قال: هذا جبريل. قال: هل معك**

---

(1) البداية والنهاية، ج٣ ص١٣٤.

(2) هو مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف القرشي، يكنى أبا محمد، وكان من حلماء قريش وساداتهم، وكان يؤخذ عنه النسب لقريش وللعرب قاطبة، وكان له عند رسول اللهﷺ يد، وهو أنه كان أجار رسول الله ﷺلما قدم من الطائف، حين دعا ثقيفاً إلى الإسلام، وكان أحد الذين قاموا في نقض الصحيفة التي كتبتها قريش على بني هاشم وبني المطلب، وكانت وفاته قبل بدر بنحو سبعة أشهر، وكان إسلام ابنه جبير بعد الحديبية وقبل الفتح، انظر: أسد الغابة، لابن الأثير، ج١ ص٣١٠-٣١١.

أحد؟ قال: نعم، معي محمدﷺ . فقال: أرسِلَ إليه؟ قال: نعم. فلما فتح علونا السماء الدنيا، فإذا رجل قاعد على يمينه أَسَوِّدّة وعلى يساره أَسَوِّدّة، إذا نظر قُبّل يمينه ضحك، وإذا نظر قُبّل يساره بكى، فقال: مرحباْ بالنبي الصالح والابن الصالح. قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم، وهذه الأَسَوِّدّة عن يمينه وشماله نَسّمٍ بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأَسَوِّدّة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر قُبّل شماله بكى حتَّى عرج بي إلى السماء الثانية فقال لخازنها: افتح. فقال له خازنها مثل ما قال الأول، ففتح). قال أنس: فذكر أنه وجد في السماوات آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم صلوات الله عليهم . ولم يثبت كيف منازلهم غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا، وإبراهيم في السماء السادسة. قال أنس: فلمَّا مرَّ جبريل بالنبي ﷺ بإدريس قال: (مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا إدريس. ثم مررت بموسى فقال: مرحباْ بالنبي الصالح والأخ الصالح . قلت: من هذا؟ قال: هذا موسى. ثم مررت بعيسى فقال: مرحباْ بالأخ الصالح والنبي الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا عيسى. ثم مررت بإبراهيم فقال: مرحباْ بالنبي الصالح والابن الصالح. قلت من هذا؟ قال: هذا إبراهيم صلى الله عليه وسلم). قال

**ابن شهاب فأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا حبة الأنصاري كانا يقولان: قال النبي : (ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى ﷺ أسمع فيه صريف الأقلام). قال ابن حزم وأنس بن مالك: قال النبيﷺ : (ففرض الله على أمتي خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى فقال: ما فرض الله لك على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة. قال: فارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك. فراجعني فوضع شطرها. فرجعت إلى موسى قلت: وضع شطرها. فقال: راجع ربك، فإن أمتك لا تطيق. فراجعت، فوضع شطرها . فرجعت إليه فقال: ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك. فراجعته فقال: هي خمس وهي خمسون، لا يُبَدَّلِ القول لدي. فرجعت إلى موسى فقال: راجع ربك. فقلت: استحييت من ربي . ثم انطلق بي حتى انتهى بي إلى سدرة المنتهى، وغشيها ألوان لا أدري ما هي. ثم أدخلت الجنة، فإذا فيها حبايل اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك)[1].**

## الهجرة إلى المدينة

(1) فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ج١ ص٥٤٧-٥٤٨ ، الحديث رقم (٣٤٩)، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء، من كتاب الصلاة وصحيح مسلم. برقم (١٦٣).

بعد ما عانى رسول الله ﷺ ما عاناه من قومه وعشيرته وقبائل العرب في مكة وما حولها، أراد الله عز وجل إظهار دينه، ونشر رسالة رسوله ونبيه، واختص بهذا الفضل، المدينة، لتكون المكان الذي تنطلق منه هذه الرسالة، وتنتشر في الأرض لهداية البشرية جمعاء.

هذه العلاقة بالمدينة بدأت عندما كان رسول الله ﷺ يدعو الناس في المواسم، فبينما هو على تلك الحال لقي عند العقبة في منى نفراً من الخزرج يتقدمهم أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث من بني النجار، فعرض عليهم رسالته، ودعوته إلى الله، فاستمعوا له بقلوب خاشعة وقالوا له: إن بين قومنا سوءاً، ولعل الله أن يجمعهم عليك.

وبعدما رجع النفر إلى قومهم في المدينة كلمَّوهم في أمر ما سمعوا، ودعوهم إلى التصديق والإيمان بهذه الرسالة، لما سيكون لهم فيها من الخير والعزة والأمان. وفي الموسم من العام القادم قدم اثنا عشر رجلاً، عشرة من الخزرج منهم أسعد بن زرارة وعوف بن الحارث واثنان من الأوس، فبايعوا رسول اللهﷺ بيعة

**النساء[1]. وشهد هذه البيعة أبو الهيثم بن التيهان[2] من قبيلة أوس، فسرّ رسول اللهﷺ لذلك، وأرسل معهم مصعب بن عمير بن عبد مناف[3] ليعلّمهم ويقرئهم القرآن. ولما وصل مصعب المدينة أخذ يبلّغ الرسالة في جوار أسعد بن زرارة، فالتفَّ حوله نفر من أهلها، فسمع بذلك سعد بن معاذ وأسيد بن الحضير -وكلاهما سيدان في قومهما- فأتى أسيد إلى مصعب، ونهاه عما يفعل، وقال له: ما أراك إلا تسفّه ضعفاءنا ومساكيننا، فطلب مصعب منه أن يجلس ويستمع ما يقوله، فإن رضي ما سمعه قَبِلَه، وإن كرهه**

---

(١) بيعة النساء والمقصود من ذلك أنهم بايعوا على وفق بيعة النساء، التي نزلت بها الآية ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ...﴾ **[الممتحنة:١٢]**.حيث لم يرد في بيعة العقبة الأولى ذكر القتال، فشبهت ببيعة النساء، انظر: تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٥٢-٣٥٥، والسيرة النبوية، لابن هشام ج٢ ص٨٥-٨٦ .

(٢)كان يتغلب على المدينة قبيلتان كبيرتان، هما الأوس والخزرج، وكثيراً ما وقعت بينهم عداوات وحروب قبل الإسلام، فكان دخولهم في الإسلام نهاية لتلك العداوات . وقد ذكرهم الله بذلك في قوله عز وجل: ﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ **[آل عمران:١٠٣]**، راجع تفسير الآية تفسير ابن كثير ج١ ص٣٦٦-٣٦٨. التيهان هو ابوالهيثم مالك بن التيهان بن مالك بن عبيد بن مالك بن الأوس الأنصاري وكان أحد الستة الذين لقوا رسول الله ﷺ أول ما لقيه الأنصار وشهد العقبة الأولى والثانية وهو أول من بايعه بيعة العقبة وكان نقيب بني عبد الاشهل هو وأسيد بن حضير وشهد بدرا وأحداً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وتوفى في المدينة في خلافة عمر سنة ٢٠ وقيل بل قتل بصفين سنة ٣٧ أسد الغابة ج٤ ص٣١.

(٣)هو الصحابي الجليل مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصَيّ بن كلاب ابن مرَّة القرشي العبدري، يكنى أبا عبد الله، كان من فضلاء الصحابة وخيارهم، ومن السابقين إلى الإسلام. أسلم ورسول الله ﷺفي دار الأرقم، وكتم إسلامه خوفاً من أمّه وقومه، وكان يختلف إلى رسول اللهﷺ سراً، فبصر به عثمان بن طلحة العبدري يصلي، فأعلم أهله وأمه، فأخذوه فحبسوه، فلم يزل محبوساً إلى أن هاجر إلى أرض الحبشة، وعاد من الحبشة إلى مكة، ثم هاجر إلى المدينة بعد العقبة الأولى، ليعلّم الناس القرآن ويصلّي بهم، وقتل بأحد شهيداً . انظر: أسد الغابة ج٤ ص١٣٤-١٣٥.

**كف عنه ما يكره، فقال: حسناً فجلس واستمع إلى مصعب، فوقر الإسلام في قلبه، فقال: ما أحسن هذا الكلام، فأسلم في حينه.**

**ولما عاد إلى سعد بن معاذ وجد أن وجهه قد تغير على غير ما كان يعهده منه، فسأله عما فعل، فقال أسيد: ما رأيت من الرجلين إلا خيراً، ثم قال له: لقد سمعت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه[1]، فغضب سعد مما سمع؛ لأن أسعد بن زرارة ابن خالته، فكيف يرضى له القتل، فخرج بسلاحه مسرعاً، فرأى أسعد ومصعباً جالسين لم يمسسهما سوء، فطلب منه مصعب أن يجلس ويستمع القرآن، ثم عرض عليه ما عرض على أسيد من قبل، ولم تكن إلا لحظات حتى وقر الإسلام في قلبه، فعاد إلى قومه قائلاً: يا بَنِي عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ فقالوا: سيدنا حسباً وأفضلنا مقاماً. فقال لهم: إن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله. فلم يبق بعد ذلك رجل أو امرأة في بني عبد الأشهل إلا وقد آمن برسول الله ﷺ ورسالته[2].**

---

([1]) لقد قصد أسيد بن الحضير أن يستفز سعد بن معاذ، ليخرج إلى مصعب ويسمع منه، انظر تمام القصة في البداية والنهاية، ج٣ ص١٤٩-١٥١ .

([2]) هذه البيعة هي الثانية، أي على حرب الأحمر والأسود والمبايعون من الخزرج أسعد بن زرارة وعبد الله بن رواحة والبراء بن معرور وسعد بن الربيع ورافع بن مالك وعبد الله بن عمرو بن حرام وسعد بن عبادة وعبادة بن الصامت والمنذر بن عمرو. أما المبايعون من الأوس فهم أسيد بن الحضير ورفاعة بن عبد المنذر وسعد بن خيثمة . راجع السيرة النبوية، لابن هشام ج٢ ص٩٢-٩٧ ، والبداية والنهاية ج٣ ص١٥٦-١٥٩ .

**ولما فشا الإسلام وانتشر في ربوع المدينة بين الأنصار، اتفق سبعون رجلاً منهم على الذهاب إلى رسول الله ﷺ وواعدوه أيام التشريق، فاجتمعوا به عند العقبة فحدثهم وتلا عليهم القرآن، ورغَّبهم في الإسلام، وقال: (تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم)، فقال أحدهم: والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه ذرياتنا وأهلنا، ثم بايعوا رسول الله على ذلك، وكان أول المبايعين البراء بن معرور، فبايعهم ﷺ قائلاً: (وإني أسالم من سالمتم وأحارب من حاربتم)، ثم قال لهم: (أخرجوا إليَّ اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم)، فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس[1].**

**ولما سمعت قريش بما حدث فزعوا منه فجاء رؤساؤهم إلى الأنصار، وقالوا لهم: لقد علمنا أنكم أتيتم لتخرجوا صاحبنا وتبايعوه على حربنا، وإننا لنكره أن يكون بيننا وبينكم حرب. فأجابهم ممن لم يسلم بعد من الأنصار أنه لم يحدث شيء مما ظنوه، ومع ذلك فقد علمت قريش أن الأمر قد خرج من يدها، وأن الأنصار قد أسلموا، وأنهم سيقاتلون مع رسول اللهﷺ وينصرونه عاجلاً أم آجلاً، وبهذا لم يكن من قريش إلا أن تشدد وطأتها على**

---

(1) البداية والنهاية، ج٣ ص١٥٠-١٥١ .

المسلمين في مكة، وتزيد في إيذائهم، فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن أمر أصحابه بالهجرة إلى المدينة فهاجر عدد منهم ثم تتابعت هجراتهم ينزلون ضيوفاً آمنين عند الأنصار.

أما رسول الله ﷺ فقد جلس في مكة ينتظر أمر ربه، وجلس معه أبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب، فلما رأت قريش ما حدث من أمر الهجرة إلى المدينة رغبت في فعل ما يقضي على رسالة رسول الله، فاجتمع رؤساؤها في دار قصي بن كلاب المسماة بدار الندوة، فاجتمع معهم إبليس في صورة شيخ جاءهم من بلاد بعيدة، وقال لهم: لقد سمعت بخبركم، وأودُّ مشاركتكم الرأي فيما أنتم فاعلون، ثم أجمعوا كلهم على خطورة أمر محمد، وما قد ينالهم منه وممن اتبعه، فرأى بعضهم أن ينفى، ويخرج من مكة، فقال لهم إبليس: إذا فعلتم ذلك فسيخرج إلى حي من أحياء العرب فيتقبلونه لما يسمعونه من حسن حديثه، ثم يعدون عليكم فما هذا برأي. فقال البعض الآخر: الأفضل أن نحبسه ونغلق عليه الأبواب حتى ينتهي أمره، فقال إبليس: لو فعلتم ذلك سيخرج أمره إلى أصحابه فينزعونه منكم، فما هذا لكم برأي. فقام أبو جهل بن هشام، وقال لهم: الأفضل أن نأخذ من كل قبيلة فتى من فتيانها، ونعطي كل واحد منهم سيفاً، ثم يضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق

**دمه في القبائل، وحينئذٍ لن يقدر بنو عبد مناف على محاربة كل قومهم، فيرضوا بالدية وينتهي أمر محمد . فقال إبليس: هذا هو الرأي الصائب، فعليكم الأخذ به، فلن تجدوا أحسن منه، فتفرقوا مجمعين على رأي أبي جهل وإبليس(١).**

**ولما أرادوا ذلك أراد الله نجاة نبيه ورسوله فأتاه جبريل وأمره ألا يبيت تلك الليلة على فراشه. وفي عتمة الليل اجتمع المتآمرون على باب رسول الله يترصدون له، ويتربصون به ليقتلوه، فلما رآهم قال عليه الصلاة والسلام لعلي بن أبي طالب: (نم في فراشي والبس بردي، فإنه لن يصيبك شيء تكرهه)، وأمره أن يؤدي ما عنده من ودائع الناس، وخرج رسول الله ﷺ من البيت: وأخذ حفنة من التراب فنثره على رؤوسهم، وهو يتلو قول الله عز وجل: ﴿يس *وَالْقُرْآنِ الْحَكِيم * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِين * عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم * تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيم * لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُون * لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُون * إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُون * وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُون﴾[يس:١-٩]. وتركهم على الباب دون أن يروه، فجاءهم من جاءهم، وقال لهم: إن محمداً خرج**

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص١٣٦-١٣٩ .

من عندكم، وانظروا ما على رؤوسكم من التراب، فجعلوا ينظرون، ويرون علياً وعليه البرد، ويقولون: إن محمداً لا يزال نائماً، فلم يزالوا على حالهم تلك حتى الصبح، فقام علي من الفراش فعرفوه وعرفوا أن محمداً ليس بأيديهم، فسألوا علياً عنه وعن مكانه، فقال لهم: لا أدري، فضربوه وحبسوه ثم تركوه، ونَجَّى الله رسوله مما ائتمروا عليه، وأمره بالهجرة إلى المدينة، وفي ذلك قال الله عز وجل ممتناً على نبيه بنجاته: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِين﴾[الأنفال: ٣٠].

وتلبية لأمر الله عز وجل لنبيه بالهجرة جاء إلى أبي بكر في وقت ليس كعادته يأتيه فيه، فقال: (إن الله قد أذن لي بالهجرة)، فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام: (نعم الصحبة)، فبكى أبو بكر من شدة الفرح. وحتى يكونا على بينة من الطريق استأجرا عبدالله بن أريقط[1]، ليدلهما عليه ويتثبت منه وأودعاه راحلتيهما، وأمر رسول الله علياً أن يتخلف في مكة حتى يؤدي عنه الودائع ثم يلحق به . وخرج الرسول وأبو بكر ولم يكن أحد يعلم بخروجهما سوى علي وآل أبي بكر، فنزلا

(1) وهو من الدئل بن بكر، كان مشركاً، السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص١٤٢ .

**في غار حراء في جبل ثور، وكان عبدالله بن أبي بكر يلتقط آراء قريش وأخبارهم ويأتي بها في الليل إلى الغار، وكانت أخته أسماء تأتيهما بالطعام ليلاً. ولما علمت قريش بخروجه جعلوا مائة ناقة لمن يأتيهم به أو يدلّهم عليه، ثم تتبعوه حتى عرفوا الغار، فقال أبو بكر: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى ما تحت قدميه لرآنا، فقال رسول الله ﷺ: (ما ظنك باثنين الله ثالثهما، لا تحزن إن الله معنا). ولما مضت ثلاث ليال جاء عبدالله بن الأريقط بالبعيرين، وأتتهما أسماء بنت أبي بكر بجراب الطعام، وجعلت نطاقها عصاماً للبعيرين[1] وعلقت به الجراب، وسار الصاحبان على طريق**

---

([1]) نسيت -رضي الله عنها- أن تحضر معها عصاماً فجعلت من نطاقها عصامين، وهذا هو معنى تسميتها ذات النطاقين وقالت: لم نكن نعرف أين توجه رسول الله وصاحبه حتى جاء رجل من الجن من أسفل مكة والناس يسمعون صوته ولا يرونه وهو يردد:

جزى الله رب الناس خير جزائه ... رفيقين حلا خيمتي أم معبد
هما نزلا بالهدى واقتديا به ... فأفلح من أمسى رفيق محمد
فيا لقصي ما زوى الله عنكم ... به من فعال لا تجارى و سؤدد
ليهن بني كعب مكان فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها ... فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد

=وخلاصة قصة خيمة أم معبد الخزاعية أن رسول الله ﷺ مر في مسيره بخيمتها وكانت في العادة تجلس في الخيمة فتطعم وتسقي من يمر بها فسألها رسول الله ﷺ عما إذا لديها شيء، فقالت: لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى والشّاء عازب، فنظر عليه الصلاة والسلام إلى شاة في الخيمة فقال لها: (ما هذه يا أم معبد) ، فقالت: شاة أعياها الجهد والغدوة مع الغنم، فقال: (هل بها لبن) ، فقالت: هي أعيا وأجهد من ذلك، فقال: (أتأذنين لي في حلبها) ، فقالت: إن رأيت بها شيئاً فاحلبها، فمسح رسول الله ﷺ بيده اليمنى ضرعها وسمَّى الله ودعا فدرّ الضرع ودعا بإناء فامتلأ الإناء فسقا أم معبد وسقى من معه حتى رووا، ثم شرب وحلب ثانية حتى امتلأ الإناء ثم غادر الخيمة . ولما جاء زوجها أبو معبد شرحت له ما كان فعجب عجباً شديداً وقال: هذا والله صاحب قريش لقد هممت أن أصحبه وأتبعه إن وجدت لذلك سبيلاً . انظر: البداية والنهاية، ج٣ ص١٩٠-١٩١ .

**الساحل[1] خلف الدليل، ولم يكن معهما سوى مولى أبي بكر يخدمهما، وقد تبعهم سراقة بن مالك المدلجي عله يظفر بجائزة قريش، ولما لحقهم ورآه أبو بكر قال: يا رسول الله لقد أدركنا طلب قريش، فقال له عليه الصلاة والسلام: (لا تحزن إن الله معنا). ودعا على سراقة فوقعت فرسه في الأرض، فقال: يا محمد ادع لي، وعلي أن أرد عنك الطلب، فدعا له فسلمت فرسه، ولكنه عاد يتبعهم مرة أخرى فدعا عليه ثانية فغاصت قوائم فرسه في الأرض أصعب مما كانت عليه في المرة الأولى، فقال سراقة: يا محمد لقد علمت أن ما أصاب فرسي كان بسبب دعائك، فادع الله أن يخلصني مما أنا فيه، وإني أعاهدك الله أن أرد عنك طلب قريش، فدعا له فانتهى فوفَّى بعهده، ورد كل طلب يأتي عنه حتى وصل المدينة.**

**وعندما بلغ الأنصار خروج رسول الله ﷺ إلى المدينة استعدوا للقائه فكانوا يخرجون إلى الحرة ينتظرونه حتى يشتد حر الظهيرة، فلما أهل يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول خرجوا على عادتهم فلما اشتدت الهاجرة كان أحد اليهود يقف على أطم من آطام المدينة، فرأى رسول الله ﷺ من بعيد فصاح في**

---

([1]) الساحل: الأرض السهلية الجرداء الممتدة من اتصالها بساحل عسير جنوباً عند الليث إلى ميناء العقبة شمالاً ممتدة بين تهامة شرقاً والبحر الأحمر غرباً، معجم معالم الحجاز ج٤ ص١٥٥-١٥٦.

**الأنصار بأعلى صوته، هذا حبيبكم الذي تنتظرونه، فاستعد الأنصار بسلاحهم، وارتفع التكبير في بيوت بني عمرو بن عوف، وكبر الأنصار ورددت صباياهم:**

**طلع البدر علينا من ثنيات الوداع**

**وجب الشكر علينا ما دعا**

**لله داع**

**أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع**

**جئت شرفت المدينة مرحباً يا**

**خير داع**

**نعم:التفَّ الأنصار حول رسول الله ﷺ يحمونه بقلوبهم وسيوفهم ، حتى استقر به المقام في قباء، عند بني عمرو بن عوف أربع عشرة ليلة، وأسس مسجد قباء فلما أهل يوم الجمعة ركب ناقته فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف فصلى بهم، ثم ركب فأخذوا بخطام ناقته وهم يحرسونها بسلاحهم، فقال: (خلوا سبيلها فإنها مأمورة)، فلم تزل تسير به وكل دار من دور الأنصار تتوق إلى وقوف الناقة عندها ورسول اللهﷺ يقول: (دعوها فإنها مأمورة) فلم تزل كذلك حتى وصلت إلى المكان الذي أراد الله أن يكون فيه مسجد نبيه ورسوله فبركت فيه، ولم ينزل عنها حتى**

**قامت وسارت هنيهة ثم رجعت إلى مكانها الأول فبركت فيه فنزل عنها، وكان هذا المكان مربداً[1] لغلامين يتيمين من الأنصار من بني مالك بن النجار، وهما سهل وسهيل ابنا عمرو، كانا في حجر أسعد بن زرارة. وبأمر الله للناقة أن تكون في هذا المكان سام رسول الله المربد من الغلامين ليكون مسجده، فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله. فأبى فاشتراه منهما بعشرة دنانير، وبدأ عليه الصلاة والسلام وأصحابه في بناء المسجد.**

**قلت: لقد حظي الأنصار برسول البشرية فآمنوا به وعزروه ونصروه بمالهم وسلاحهم وأنفسهم، وسيبقى أسعد بن زرارة والبراء بن معرور، وأسيد بن الحضير، وسعد بن معاذ، وبنو عمرو ابن عوف، وستبقى طيبة وكل الأنصار غرة في جبين التاريخ لما عملوا من أجل أشرف رسول وأعظم رسالة بعثها الله لخلقه أجمعين، ولا عجب أن يفخر بذلك أبو قيس صرمة الأنصاري:**

**ثوى [2] في قريش بضع عشرة**

**حجة**

**يذكر لو يلقى حبيباً مواتيا**

---

([1]) قال ابن الأثير: «المربد: الموضع الذي تُحبس فيه الإبل والغنم، وبه سُميّ مربد المدينة والبصرة، وهو بكسر الميم وفتح الباء، من ربد بالمكان إذا أقام فيه، وربده إذا حبسه»، النهاية في غريب الحديث والأثر، ج٢ ص١٨٢ .

([2]) ثوى: أقام.

**ويعرض في أهل المواسم نفسه**

**فلم ير من يؤوي ولم ير داعيا**

**فلما أتانا أظهر الله دينه**

**وأصبح مسروراً بطيبة راضيا**

**فأصبح لا يخشى من الناس**

**قريباً ولا يخشى من الناس نائياً [١]**

**بذلنا له الأموال من جل مالنا**

**وأنفسنا عند الوغى[٢]والتآسيا[٣]**

**نعادي الذي عادى من الناس كلهم**

**جميعاً وإن كان الحبيب المصافيا**

**ونعلم أن الله لا شيء غيره**

**وإن كتاب الله أصبح هاديا [٤]**

**ولم يكن أبو قيس الأنصاري هو الذي مدح الأنصار، بل مدحهم كعب بن زهير بن أبي سلمى، كما ستبقى سيرتهم سجلاً خالداً في غرة التاريخ:**

---

(١) والنوى: البعد، ونائياً أي بعيداً.

(٢) الوغى: الحرب.

(٣) التآسي: التعاون.

(٤) السيرة النبوية، لابن هشام، ج٢ ص١٨٢، البداية والنهاية، ج٣ ص٢٠٢، وهناك اختلاف يسير بينهما في بعض الأبيات.

**من سَرَّ كرم الحياة فلا يزل**

**في مِقْنَب من صالحي الأنصار [1]**

**وَرِثوا المكـارم كابِراً عن كابرٍ**

**إن الخيــار همُ بنُـو الأخيـار**

**المكْرِهين السَّـمهـرِيُّ بـأذرع**

**كسوافل الـهِنْدِي غيـرِ قِصـار[2]**

**والنـاظريــن بأعين محمَـرَّة**

**كالجَمـر غيـرِ كَلِيلة الأبصار**

**والبائـعين نفوسَـهم لنبيّـهم**

**للمـوت يـوم تَعـانُـقٍ وكِرَار**

**يتطهّرون يـرونه نُسكاً لـهم**

**بدمـاءِ من عَـلِقوا من الكفـار**

**دَرِبوا كمـا دَربت ببطنِ خَفِيّةٍ**

**غُلْبُ الرّقابِ من الأسود ضَوَارِ[1]**

---

([1]) المقنب: الجماعة من الفوارس.

([2]) السمهري: الرمح . وسافلة القناة: أعظمها وأقصرها كعوباً. والهندي: الرماح.

**وإذا حَـللت ليمنعـوك إليهـمُ**

**أصبحت عند معاقـل الأغفـار[٢]**

**ضربـوا عليَّاً يوم بدرٍ ضـربةً**

**دانـت لوقعتهـا جميـعُ نِـزار[٣]**

**لو يـعلم الأقوامُ عِلْمِـيَ كلَّـه**

**فيهـم لصَدّقنـي الذين أمارِي**

**قومٌ إذا خَوَت النجوم فإنـهـم**

**للطارقـين النازلـين مَقَــارِي[٤]**

---

(١) دربوا: اعتادوا. وخفية: موضع كثير الأسد. والغلب: الغلاظ الرقاب. والضواري: اللواتي قد ضرين بأكل لحوم الناس؛ الواحد ضار.

(٢) المعاقل: الحصون. والأغفار: أولاد الأروية (الوعل) وأحدها غفر.

(٣) علي: هو علي بن بكر بن وائل. ويقال: هو علي أخو عبد مناة بن خزيمة من أمه. وقالوا: هو علي بن مسعود بن مازن.

(٤) خوت: إذا لم يكن لها مطر. والمقاري: جمع مقري، الذي يقري الضيف.

## تأسيس الدولة الإسلامية

**بعدما استقر رسول الله ﷺ في المدينة بدأ تأسيس الدولة فبنى مسجده، وصارت الكعبة هي القبلة استجابة لأمر الله في قوله -عز وجل-: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُون﴾[البقرة:١٤٤]. ومن الطبيعي أن يبدأ توطيد أسس الدولة ووسائلها، ومن ذلك عقد الألوية واستطلاع خبر الأعداء والحذر منهم، فعقد عليه الصلاة والسلام لواء لحمزة بن عبد المطلب ولواء لسعد بن أبي وقاص.**

**كما عقد لواء لعبدالله بن جحش، وأرسله مع عدد قليل من المهاجرين، وكتب له كتاباً، وأمره ألا يقرأه حتى يسير يومين، ثم يقرأه وينفذ ما أمره فيه. وقد تضمن الكتاب أن ينزل هو ومن معه في »نخلة«[1]بين مكة والطائف ليتعرف أخبار قريش. ولما نزل في المكان المشار إليه مرت في أول شهر رجب عير تحمل مؤناً لقريش، وعلى رأسها عمرو بن الحضرمي، فرمى أصحاب عبدالله**

---

([1]) واد من أودية الحجاز على مسافة ٤٣ كيلاً من مكة، على طريق الطائف القديم، وهو طريق اليمن مكة، حفرت فيها آبار حديثة، وتسمى نخلة اليمانية، معجم معالم الحجاز ج٩ ص٤٤-٤٥ .

**بن جحش عمراً فقتلوه، وأسروا بعض من معه، وذهب عبدالله بالعير والأسرى إلى المدينة، فلما رآهم رسول الله ﷺ تغير وجهه، وقال: (ما كنت قد أمرتكم بالقتال في الشهر الحرام)[1]. أي شهر رجب، ومع عتاب رسول الله لهم عاتبهم أيضاً المسلمون وعنفوهم، ووجدت قريش في ذلك ذريعة لسب رسول الله ﷺ بأنه وأصحابه يقاتلون في الشهر الحرام، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ﴾[البقرة:٢١٧] ، وبهذا حكم الله بأنه، وإن كان القتال في الشهر الحرام إثمًا إلا أن الصد عن سبيل الله والكفر به وكذلك الصد عن المسجد الحرام وإخراج أهله منه ظلماً وعدواناً يعد أعظم إثماً من القتال في الشهر الحرام[2]. وبهذا زال الحرج عن رسول الله ﷺ وعن عبد الله بن جحش ورفاقه وعن المسلمين[3].**

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ج٩ ص١٢، ٥٨، ٥٩، بسند صحيح إلى عروة، وله شواهد مسنده عند الطبراني بإسناد حسن، انظر: الإصابة ج٢ ص٢٧٨ ، ومجمع الزوائد، للهيثمي ج٦ ص٦٦-٦٧، والحديث يرقى بمجموع طرقه إلى الصحيح لغيره.

(٢) هذه قبل نسخ القتال في الأشهر الحرم. انظر التفاصيل في تفسير ابن كثير ج١ ص٢٣٩-٢٤٢.

(٣) وقد قال عبدالله بن جحش في ذلك كما نقله ابن كثير في تفسيره ج١ ص٢٤٢:

تعدون قتلاً في الحرام عظيمة ... وأعظم منه لو يرى الرشد راشد
صدودكم عما يقول محمد ... وكفر به والله راء وشاهد
وإخراجكم من مسجد الله أهله ... لئلا يرى لله في البيت ساجد
فإنا وإن عيرتمونا بقتله ... وأرجف بالإسلام باغ وحاسد
سقينا من ابن الحضرمي رماحنا ... بنخلة لما أوقد الحرب واقد
دما وابن عبدالله عثمان بيننا ... ينازعه غل من القيد عائد

**معركة بدر الكبرى**

**كانت حادثة نخلة وقتل ابن الحضرمي صعبة على قريش، فكانت بداية لحادثة أكبر هي غزوة بدر. وكان رسول الله ﷺ يعلم ما سيكون عليه رد الفعل عند قريش، ففي السنة الثانية من الهجرة أقبل أبو سفيان بن حرب في عير من الشام تحمل أموالاً ومؤناً عظيمة، فحث رسول الله المسلمين على اعتراضها، ولما كان أبو سفيان يعلم ما سوف يسببه ذلك استأجر شخصاً[1] وأرسله إلى مكة يستحث قريشاً على حماية أموالهم. ولما وصل مكة وقف على بعيره في بطن الوادي وشق جيبه، وأخذ يصرخ قائلاً: اللطيمة .. اللطيمة .. أموالكم مع أبي سفيان، قد عرض لها محمد وأصحابه .. الغوث .. الغوث.**

**وبعد هذه الصيحات أخذت قريش تتجهز للقتال، فخرج ألف رجل مع مائة فرس، كان منهم أبو جهل وأمية بن خلف وشيبة وعتبة ابنا ربيعة، وكان مسير رسول الله ﷺ في ثلاث مئة وتسعة عشر من المهاجرين والأنصار[2]، فعقد اللواء لمصعب بن عمير، وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب، فأقبل رسول الله على أصحابه**

---

(1) اسمه: ضمضم بن عمرو الغفاري. انظر: البداية والنهاية ج٣ ص٢٥٦ .

(2) شرح النووي على صحيح مسلم ج١٢ ص٨٤ ، وقال البخاري في روايته: «بضعة عشر وثلاث مئة» فتح الباري ج٧ ص٢٩٠-٢٩٢ .

**وقال: (هذه مكة ألقت إليكم أفلاذ كبدها). ثم استشارهم، فقال أبو بكر وعمر ما قالا من التأييد، ثم قال المقداد بن عمرو الكندي: امض يا رسول الله لما أمرك الله فنحن معك، ولن نقول كما قالت بنو إسرائيل لنبيهم موسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا فإنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. فاغتبط رسول الله ﷺ لمقولته ودعا له بخير[1].**

**ولأن رسول الله لم يسمع مقالة الأنصار، فقد كرر استشارة أصحابه فيما يفعل، ففهمها سعد بن معاذ، وقال: لكأنك يا رسول الله تريدنا. فقال عليه الصلاة والسلام: (أجل). فقال سعد: لقد آمنا بك وصدقناك، وأعطيناك عهودنا فامض يا رسول الله لما أمرت، فوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لنخوضنه معك، وما نكره أن تلقى بنا العدو غداً. إنا لصبَّرٌ عند الحرب، صُدَقٌ عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله. فسرّ رسول الله لما سمع، وقال: (سيروا وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع**

---

([1]) البداية والنهاية ج٣ ص٢٦١ .

**القوم)[1]. وبعد أن انتهى مسير رسول الله وأصحابه نزل قريباً من بدر[2]، وكان أبو سفيان قد علم بخروجهم، فجعل مسيره جهة البحر، وترك بدراً عن يساره، فلما رأى أنه نجا من قبضة الرسول وأصحابه أرسل إلى قريش في الجحفة[3]، يخبرهم أن أموالهم قد نجت، وأن عليهم أن يرجعوا إلى مكة، وقد استحسن بعضهم هذا الرأي إلا أن أبا جهل عارض ذلك، وقال: لن نرجع حتى نرد إلى بدر، فنقيم بها ثلاثاً فننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا. فاستجابت قريش لمقولة أبي جهل فنزلت قريباً من بدر، فخرج رسول الله ﷺ يبادرهم إلى الماء، حتى إذا جاء أقرب ماء من بدر نزله، فقال له الحباب ابن**

---

(1) قال ابن كثير: «رواه ابن إسحاق رحمه الله. وله شواهد كثيرة». البداية والنهاية ج٣ ص٢٦١.

(2) «بدر» وتسمى كذلك بدر حنين: قرية إلى الجنوب الغربي من المدينة المنورة، وهي عند ملتقى طريق المدينة بطريق القوافل الذاهبة من الشام إلى مكة، وكانت بدر في عهد النبي ﷺ محطة يقف عليها المسافر ليسقي إبله، كما كان يقام بها سوق كل عام، وكان يمر بها الطريق من مكة إلى المدينة قبل إنشاء طريق الهجرة من مكة إلى المدينة، وتبعد بدر حالياً عن المدينة المنورة حوالي مئة وخمسين كيلاً، ولهذه القرية أهمية تاريخية كبيرة بسبب انتصار المسلمين على أعدائهم الذين كانوا أكثر منهم عدداً. انظر: معجم البلدان ج١ ص٤٢٧ وما بعدها، وانظر معجم معالم الحجاز ج١ ص١٩٠-١٩٣.

(3) الجحفة موقع على الطريق بين المدينة ومكة، وكان اسمها مَهَيْعة، أو مهيعة، فأجحف السيل بأهلها فسميت جحفة، وهي ميقات أهل الشام ومصر والمغرب، وهي أحد المواقيت الخمسة التي لا يجوز تجاوزها لقاصد الحج والعمرة إلا محرماً، انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري ج٤ ص٤٩٤، وج٥ ص١٥٧-١٥٨. وفي معجم معالم الحجاز هي آثار باقية بني عليها مؤخراً مسجد مسلح يزوره السياح، شرق رابغ مع ميل إلى الجنوب على اثنين وعشرين كيلاً، وتتبع الجحفة محافظة رابغ، وهي ميقات أهل مصر والشام إن لم يمروا على المدينة، ج٣ ص٦٧-٦٩ .

**المنذر: يا رسول الله هل الله أنزلك هذا المنزل، ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخره، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال رسول اللهﷺ : (بل هو الرأي والحرب والمكيدة)، فقال الحباب: فإن هذا ليس بمنزل، فامض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضاً نملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فوافق على ذلك رسول الله، وفي تلك الأثناء أرسل الله المطر، فلبد الأرض فسقوا وشربوا[1].**

**ولما أقبلت قريش بقوتها قال رسول الله: (اللهم هذه قريش أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك[2]وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحنهم[3] الغداة)، وقد بعثت قريش عمرو الجمحي ليعرف عدد المسلمين وقوتهم، فعاد يؤكد قوة المسلمين، فلما سمع ذلك منه حكيم بن حزام اتصل بكبار قريش يحثهم على الرجوع، فوافق على ذلك عتبة بن ربيعة، إلا أن أبا جهل عيّر عتبة وعرّض به، وأصرّ على القتال، وقال: لن نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، ثم نادى عامر بن الحضرمي، فقال له: إن حليفك عتبة يريد أن يرجع بقريش إلى مكة فانشد خفرتك ومقتل**

---

(1) البداية والنهاية ج٣ ص٢٦٦-٢٦٧ .

(2) تحادك: أي تعاديك.

(3) أحنهم: أي أهلكهم من الحين، وهو الهلاك.

**أخيك[1]، فقام عامر وصرخ في الناس: واعمراه واعمراه. ثم اشتدت الحرب وتبارز عدد من الفريقين، وكان رسول الله ﷺ يحرض على القتال، وهو يدعو، ويقول: (اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلن تعبد في الأرض، اللهم أنجز لي ما وعدتني)، ولم يزل يدعو، فقال له أبو بكر وهو بجانبه: كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك. ثم أغفى إغفاءة قليلة، وهو في العريش الذي نصب له، ثم قال: (يا أبا بكر: أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه، يقوده على ثناياه النقع). وأنزل الله عز وجل قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِين *وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيم *إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَام * إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَان *ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَاب* ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّار﴾ [الأنفال: ٩-١٤].**

---

([1]) يقصد أخاه عمرو بن الحضرمي الذي قتل في بطن نخلة.

**وخرج رسول اللهﷺ وهو يقول: (سيهزم الجمع ويولون الدبر)[1]، ثم قال: (والذي نفس محمد بيده لا يقاتل المشركين رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة)، فقام عمير بن حمام الأنصاري وفي يده تمرات يأكل منها، وقال: بخ بخ ما بيني وبين الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ثم طرح التمرات وقاتل حتى قتل[2].**

**لقد أكرم الله رسوله حين استجاب له، وحقق له ما وعده من النصر على أعدائه، وقد امتنّ عليه بما ورد في هذه الآيات المحكمات من إجابة دعائه، وإمداده بعدد من الملائكة، وإنزال المطر على جيشه، وإلقاء الرعب في قلوب أعدائه، وإزالة وساوس الشيطان عنهم، وتثبيت أقدامهم في المعركة.**

**وفي هذه الغزوة من تثبيت دعائم الدولة الإسلامية انهزم المشركون شر هزيمة، فقتل أبو جهل حين أصابه الغلامان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء، لا يعرفانه حتى دلهما**

---

(1) من رواية البخاري، فتح الباري ج٧ ص٢٨٧.

(2) قال ابن كثير في البداية والنهاية ج٣ ص٢٧٧: »وقد ذكر ابن جرير أن عميراً قاتل، وهو يقول رضي الله عنه:

ركضاً إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد وكل زاد عرضة النفاد
غير التقى والبر والرشاد

**عليه عبدالرحمن بن عوف، وقد أخبراه بأنهما يريدان قتل أبي جهل لما كان من سبه للرسولﷺ ، وقد أجهز عليه عبدالله بن مسعود[1] وقُتِلَ أمية بن خلف[2] وعدد من صناديد قريش، وأسر عدد كبير منهم، وفر منهم من فر إلى مكة مكسوراً مهزوماً. وأمر رسول اللهﷺ أن يطرح القتلى في القليب، فطرحوا إلا أمية بن خلف فقد تقطع جسمه، ووقف رسول اللهﷺ على القليب، وقال: (يا أهل القليب بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم، كذبتموني وصدقني الناس، ثم قال: يا عتبة يا شيبة يا أمية بن خلف يا أبا جهل بن هشام ومن كان معكم في القليب: هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا، فإني وجدت ما وعدني ربي حقًّا)، فقال أصحاب رسول الله: أتكلم قوماً موتى يا رسول الله؟ فقال: (ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني)[3].**

---

(1) قال ابن مسعود رضي الله عنه لأبي جهل وهو يحتضر: هل أخزاك الله؟ فقال: وبما أخزاني أأعزُّ من رجل قتلتموه؟ أخبرني لمن الدائرة؟ قلت: لله ولرسوله. فقال أبو جهل: لقد ارتقيت يا رويعي الغنم مرتقى صعباً. فقال عبدالله بن مسعود: إني قاتلك. قال: ما أنت بأول عبد قتل سيده، إن أشد شيء لقيته اليوم قتلك إياي .. هكذا كانت خاتمة أبي جهل وهو ينازع الموت والعياذ بالله. انظر: فتح الباري ج٧ ص٢٩٣-٢٩٦، وشرح النووي على مسلم ج١٢ ص١٥٩-١٦٠.

(2) لما رأى بلال أمية بن خلف استذكر ما كان يفعله به من العذاب، حين كان يضع الحجر العظيم على صدره في الرمضاء، حتى يترك دين محمد، فصاح بلال: هذا أمية بن خلف رأس الكفر، والله لا نجوت إن نجا. وقال: يا أنصار الله رأس الكفر أمامكم، فأحاط به الأنصار فقتلوه وقتلوا ابنه علياً معه. انظر: فتح الباري ج٤ ص٤٨٠ .

(3) قال ابن كثير في البداية والنهاية ج٣ ص٢٩٣: «قد رواه الإمام أحمد عن ابن أبي عدي عن حميد عن أنس .. وهذا على شرط الشيخين».

## معركة أحد

**تتابع تأسيس الدولة فمن دخل في الإسلام دخله آمناً مطمئناً، ومن تربص به وعاداه وجب دفعه بالحسنى، فإن لم يقبل كان لابد من دفعه بالقوة، فلم تكن معارك رسول اللهﷺ انتقاماً من أحد أو ثأراً منه أو قصداً لمال، بل هي تبليغ أمانة وأداء رسالة، أرادها الله في قوله عز وجل:** ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ **[المائدة:٦٧].**

**وبعد معركة بدر لم يهدأ للمشركين بال، ولم يقر لهم قرار، فقد هيجت الهزيمة نفوسهم، وعظمت المصيبة أحزانهم، فمن قُتِلَ أبوه أو أخوه كان يريد الثأر له، ومن خسر سمعته وشرفه كان يريد أن يسترد ما كان له، لهذا ذهب عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وعبد الله بن أبي ربيعة إلى أبي سفيان فكلموه وسألوه ومن معه من أهل التجارة والمال أن يثأروا لما أصابهم، فاستجاب لذلك أبو سفيان ومن معه من المشركين، فتجهزوا وأرسلوا أربعة نفر منهم عمرو بن العاص إلى قبائل العرب يحثونهم على الحرب ومنازلة الرسول، فانضم إليهم جمع من ثقيف وكنانة وتهامة ومن معهم من أهل مكة، وخرج أبو سفيان في زعامتهم، ومعهم عدد من النسوة منهن زوجته هند بنت عتبة، فأقبلوا بجمعهم، ونزلوا**

قريباً من المدينة، وكانوا ثلاثة آلاف رجل وخمس عشرة امرأة.

فلما سمع بخبرهم رسول الله ﷺ قال: (إني رأيت بقرًا فأولتها خيرًا، ورأيت في ذباب سيفي ثلمًا، ورأيت إني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة، فإن رأيتم أن تقيموا فيها وتدعوهم، فإن أقاموا أقاموا بشرَ مقام، وإن دخلوا علينا قاتلناهم فيها). وكان عبدالله بن أبي ابن سلول المنافق مع هذا الرأي، إلا أن جماعة من أصحاب رسول الله ﷺأشاروا عليه بالخروج، فخرج عليه الصلاة والسلام لابساً سلاحه، وندم الذين أشاروا عليه بالخروج، وقالوا: لقد استكرهناه بمشورتنا، واعتذروا إليه، وقالوا: افعل ما شئت، يقصدون رجوعه إلى المدينة. فقال عليه الصلاة والسلام: (لا ينبغي لنبي أن يلبس لامته -أي سلاحه- فيضعها حتى يقاتل)[1]. وكان خروجه في ألف رجل بعد أن جعل على المدينة عبدالله ابن أم مكتوم، فلما كان بين المدينة وأحد عاد عبدالله بن أبي ابن سلول بثلث من خرج وهم المنافقون، فقال: أطاع من استشارهم وعصاني. وبقي مع الرسول سبع مئة رجل فنزل بعدوة الوادي، وجعل الظهر والعسكر إلى أحد ووجهه وأصحابه إلى المدينة، وجعل وراءه الرماة وعددهم خمسون فوق جبل عينين المقابل

(1) تفسير الطبري ج٧ ص٣٧٢ .

**لأحد، وأمَّر عليهم عبدالله بن جبير وقال: (إذا وقعت المعركة فانضح عنا الخيل بالنبل، لا يأتوننا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا، واثبت مكانك، لا نؤتين من قُبَلِك). وقال أيضاً: (إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم، فلا تبرحوا مكانكم)[1]. فجعل اللواء لمصعب بن عمير، وجعل الزبير على الخيل وخرج حمزة بالجيش، وقبل أن تبدأ المعركة أرسل أبو سفيان إلى الأنصار، وقال لهم: خلوا بيننا وبين ابن عمنا فنذهب عنكم، فإنه لا حاجة بنا إلى قتالكم. فأجمعوا على رفض ما قال، واستعدوا لمنازلته وجيشه، فحمل الزبير والمقداد على خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل فانهزما، وحمل النبي ﷺ وأصحابه على أبي سفيان فانهزم، وأخذ أبو دجانة سيف رسول الله، فأخذ يضرب كل من لقيه من المشركين، وقاتل حمزة وعلي قتالاً شديداً فانهزم المشركون، رغم كثرة عددهم، وهربت النساء إلى رؤوس الجبال، ودخل المسلمون معسكرهم لأخذ الغنائم، فلما نظر الرماة إليهم ترك بعضهم مكانه للحصول على الغنيمة، وبقي بعضهم طاعة لرسول الله ﷺ . ولما رأى خالد بن الوليد[2] بعض الرماة قد فارقوا أماكنهم، ورأى أن من بقي منهم**

---

([1]) أخرجه البخاري، فتح الباري ج٦ ص١٦٢ .

([2]) ولم يكن قد أسلم في ذلك الوقت.

قلة حمل عليهم فقتلهم، وحمل على أصحاب النبي من خلفهم. ولما رأى المشركون أن خيلهم بدأت تقاتل نشطوا وشدوا على المسلمين فهزموهم. وفي تلك المعركة كسرت رباعية رسول اللهﷺ السفلى، وشقت شفته، وجرحت وجنته، وقال: (كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم، وهو يدعوهم إلى الإسلام). فأنزل الله عز وجل في ذلك: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُون﴾[آل عمران:١٢٨][1]. وقاتل دونه سبعة من الأنصار حتى قتلوا، وفداه أبو دجانة بنفسه، فكان النبل يقع على ظهره وهو منحن عليه، وكان سعد بن أبي وقاص يدافع عنه والرسول ﷺ يناوله السهم، ويقول: (ارم فداك أبي وأمي)[2]. وكان حامل اللواء مصعب بن عمير يقاتل بشجاعة واستبسال، حتى قتله عبدالله بن قمئة الليثي، فأعطى رسول الله اللواء لعلي بن أبي طالب.

لقد ظن ابن قمئة أنه قتل رسول الله، فأخذ يصيح في الناس مدعياً أنه قتل محمداً، ولما سمع ذلك بعض المهاجرين توقفوا فصاح أنس بن مالك ﷺ فيهم قائلاً: يا قوم إن كان محمد قد قتل

---

(1) انظر: سيرة ابن هشام ج٣ ص٢٩.

(2) من رواية البخاري، فتح الباري ج٧ ص٣٥٨ .

**فإن رب محمد لم يقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه، اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ثم قاتل حتى قُتِلَ. وكان أول من عرف رسول الله كعب بن مالك، فقال بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله حي، فلما عرفه المسلمون نهضوا نحو الشعب، ومعه جمع من الصحابة منهم أبو بكر وعمر وعلي، فلما أسند إلى الشعب أدركه أبي بن خلف وهو يصيح لا نجوت إن نجا محمد، فرجع إليه رسول الله فطعنه بالحربة. وانتهت هذه المعركة بهزيمة المسلمين وقتل فيها حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وحنظلة بن أبي عامر[1] ومخيريق اليهودي [2]، كما قتل عدد من أجلاء المهاجرين والأنصار، ولما علم المشركون بنصرهم تشفوا بالقتلى، فمثلت هند وصويحباتها بهم، فقطعن الأذان والأنوف، وبقرت هند كبد حمزة بن عبد المطلب، ثم أشرف أبو سفيان على الناس فقال**

---

(1) وقد غسلته الملائكة، لأنه كان جنباً، وكان عريساً ليلة أحد، فسمع النداء بالخروج، فعجّل بالخروج ولم يغتسل، فقال الرسولﷺ : (إنّ صاحبكم لتغسله الملائكة). رواه الحاكم في المستدرك ج٣ ص٢٠٤، وقال: «صحيح على شرط مسلم» وحسّنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ج٤ ص٣٦ برقم (٣٢٦).

(2) قال لليهود: يا معشر اليهود لقد علمتم أن نصر محمد عليكم حق. فقالوا: إن اليوم يوم السبت. فقال: لا سبت اليوم وأخذ سلاحه، وقال: إن قتلت فإن مالي لمحمد يصنع به كيف شاء. فقاتل حتى قتل، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: (هو خير يهود) . انظر: سيرة ابن هشام ج٢ ص١٥٢، ولم يصح في إسلامه حديث، ولكن نص على ذلك ابن إسحاق والواقدي دون إسناد، ويؤيده أن ابن حجر ترجم له في الصحابة، في كتابه الإصابة ج٦ ص٥٧ .

**ثلاثاً: أفي القوم محمد؟ فقال رسول اللهﷺ: (لا تجيبوه)، ثم قال ثلاثاً: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ أفي القوم عمر بن الخطاب؟ ثم التفت إلى قومه، وهو يقول: إن هؤلاء قد قتلوا. فقال عمر: كذبت يا عدو الله قد أبقى الله لك ما يخزيك. فقال أبو سفيان: أعل هبل أعل هبل. فقال رسول اللهﷺ : (قولوا: الله أعلى وأجل). فقال أبو سفيان: إن لنا العزى ولا عزى لكم. فقال رسول اللهﷺ : (قولوا الله مولانا، ولا مولى لكم). فقال أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمداً؟ فقال عمر: اللهم لا وإنه يسمع كلامك. فقال: أنت أصدق من ابن قمئة. ثم قال: هذا بيوم بدر والحرب سجال. أما إنكم ستجدون في قتلاكم مثلة، والله ما رضيت ولا سخطت، ولا نهيت ولا أمرت[1]، ورآه الحليس بن زيان زعيم الأحابيش يضرب بالرمح في حمزة ويتشفى منه، فقال الحليس: يا بني كنانة هذا سيد قريش يصنع بابن عمه كما ترون. فقال أبو سفيان: اكتمها عني فإنها زلة.**

**وبعد انتهاء المعركة ذهب أبو سفيان وقومه فبعث رسول الله علي ابن أبي طالب في أثرهم، وقال: (انظر فإن جنبوا الخيل وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل، فهم يريدون**

---

([1]) البداية والنهاية ج٤ ص٣٩ .

**المدينة، فوالذي نفسي بيده لئن أرادوها لأناجزنهم). قال علي: فامتطوا الإبل يريدون مكة، فأخبر بذلك رسول الله [1].ﷺ**

**وقبل رجوع رسول الله إلى المدينة أمر رجلاً أن ينظر في القتلى للتعرف عليهم، فرأى سعد بن الربيع الأنصاري وبه بقية من حياة، فقال للرجل: أبلغ رسول الله عني السلام، وقل له: جزاك الله عنا خير ما جزى نبيًّا عن أمته، وأبلغ قومي السلام، وقل لهم: لا عذر لكم عندالله إن خلص إلى رسول الله أذى وفيكم عين تطرف، ثم فاضت روحه رحمه الله، وجزع المسلمون جزعاً شديداً على ما تعرض له حمزة بن عبدالمطلب من تمثيل وتشفٍ، وقال رسول اللهﷺ: (لولا حزن صفية بنت عبدالمطلب أو تكون سنة بعدي لتركته حتى يكون في جوف السباع وحواصل الطير)، وتوعد المسلمون قريشاً بأن يمثلوا بقتلاهم مثلة لم يفعلها أحد من العرب، فأنزل الله على رسوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِين﴾[النحل:١٢٦]. فنهى رسول الله عن المثلة، ودفن المسلمون شهداءهم في المدينة[2]، ولما مر رسول الله ﷺ بدور الأنصار وسمع البكاء ذرفت عيناه بالبكاء،**

---

(1) البداية والنهاية ج٤ ص٤٠ .

(2) البداية والنهاية ج٤ ص٤١ .

**وأمر سعد بن معاذ نساء الأنصار أن يبكين حمزة، كما يبكين رجال الأنصار، وفي أثناء مروره عليه الصلاة والسلام بالمدينة رأى امرأة من الأنصار، وقد أصيب أبوها وزوجها، فلما أخبرت بذلك، قالت: ما فعل رسول الله؟ فقيل لها: هو بحمد الله كما تحبين، فقالت: أرونيه، فلما نظرت إليه قالت: يا رسول الله كل مصيبة بعدك جلل[1].**

**وهكذا كانت محبة المسلمين لنبيهم أكثر من حبهم لأنفسهم وأهلهم، وهكذا دافع الأنصار والمهاجرون عن نبيهم، وفدوه بأنفسهم، فقاتلوا معه ودافعوا عنه، ورغم ما أصابهم من هزيمة، فقد كانوا أصلب عوداً، وأشد بأساً، وأعظم حماسة، لنصرة نبيهم ودينهم؛ لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى. فارضَ اللهم عنهم، وأجزهم خير ما تجزي به عبادك الصالحين.**

**العبر المستفادة من معركة أحد:**

**لم تكن هزيمة المسلمين في معركة أحد هزيمة بالمعنى الحربي، بقدر ما هي امتحان لهم، وتمحيص لمدى إيمانهم بعقيدتهم وطاعتهم لرسولهم، ولا ريب في أن الله عز وجل وعد أولياءه**

---

([1]) تعني صغيرة، السيرة النبوية، لابن هشام ج٣ ص٥٧ .

وجنده بالنصر، فرغم قلة عدد المسلمين وعددهم انهزم المشركون في بداية المعركة بعد أن قُتِلَ عدد منهم. ولم تكن الهزيمة -كما مر ذكره- إلا بعد أن ترك الرماة أماكنهم، وعصوا بذلك رسولهم، وطمعوا في الكسب والغنيمة، فكانوا ممن يريدون ثواب الدنيا، وقد بيّن الله ذلك في قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِين * إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غُمَّاً بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُون﴾[آل عمران:١٥٢-١٥٣].

وقد أمَّن الله المؤمنين بعد الغم الذي أصابهم من الهزيمة، فأنزل عليهم النعاس تطميناً لهم وتسرية عنهم، وفي ذلك روى أنس بن مالكرضي الله عنهأن أبا طلحة قال: غشينا النعاس ونحن في مصافنا، فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه، ويسقط وآخذه. أما المنافقون فكان الشيطان يوسوس لهم، فيخفون في أنفسهم ما لا يبدونه لرسول الله ﷺ، وكانوا يتساءلون بينهم بأنه ليس لهم من الأمر شيء، وأن الأمر لو كان لهم ما قتل أحد في تلك المعركة،

وما كان هذا منهم إلا ظناً بالله غير الحق، كما كان أهل الجاهلية يظنون، وقد بيّن الله ما كان في تلك المعركة في قوله -عز وجل-: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور * إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيم﴾[آل عمران:١٥٤-١٥٥][1].

وقد ذكر الإمام ابن القيم بعض الحكم والغايات المحمودة التي كانت في معركة أحد، فقال: «أشار الله سبحانه وتعالى إلى أمهاتها وأصولها في سورة آل عمران، حيث افتتح القصة بقوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّىءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾[آل عمران:١٢١] ، إلى تمام ستين آية. فمنها تعريفهم بسوء عاقبة المعصية والفشل والتنازع، وأن الذي أصابهم إنما هو بشؤم ذلك،

(1) راجع تفسير الآيات في تفسير ابن كثير ج١ ص٣٩٥-٣٩٦ .

**كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾[آل عمران:١٥٢]، فلما ذاقوا عاقبة معصيتهم للرسول وتنازعهم وفشلهم كانوا بعد ذلك أشد حذراً ويقظة وتحرزاً من أسباب الخذلان. ومنها أن حكمة الله وسنته في رسله وأتباعهم جرت بأن يدالوا مرة ويدال عليهم أخرى، لكن يكون لهم العاقبة، فإنَّهم لو انتصروا دائماً دخل معهم المسلمون وغيرهم، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انتصر عليهم دائماً لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة، فاقتضت حكمة الله أن جمع لهم بين الأمرين، ليتميز من يتبعهم ويطيعهم للحق وما جاؤوا به، ممن يتبعهم على الظهور والغلبة خاصة. ومنها أن هذا من أعلام الرسل، كما قال هرقل لأبي سفيان: هل قاتلتموه؟ قال: نعم. قال: كيف الحرب بينكم وبينه؟ قال: سجال، ندال عليه ويدال علينا الأخرى. قال: كذلك الرسل تبتلى، ثم تكون لهم العاقبة.**

**ومنها: أن يتميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب، فإن المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر، وطار لهم الصيت دخل معهم في الإسلام ظاهراً من ليس معهم فيه باطناً، فاقتضت**

حكمة الله عز وجل أن سبَّب لعباده محنة ميزت بين المؤمن والمنافق، فأطلع المنافقون رؤوسهم في هذه الغزوة، وتكلموا بما كانوا يكتمونه وظهر مخبآتهم، وعاد تلويحهم صريحاً، وانقسم الناس إلى كافر ومؤمن ومنافق انقساماً ظاهراً، وعرف المؤمنون أن لهم عدواً في نفس دورهم، وهم معهم لا يفارقونهم، فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم. قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاء﴾[آل عمران:١٧٩]. أي ما كان الله ليذركم على ما أنتم عليه من التباس المؤمنين بالمنافقين، حتى يميز أهل الإيمان من أهل النفاق، كما ميزهم بالمحنة يوم أحد، وما كان الله ليطلعكم على الغيب، الذي يميز به بين هؤلاء وهؤلاء؛ فإنهم متميزون في علمه وغيبه وهو سبحانه يريد أن يميزهم تمييزاً مشهوداً، فيقع معلومه الذي هو غيب شهادة، وقوله: (وَلَكِنَّ اللَّه يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ) استدراك لما نفاه من اطلاع خلقه على الغيب، كما قال: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾[الجن:٢٦-٢٧]، فحظكم أنتم وسعادتكم في الإيمان بالغيب الذي يطلع عليه رسله، فإن آمنتم به واتقيتم كان لكم أعظم الأجر

**والكرامة.**

**ومنها: استخراج عبودية أوليائه وحزبه في السراء والضراء، وفيما يحبون وما يكرهون، وفي حال ظفرهم وظفر أعدائهم بهم، فإذا ثبتوا على الطاعة والعبودية فيما يحبون وما يكرهون، فهم عبيده حقًّا، وليسوا كمن يعبد الله على حرف واحد من السراء والنعمة والعافية، ومنها: أنه سبحانه لو نصرهم دائماً وأظفرهم بعدوهم في كل موطن، وجعل لهم التمكن والقهر لأعدائهم أبداً لطغت نفوسهم وشمخت وارتفعت، فلو بسط لهم النصر والظفر لكانوا في الحال التي يكونون فيها لو بسط لهم الرزق، فلا يصلح عباده إلا السراء والضراء، والشدة والرخاء، والقبض والبسط، فهو المدبر لأمر عباده، كما يليق بحكمته أنه بهم خبير بصير.ومنها أنه إذا امتحنهم بالغلبة، والكسرة والهزيمة؛ ذلوا وانكسروا وخضعوا، فاستوجبوا منه العز والنصر، فإن خلعة النصر إنما تكون مع ولاية الذل والانكسار، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[آل عمران:١٢٣]، وقال: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة:٢٥]**

**، فهو سبحانه إذا أراد أن يعز عبده ويجبره وينصره كسره أولاً،**

**ويكون جبره له ونصره على مقدار ذله وانكساره»[1]. انتهى.**

**الفتح المبين**

**لم يكن فتح مكة مجرد معركة استعاد فيها المسلمون بيت الله من رموز الوثنية فحسب، بل كانت إحدى الدعائم الأساسية في تأسيس الدولة الإسلامية، وانتشار رسالة الإسلام في الأرض. وهذا أمر طبيعي لأن مكة تضم قبلة المسلمين ومشاعر حجهم، فلابد إذاً أن يكون لفتحها أهمية كبرى للدولة الإسلامية التي تكونت في المدينة.**

**ولم يكن فتح مكة بالأمر اليسير، فهي مركز النشاط التاريخي والقبلي والتجاري، ناهيك عن تغلغل الإيمان بالوثنية في نفوس سكانها، وما كانوا يشعرون به من صعوبة في تحولهم إلى دين يخالف طقوساً عاشوها ومارسوها جيلاً بعد جيل، وظنوا أنها الدين الحقيقي، وناهيك أيضاً عن خوف المتنفذين والزعماء القبليين فيها من انتهاء زعاماتهم وانحسار سلطانهم وزوال مكاسبهم؛ وذلك حين ينصهرون في مجتمع جديد لا يتميز فيه أحد على أحد إلا بالتقوى، من هنا لا بد أن تكون المعركة فاصلة بنفس الأهمية التي يتميز بها المكان.**

---

([1]) زاد المعاد في هدي خير العباد، للإمام الحافظ أبي عبدالله ابن قيم الجوزية، ج٢ ص٩٩-١٠٠.

## صلح الحديبية[1]

**لقد كان لفتح مكة مقدمة وتوطئة. وذلك لحكمة أرادها الله عز وجل؛ ففي يوم الإثنين مستهل شهر ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة خرج رسول الله ﷺ معتمراً لا يريد حرباً، ومعه ألف وخمس مئة أو ألف وأربع مئة من المهاجرين والأنصار والأعراب، وساق معه سبعين من الهدي، ليدرك الناس أنه جاء زائراً للبيت معظماً له لا محارباً ولا فاتحاً ؛ فأحرم عليه الصلاة والسلام ومن معه من ذي الحليفة[2] فلما وصل إلى «عسفان»[3] لقيه بشر بن سفيان الكعبي، فقال: يا رسول الله هذه قريش قد علمت بمسيرك، فنزلوا «بذي طوى»[4]، وقد حلفوا**

---

(1) الحديبية اسم بئر تقع على بعد اثنين وعشرين كيلاً إلى الشمال الغربي من مكة، وتعرف الآن بالشميسي، وفي معجم معالم الحجاز: أن الحديبية تعرف اليوم باسم «الشميسي»، وهي غرب مكة خارجة عن حدود الحرم، بينها وبين المسجد قرابة اثنين وعشرين كيلاً ج٢ ص١٢٢-١٢٣.

(2) ذو الحليفة: قرية بظاهر المدينة على طريق مكة بينها وبين المدينة ٩ أكيال، تقع بوادي العقيق عند سطح جبل عير الغربي ومنها تخرج في البيداء تجاه مكة «تعرف اليوم بأبيار علي، وهي ميقات أهل المدينة ومن مربها ومسجد الشجرة فيها معروف إلى الآن وبها مدارس ومساجد ومعاهد كثيرة معجم معالم الحجاز لعاتق البلادي ج٣ ص٤٠-٥٠.

(3) عسفان: قرية جامعة فيها نخيل ومزارع، وتبعد ستة وثلاثين كيلاً من مكة، معجم معالم الحجاز ج٦ ص١٠٠-١٠١ .

(4) ذو طوى: بئر بضم الطاء وفتح الواو المخففة، وهي موضع عند باب مكة في أقصى الحديبية، يُستحبّ لمن دخل مكة أن يغتسل منها، انظر: النهاية في غريب الحديث ج٣ ص١٤٦-١٤٧. والبداية والنهاية ج٤ ص١٦٦ ، وفي معجم معالم الحجاز (ذو طوى) هو الطريق الذي بين ثنية

**وتعاهدوا ألا تدخلنها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد قد قدم إلى «كراع الغميم»[1] فلما سمع مقالته قال عليه الصلاة والسلام: (يا ويح قريش، لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، والله لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله به، حتى يظهره الله، أو تنفرد هذه السالفة)[2]،[3].**

**ثم خرج عليه الصلاة والسلام على غير الطريق الذي كان مخططاً له، وسلك ذات اليمين حتى ثنية المرار[4] على مهبط الحديبية، فبركت ناقته فقال الناس: لقد خلأت[5]، فقال عليه الصلاة والسلام: (لا، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا**

---

كداء (الحجون) اليوم وبين ثنية الخضراء (ربع الكحل) اليوم، وهو وسط عمران مكة، ومن أحيائه العتيبية وجرول، ويعد أحد أودية مكة الثلاثة المعمورة، وبئر ذي طوى لا تزال معروفة ص٢٣٦-٢٣٨ .

(١) كراع الغميم: هو اسم موضع بين مكة والمدينة على بعد ٦٤ كيلاً عن مكة، والكراع جانب مستطيل من الحرة تشبيهاً بالكُراع، وهو ما دون الركبة من الساق، والغميم بالفتح: وادٍ بالحجاز، انظر: النهاية في غريب الحديث ج٤ ص١٦٥، والسيرة النبوية الصحيحة ج٢ ص٤٣٦ . وفي معجم معالم الحجاز، هو موضع بين مكة والمدينة ويعرف اليوم ببرقاء الغميم، وهي برقاء على كراع من الحرة يسار طريق الصادر من عسفان على ١٦ كيلاً تقريباً تقع بين وادي راين وشامية ابن حمادي ج٦ ص٢٦٤-٢٦٥ .

(٢) السالفة: مقدمة العنق.

(٣) البداية والنهاية ج٤ ص١٦٦ .

(٤) ثنية المرار: فج يعرف اليوم بـ»فج الكريمي« والمرار نبات يعرفه أهل البادية، وتسمى اليوم هذه الثنية بـ«ربع الحجون» بعد أن بنيت ضفائر جديدة على جانبيها، انظر: معجم معالم الحجاز ج٢ ص٢٥-٢٦

(٥) أي: حرنت ولم تمش.

**أعطيتهم إياها)، ثم أمر الناس أن ينزلوا، فقالوا: ليس في الوادي ماء ننزل عليه، فأخرج سهماً وأعطاه أحد أصحابه[1]، فنزل في «قليب» فغرزه في جوفه، ففار الماء فارتوى الناس، وبينما هم على تلك الحال إذ أقبل بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه[2]، فسألوه عليه الصلاة والسلام عن نيته من المجيء إلى المكان، فقال: (إنا لم نأت لقتال أحد، وإنما جئنا معتمرين)، وقال لهم نحواً مما قاله لبشر بن سفيان مما ذكر آنفاً، فرجع بديل وصحبه إلى قريش، فأبلغهم بما سمعه من رسول اللهﷺ فبعثوا له رجلاً[3] وكلمه، وقال له رسول الله نحواً مما قاله لبديل وأصحابه، فرجع إليهم فأخبرهم بما قاله. ثم بعثوا إليه سيد الأحابيش[4]، فلما رأى الهدي مع رسول الله ﷺ رجع إلى قريش، فقال لهم ما رأى، فقالوا له: إنك أعرابي لا تعلم، فغضب من ذلك، وقال: يا معشر قريش والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أيصد عن بيت الله من جاء معظماً له؟ والذي نفسي بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء به، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد.**

---

(1) جندب بن عمير.

(2) قبيلة خزاعة مناصرة لرسول الله وهي في شركها وإسلامها.

(3) الرجل مكرز بن حفص بن الأحنيف.

(4) اسمه الحليس بن علقمة أو ابن زبان.

**فقالوا له: مه كف عنا.**

**ثم بعثوا عروة بن مسعود الثقفي فجلس بين يديه، وقال: يا محمد أجمعت أوشاب الناس[1]، ثم جئت بهم إلى بيضتك[2] لتفضها بهم، إنها قريش خرجت بقوتها، وايم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً. فغضب أبو بكر والمغيرة بن شعبة منه، وأسمعاه كلاماً لم يعجبه. فرجع عروة إلى قريش، وقال لهم: يا معشر قريش إني قد جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً فخذوا رأيكم[3].**

**ثم أرسل رسول الله ﷺ أحد أصحابه[4] إلى قريش، وحمله على بعير له ليبلغ رؤساءهم عنه ما جاء من أجله، فعقروا الجمل وهموا بقتل الرجل، فمنعه الأحابيش، ثم دعا رسول الله ﷺعمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة، ليبلغ قريشاً عنه ما جاء من أجله، فاعتذر لما تعرفه قريش من عداوته لها وغلظته عليها، ثم دعا عثمان بن عفان فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش، ليبلغهم أنه**

---

(1) الأوشاب: الأخلاط من الناس.

(2) المعنى أهلك وقبيلتك.

(3) البداية والنهاية ج٤ ص١٦٨-١٦٩ .

(4) اسمه خراش بن أمية الخزاعي.

لم يأت لحرب، وإنما جاء معظماً للبيت، فخرج عثمان إلى مكة فأجاره أبان بن سعيد بن العاص حتى بلَّغ رسالة رسول اللهﷺ، فقالوا: إن شئت أن تطوف بالبيت فافعل، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله . فحبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله أنه قتل. وعندما بلغه مقتل عثمان قال عليه الصلاة والسلام: (لا نبرح حتى نناجز القوم)[1]. فدعا إلى البيعة فبايعوه عند الشجرة بيعة الرضوان، ثم علم رسول اللهﷺ أن عثمان لم يقتل. وقد أنزل الله فيهم قوله عز وجل: ﴿* لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[الفتح:١٨].

وفي تلك الأثناء أدركت قريش أن الأمر ليس كما تظنه وأن من الصعب عليها أن تصر على موقفها، فجعلت تبحث عن مخرج لها فأرسلت سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ تطلب الصلح، فلما رآه رسول اللهﷺ قد أقبل قال: (أراد القوم الصلح). فلما انتهى إلى رسول الله تكلم فأطال، فتم الصلح بين رسول الله وبينه، فتأثر المسلمون لذلك، فأتى عمر أبا بكر فقال: أليس محمد رسول الله؟ قال: بلى، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أو ليسوا

---

([1]) البداية والنهاية ج٤ ص١٦٩ .

**بالمشركين؟ قال: بلى فقال عمر: لماذا نعطي الدنية في ديننا؟ فقال أبو بكر لعمر: الزم الأمر فلن نفارقه، فإني أشهد أنه رسول الله. فقال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله.**

**ومع ذلك فقد بقي من أمر الصلح شيء في نفس عمر، فأتى رسول اللهﷺ فقال له ما قال لأبي بكر، ثم سأل رسول الله قائلاً: لماذا نعطي الدنية في ديننا؟ فقال له رسول اللهﷺ: (أنا عبدالله ورسوله، ولن أخالف أمره، ولن يضيّعني) فسكت عمر، ثم دعا رسول الله علي بن أبي طالب فقال: (اكتب بسم الله الرحمن الرحيم) فقال سهيل: لا أعرف هذا؛ ولكن اكتب باسمك اللهم، فقال رسول اللهﷺ: (اكتب باسمك اللهم) فكتبها ثم قال: (اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو)، فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال رسول اللهﷺ: (اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله سهيل بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليه، وإن بيننا عيبة مكفوفة[1]، وأنه لا**

---

([1]) هذه استعارة، المقصود منها أنك تكف عنا يا محمد ونكف عنك.

**إسلال[1] ولا إغلال[2]، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه). فدخلت خزاعة في عهد رسول الله، ودخلت بنو بكر في عهد قريش، وأن يرجع رسول الله عنهم عامه ذلك، فإذا كان العام القابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً، معك سلاح الراكب السيوف في القرب[3] لا تدخلها بغيرها.**

**وفي أثناء كتابة عهد الصلح جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو فاراً من قريش، فلما رآه والده سهيل ضرب وجهه، ثم قال: يا محمد قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا -يقصد ابنه- [4] فقال رسول اللهﷺ: (صدقت)، فجعل سهيل يجذب ابنه بشدة ليرده إلى قريش، فجعل ابنه يصيح بأعلى صوته: يا معشر المسلمين هل أرد إلى المشركين ليفتنوني في ديني؟ فلما سمع المسلمون ذلك تأثروا أثراً شديداً، ودخلهم أمر عظيم من عقد الصلح، فقال رسول الله : (يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاْ ومخرجاْ. إنا عقدنا**

---

(1) الإسلال: السرقة الخفية.

(2) الإغلال: الخيانة.

(3) القُرُب: جمع القِراب هو غمد السيف والسكين. انظر: المصباح المنير ٤٩٥-٤٩٦ ، والمعجم الصافي في اللغة العربية، لصالح الصالح ص٥٢١ .

(4) ومعنى لجت القضية أي انعقد الصلح بيني وبينك.

**الصلح بيننا وبين القوم، وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم)[1].**

**وبعد ذلك أشهد رسول اللهﷺ على الصلح رجالاً من المسلمين ورجالاً من المشركين[2]. ولما فرغ من الصلح قام إلى هديه فنحره ثم حلق رأسه، فقام المسلمون ينحرون هديهم ويحلقون ويقصرون، ثم انصرف عليه الصلاة والسلام راجعاً إلى المدينة، فنزلت عليه سورة الفتح.**

**وفي هذه السورة بشارات وحكم عظيمة، منها أن الله قد امتن على رسوله بست منح كبرى؛ فقد فتح الله عليه خيبر بعد الهدنة، وقضى له بفتح مكة، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأتم نعمته عليه بالفوز على أعدائه، وهدايته إلى الطريق القويم، ونصره على أعدائه نصراً عزيزاً دائماً، وأرسله شاهداً على أمته،**

---

(١) البداية والنهاية، ج٤ ص١٧٠-١٧١ ، واستثنى الله من ذلك النساء المهاجرات بعد الهدنة، فقد هاجرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مطيع، فخرج أخواها عمارة والوليد إلى المدينة، وأتيا رسول الله يسألانه ردها بحكم عقد الهدنة فلم يفعل، لأن الله سبحانه أمر بعدم رد النساء المهاجرات في قوله عز وجل: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة:١٠]

. انظر: تفسير الآية في تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٥٠-٣٥١ .

(٢) شهود الصلح: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب كاتب الصلح، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن سهيل بن عمرو، ومكرز بن حفص، ومحمود بن مسلمة.

ومبشراً للمؤمنين بما سينالهم من الجزاء وهو الجنة، ونذيراً لأهل الكفر بما سينالهم من العقاب.

وقد بيَّن الله هذه المنح في قوله -عز وجل-: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا *وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾[الفتح:١-٣] ، وقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[الفتح:٨] .

ومن هذه البشارات والحكم أن الله أنزل السكينة والطمأنينة على المؤمنين الذين كانوا مع رسول الله ؛ فقد اضطربت نفوسهم وساورهم القلق عندما حدث الصلح مع المشركين، فلم يتمكنوا بسببه من دخول مكة مع إيمانهم بالنصر على أعدائهم وإيمانهم بما وعد الله به نبيه ورسوله من النصر المبين، فكان ما قاله في ذلك لرسول الله عمر بن الخطاب: «لماذا نعطي الدنية في ديننا؟». كما أن نفوسهم قد اضطربت حين تم تسليم أبي جندل المسلم لأبيه المشرك بموجب عقد الهدنة، فقال تعالى في ذلك: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[الفتح:٤].

ومن هذه البشارات والحكم أن الذين يبايعون رسول الله على الجهاد والثبات معه إنما يبايعون الله؛ لأن الذي أمره بذلك هو الله، فهم

**عندما يبايعون رسوله إنما يبايعونه هو، ومن نقض هذه البيعة فإن الضرر يعود عليه، ومن وفَّى بالبيعة محتسباً فسينالـه أجر عظيم، وفي هذا قال جل ثناؤه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].**

**ومن هذه البشارات والحكم أن الله عز وجل بيَّن حقيقة الذين تخلفوا عن رسول الله، وهم بعض من قبائل العرب حين حثهم على السير معه، فامتنعوا بحجة انشغالهم في أهلهم وأموالهم، بينما الذي منعهم هو خوفهم من حرب قريش، فجاؤوا بعد ذلك يطلبون من رسول الله أن يستغفر لهم، وقد بيَّن الله عز وجل أنهم لم يكونوا صادقين فيما قالوا، وأن الذي جعلهم يتخلفون هو ظنهم السيئ بأن الرسول والمؤمنون عندما يلتقون مع قريش لن يرجعوا إلى المدينة بسبب ما سيتعرضون له من الهزيمة، فقال عز وجل فيهم: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا**

بُورًا﴾[الفتح:١١-١٢].

ومن هذه البشارات والحكم إخبار الله تعالى أنه قد رضي عن الذين بايعوا رسول الله ﷺتحت الشجرة وهي «بيعة الرضوان»، وأنه علم ما في قلوبهم من الإيمان والاخلاص والصدق في علاقتهم مع رسول الله فجزاهم برضاه عنهم، وفي هذا من الأجر والثواب العظيم ما تتطلع إليه نفوس المؤمنين، كما جزاهم من أمر الدنيا بفتح البلدان والحصول على الغنائم وكف أذى المشركين عنهم، فقال عز وجل في ذلك:﴿* لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا *وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح:١٨-٢٠] .

ومن هذه البشارات والحكم أن الله صدق رسوله الرؤيا التي رآها، وهي أنه عليه الصلاة والسلام رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت، فأخبر أصحابه بذلك، ولما مر عام من الهدنة خرج سنة سبع من الهجرة إلى مكة معتمراً هو وأصحابه أهل الحديبية، وساق معه ستين بدنة للهدي، وسار على الطريق يلبي وأصحابه

**يلبون معه، فلما وصل قريباً من مر الظهران بعث محمد بن مسلمة بالسلاح والخيل أمامه، ففزع المشركون فزعاً شديداً، وظنوا أن رسول الله ﷺ قد نكث العهد معهم، فلما نزل بمر الظهران بعث السلاح إلى أحد المواقع، وسار إلى مكة والسيوف مغمدة في قربها، حسب العقد الذي تم مع المشركين، وفي أثناء الطريق بعثت قريش مكرز بن حفص، فقال: يا محمد ما عرفناك ناقضاً للعهد. فقال له عليه الصلاة والسلام: (وما ذاك؟). قال: دخلت علينا بالسلاح من الرماح والنبل. فقال عليه الصلاة والسلام: (هذا وضعناه في مكان آخر). فقال مكرز: «بهذا عرفناك بالبر والوفاء».**

**لقد صعب على رؤوس المشركين أن يروا محمداً وأصحابه يدخلون مكة ملبين ومهللين فخرجوا منها، أما أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فقد جلسوا على الطرقات وفي البيوت ينظرون إلى رسول الله وأصحابه، وهم يدخلون مكة ملبين ومكبرين، فدخل عليه الصلاة والسلام وهو على ناقته القصواء وعبدالله بن رواحة الأنصاري آخذ بزمامها [1]. وهذا هو مصداق**

---

([1]) كان يمسك بالزمام ويقول:

باسم الذي لا دين إلا دينه  باسم الذي محمد رسوله
خلوا بني الكافر عن سبيله  اليوم نضربكم على تأويله

**قول الله عز وجل: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا *هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح:٢٧-٢٨]**[1].

## دعوته العالم إلى الإسلام

**الإسلام ليس دين قوم دون آخرين، وليس دين أمة دون أخرى؛ فرسول اللهﷺ بعث إلى الثقلين الإنس والجن كافة، ورسالته رسالة عالمية ورسالة أبدية، ليست محدودة بزمان أو مكان، بل هي قائمة باقية حتى تقوم الساعة ويقف الناس عند ربهم للحساب، ولهذا أمر الله رسوله أن يبلغ هذه الرسالة إلى كل أمم الأرض إنسهم وجنهم ذكرهم وأنثاهم كبيرهم وصغيرهم في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة:٦٧]. وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ**

---

كما ضـــربناكم على تنزيلـــه ضرباً يزيل الهام عن مقيلـه
ويذهـل الخليـل عن خليلـــه قد أنزل الرحمـن في تنزيله
في صحف تتلى على رســـوله بأن خير القتـل في سبيلـه
يـــا رب إني مؤمن بقيلـــه

انظر: هذه الأبيات في البداية والنهاية ج٤ ص٢٢٨-٢٢٩، والسيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص٢١.

(1) راجع تفسير الآيات وتفاصيل فتح مكة في تفسير ابن كثير (سورة الفتح) ج٤ ص١٨٥-٢٠٦.

لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل:٤٤].

**وهذا الأمر بالبلاغ اقتضاه علم الله المطلق بحاجة خلقه إلى دين يهديهم إلى صراطه المستقيم، واقتضته حكمته عز وجل أن يكون المأمور بالبلاغ رسول الله محمد بن عبدالله، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام حريصاً على أداء هذا البلاغ امتثالاً لأمر ربه؛ ففي حجة الوداع التي اجتمع فيها آلاف المسلمين، قال في خطبته «الجامعة»: (أيها الناس إنكم مسئولون عني فما أنتم قائلون؟) قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع رأسه إلى السماء وينكسها إليهم، ويقول: (اللهم بلغت)، ثم قال: (ألا فليبلغ الشاهد الغائب)[1].**

**وكان من حرصه عليه الصلاة والسلام على إبلاغ الرسالة مخاطبة الملوك والأباطرة والقياصرة في ذلك الزمان، فأرسل إليهم الرسل يدعوهم إلى الإسلام والإيمان برسالته واتباع ما جاء به، فأرسل حاطب بن أبي بلتعة إلى ملك مصر والإسكندرية، ومعه الكتاب التالي: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبدالله**

---

([1]) متفق عليه، واللفظ لمسلم، أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب حجة النبي ، رقم الحديث (١٢١٨)، صحيح مسلم مع شرحه إكمال إكمال المعلم ج٤ ص٢٤٣-٢٦٨، وأخرجه البخاري في كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، برقم (١٧٣٩، ١٧٤١، ١٧٤٢)، فتح الباري ج٣ ص٦٧٠-٦٧١.

ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُون﴾[آل عمران:٦٤].ولما قابل حاطب المقوقس قال له: إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر غيرك بك. فرد عليه المقوقس قائلاً: إن لنا ديناً لن ندعه إلا لما هو خير منه. فقال حاطب: ندعوك إلى دين الإسلام الكافي به الله فَقْدَ ما سواه، إن هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إليك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، فكل نبي أدرك قوماً فهم أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، وأنت ممن أدركك هذا النبي، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به.

فقال المقوقس: إني قد نظرت في أمر هذا النبي، فوجدته لا يأمرني هو دينه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب،

**ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبث والإخبار بالنجوى، وسأنظر.**

**وقد رد المقوقس بكتاب، قال فيه: «إنه قرأ الكتاب وفهم ما فيه، وما يدعو إليه رسول الله، وأنه علم أن نبيًّا بقي، وكان يظن أنه يخرج بالشام. ولم يزد على هذا ولم يسلم، ومع ذلك فقد كان كتاب رسول الله إليه بداية وبشارة بدخول الإسلام إلى مصر فيما بعد»[1].**

**وأرسل رسول اللهﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة بالكتاب التالي: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة أسلم أنت، فإني أحمد الله إليك، الله الذي لا إلَه إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه، ونفخه كما خلق آدم بيده. وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تبتغي وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل. وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى».**

---

([1]) زاد المعاد في هدي خير العباد، للإمام ابن القيم ج٣ ص٦١.

**ولما قابله عمرو قال له: «يا أصحمة إن علي القول وعليك الاستماع، إنك كأنك في الرقة علينا، وكأنا في الثقة بك منك، لأنا لم نظن بك خيراً قط إلا نلناه، ولم نخفك على شيء قط إلا أمناه، وقد أخذنا الحجة عليك من فيك، الإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد، وقاضٍ لا يجور، وفي ذلك الموقع الحز، وإصابة المفصل، وإلا فأنت في هذا النبي الأمي كاليهود في عيسى ابن مريم، وقد فرق النبي رسله إلى الناس فرجاك لما لم يرجهم منه، وأمنك على ما أخافهم عليه بخير سالف وأجر ينتظر». فقال النجاشي: أشهد بالله أنه النبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب، وأن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل، وأن العيان ليس بأشفى من الخبر. ثم كتب النجاشي إلى النبي الكتاب التالي: «بسم الله الرحمن الرحيم. إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمه سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركات الله الذي لا إلَه إلا هو. أما بعد: فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت ثفروقاً[1] إنه كما ذكرت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد عرفنا ابن عمك وأصحابك، فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً،**

---

([1]) الثفروق غلافة بين النواة والقشر.

**وقد بايعتك وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين»[1].**

**وأرسل رسول الله ﷺ دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر ملك الروم، ومعه الكتاب التالي: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُون﴾[آل عمران:٦٤]. وقد أمر الرسول عليه الصلاة والسلام دحية أن يدفع الكتاب إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى قيصر وقد روى البخاري عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: أخبرني أبو سفيان بن حرب أنه كان بالشام في رجال من قريش قَدِموا تجاراً في المُدَّةِ التي كانت بين رسول الله وبين كفار قريش. قال أبو سفيان: فوجدنا رسول قيصر ببعض الشّام، فانطلق بي وبأصحابي حتى قدمنا إيلياء[2]، فَأُدْخِلْنَا عليه، فإذا هو جالس في مجلس ملكه**

---

([1]) زاد المعاد في هدي خير العباد، ج٣ ص٦٠.

([2]) إيلياء: معناه بيت الله في مفهومهم. فتح الباري ج١ ص٤٥.

وعليه التاج، وإذا حوله عظماء الروم. فقال لترجمانه: سلهم أيُّهم أقرب نسباً إلى هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ قال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم إليه نسباً. قال: ما قرابة ما بينك وبينه؟ فقلت: هو ابن عم. وليس في الركب يومئذ أحد من بني عبد مناف غيري. فقال قيصر: أدنوه. وأمر بأصحابي فجعلوا خلف ظهري عند كتفي. ثم قال لترجمانه: قل لأصحابه إني سائل هذا الرجل عن الذي يزعم أنه نبي، فإن كذَبَ فكذِّبوه. قال أبو سفيان: والله لولا الحياء يومئذ من أن يأثر أصحابي عني الكذب لكذبته حين سألني عنه، ولكني استحييت أن يأثروا الكذب عني فصدقته. ثم قال لترجمانه: قل له: كيف نسب هذا الرجل فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول أحد منكم قبله؟ قلت: لا. فقال: كنتم تتهمونه على الكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا. قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم. قال: فيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتَدُّ أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن الآن منه في مدة نحن نخاف أن يغدر. قال أبو سفيان: ولم يمكني كلمة أدخل فيها شيئاً أتنقَّصه به -لا أخاف أن تؤثَرَ عني- غيرها. قال: فهل قاتلتموه أو

قاتلكم؟ قلت: نعم. قال: فكيف كانت حربه وحربكم؟ قلت: دوالاً وسجالاً: يدال علينا المرة وندال عليه الأخرى. قال: فماذا يأمركم به؟ قال: يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة، والصدقة، والعفاف، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة. فقال لترجمانه حين قلت ذلك له: قل له إني سألتك عن نسبه فيكم، فزعمت أنه ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها. وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله؟ فزعمت أن لا. فقلت لو كان أحد منكم قال هذا القول قبله قلت رجل يَأْتَمُّ بقول قد قيل قبله. وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أن لا، فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله. وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟ فزعمت أن لا، فقلت لو كان من آبائه ملك قلت يطلب ملك آبائه. وسألتك أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فزعمت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل. وسألتك هل يزيدون أو ينقصون؟ فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم. وسألتك هل يرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فزعمت أن لا، فكذلك الإيمان حين تخلط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد. وسألتك هل يغدر؟ فزعمت أن لا، وكذلك الرسل لا يغدرون. وسألتك هل

قاتلتموه وقاتلكم؟ فزعمت أن قد فعل، وأن حربكم وحربه تكون دولاً، ويدال عليكم المرة، وتدالون عليه الأخرى، وكذلك الرسل تبتلى، وتكون لها العاقبة. وسألتك بماذا يأمركم؟ فزعمت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم، ويأمركم بالصلاة، والصدق والعفاف، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة. قال: وهذه صفة نبي قد كنت أعلم أنه خارج، ولكن لم أعلم أنه منكم، وإن يك ما قلت حقاً فيوشك أن يملك موضع قدمي هاتين، ولو أرجو أن أخلص إليه لتجشَّمتُ لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت قدميه. قال أبو سفيان: ثم دعا بكتاب رسول الله فَقُرئ، فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد عبدالله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتَّبع الهدى. أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم الأريسيين ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُون﴾[آل عمران:٦٤]. قال أبو سفيان: فلما أن قضى مقالته علتْ أصوات الذين حوله من عظماء الروم وكثر لغطهم، فلا أدري ماذا قالوا. وأُمِرَ بنا فأخرجنا. فلما أن خرجت مع

**أصحابي وخلوت بهم قلت لهم: لقد أُمرَ أمرُ ابن أبي كبشة، هذا ملك بني الأصفر يخافه. قال أبو سفيان: والله ما زلت ذليلاً مستيقناً بأن أمره سيظهر، حتى أدخل الله قلبي الإسلام وأنا كاره»[1].**

**وأرسل رسول الله ﷺعبدالله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك فارس، ومعه الكتاب التالي: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد ألا إلَه إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله. وأدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة، لينذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك».**

**وقد دفع السهمي الكتاب إلى حاكم البحرين فلما قرأ كسرى الكتاب مزقه، وقال: يكتب إليَّ بهذا وهو عندي. فبلغ ذلك رسول الله فقال: (مزق الله ملكه). ثم كتب كسرى إلى باذان ملك اليمن أن ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتياني به. وبعث باذان بابويه ورجلاً آخر من الفرس وكتب معهما يأمره بالمسير معهما إلى كسرى. وتقدم إلى بابويه أن يأتيه**

---

([1]) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي إلى الإسلام والنبوة، رقم الحديث (٢٩٤١)، فتح الباري ج ص١٢٨-١٣٠.

بخبر رسول الله وسمعت قريش بذلك ففرحوا، وقالوا: أبشروا فقد نصب له كسرى ملك الملوك. كفيتم الرجل فخرجا حتى قدما على رسول الله وقد حلقا لحاهما وأعفيا شواربهما فكره النظر إليهما، وقال: (ويلكما من أمركما بهذا) قالا: ربنا. يعنيان الملك، فقال: (لكن ربي أمرني أن أعفي لحيتي وأقص شاربي)، فأعلماه بما قدما له، وقالا: إن فعلت كتب باذان فيك إلى كسرى، وإن أبيت فهو يهلكك ويهلك قومك، فقال لهما رسول الله : (ارجعا حتى تأتيانِ غدًا)، وأتي رسول الله ﷺ الخبر من السماء، أن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله في شهر كذا وليلة كذا، فدعاهما رسول الله وأخبرهما بقتل كسرى، وقال لهما: (قولا له إن ديني وسلطاني سيبلغ ملك كسرى، وينتهي منتهى الخف والحافر)، وأمرهما أن يقولا لباذان: أسلم، فإن أسلم أقره على ما تحت يده وأملكه على قومه، ثم أعطى خرخسره منطقة ذهب وفضة أهداها له بعض الملوك. وخرجا فقدما على باذان وأخبراه الخبر، فقال: والله ما هذا كلام ملك، وإني لأراه نبياً ولننظرن، فإن كان ما قال حقًّا فإنه لنبي مرسل، وإن لم يكن فنرى فيه رأينا فلم يلبث باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه يخبره بقتل كسرى وأنه قتله غضباً للفرس لما استحل من قتل أشرافهم، ويأمره بأخذ الطاعة له

**باليمن، وبالكف عن النبي . فلما أتاه كتاب شيرويه أسلم وأسلم معه أبناء من فارس. وكانت حمير تسمى خرخسره صاحب المعجزة، والمعجزة بلغة حمير المنطقة[1].**

**وأرسل رسول الله كتاباً إلى هوذة بن علي السحيمي صاحب اليمامة، حمله سليط بن عمرو العامري قال فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم. إلى هوذة بن علي، سلام على من اتبع الهدى، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر، فأسلم تسلم، وأجعل لك ما تحت يديك». فلما قدم عليه سليط بكتاب رسول الله مختوماً أنزله وحياه، واقترأ عليه الكتاب، ثم كتب إلى النبي قائلاً: ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، والعرب تهاب مكاني، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك. وأجاز سليطاً بجائزة. وكساه أثواباً جميلة، فقدم بذلك على النبي وأخبره وقرأ عليه الصلاة والسلام كتابه، فقال: (لو سألني سيابة[2] من الأرض ما فعلت، باد وباد ما في يديه). فلما انصرف رسول الله من الفتح جاءه جبريل عليه السلام بأن هوذة مات، فقال النبي : (أما إن اليمامة سيخرج بها كذاب يتنبأ يقتل بعدي)، فقال قائل: يا رسول الله من يقتله؟ فقال عليه الصلاة**

---

([1]) الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ج٢ ص١٤٦.

([2]) السيابة: بفتح السين والتخفيف: البلحةُ، وجمعها سيابٌ، وبها سمّي الرجل سيابة. انظر: النهاية في غريب الحديث ج٢ ص٤٢٣.

**والسلام: (أنت وأصحابك). فكان كذلك.**

**وذكر الواقدي أن أركون دمشق عظيم من عظماء النصارى كان عند هوذة، فسأله عن النبي ، فقال: جاءني كتابه يدعوني إلى الإسلام فلم أجبه. قال الأركون: لمَ لا تجيبه؟ قال: ضننتُ بديني وأنا ملك قومي، وإن تبعته لم أملك. قال: بلى والله لئن تبعته ليملكنك، فإن الخيرة لك في اتباعه، وإنه النبي العربي الذي بشر به عيسى ابن مريم، وإنه لمكتوب عندنا في الإنجيل محمد رسول الله [1].**

**وكتب رسول الله كتاباً إلى المنذر بن ساوى حاكم البحرين، حمله العلاء بن الحضرمي يدعوه فيه وأهل البحرين إلى الإسلام، فكتب المنذر إلى رسول الله قائلاً: أما بعد يا رسول الله، فإني قرأت كتابك على أهل البحرين، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضي مجوس ويهود، فأحدث إليَّ في ذلك أمرك.**

**فكتب إليه رسول الله الكتاب التالي: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إلَه إلا هو، وأشهد ألا إلَه إلا الله، وأن محمداً عبده**

---

([1]) زاد المعاد في هدي خير العباد، للإمام ابن القيم ج٣ ص٦٣.

ورسوله. أما بعد: فإني أذكرك الله عز وجل، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وأنه من يطع رسلي، ويتبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيراً، وإني قد شفعتك في قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلم نعزلك عن عملك، ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية»[1].

وبعث عليه الصلاة والسلام عمرو بن العاص إلى ملك عمان وكتب معه كتاباً، قال فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد بن عبدالله إلى جيفر وعبد ابني الجلندي. سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوكما بدعاية الإسلام أسلما تسلما، فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، فإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما، وخيل تحل بساحتكما وتظهر نبوتي على ملككما». وكتب أبي بن كعب وختم الكتاب قال عمرو: فخرجت حتى انتهيت إلى عمان، فلما قدمتها عمدت إلى عبد، وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقاً، فقلت: إني رسول رسول الله إليك وإلى أخيك، فقال: أخي المقدم عليَّ بالسن والملك، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ

(1) زاد المعاد ج٤ ص٦٧ ، طبع دار الكتب العلمية.

كتابك، ثم قال: وما تدعو إليه؟ قلت: أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، وتخلع ما عبد من دونه، وتشهد أن محمداً عبده ورسوله. قال: يا عمرو إنك ابن سيد قومك، فكيف صنع أبوك فإن لنا فيه قدوة؟ قلت: مات ولم يؤمن بمحمد ، ووددت أنه كان أسلم وصدق به، وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هداني الله للإسلام. قال: فمتى تبعته؟ قلت: قريباً. فسألني أين كان إسلامك؟ قلت: عند النجاشي، وأخبرته أنّ النجاشي قد أسلم. قال: فكيف صنع قومه بملكه؟ فقلت: أقروه واتبعوه. قال: والأساقفة والرهبان تبعوه؟ قلت: نعم. قال: انظر يا عمرو ما تقول أنه ليس من خصلة في رجل أفضح له من الكذب؟ قلت: ما كذبت وما نستحله في ديننا. ثم قال: ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشي؟ قلت: بلى. قال: بأي شيء علمت ذلك؟ قلت: كان النجاشي يخرج له خرجاً، فلما أسلم وصدق بمحمد قال: لا والله لو سألني درهماً واحداً ما أعطيته، فبلغ هرقل قوله فقال: له النياق أخوه أتدع عبدك لا يخرج لك خرجاً، ويدين بدين غيرك ديناً محدثاً؟ قال هرقل: رجل رغب في دين فاختاره لنفسه ما أصنع به؟ والله لولا الضن بملكي لصنعت كما صنع. قال: انظر ما تقول يا عمرو؟ قلت: والله صدقتك. قال عبد: فأخبرني ما الذي يأمر به وينهى عنه؟ قلت: يأمر بطاعة الله عز وجل، وينهى عن معصيته، ويأمر

بالبر وصلة الرحم، وينهى عن الظلم والعدوان، وعن الزنا وعن الخمر وعن عبادة الحجر والوثن والصليب. قال: ما أحسن هذا الذي يدعو إليه، لو كان أخي يتابعني عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به، ولكن أخي أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنباً. قلت: إنه إن أسلم ملكه رسول الله على قومه، فأخذ الصدقة من غنيهم فيردها على فقيرهم. قال: إن هذا لخلق حسن، وما الصدقة؟ فأخبرته بما فرض رسول الله في الصدقات في الأموال حتى انتهيت إلى الإبل. قال: يا عمرو وتؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى الشجر وترد المياه؟ فقلت: نعم. فقال: والله ما أرى قومي في بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون لهذا، قال: فمكثت ببابه أياماً وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبري، ثم إنه دعاني يوماً فدخلت عليه فأخذ أعوانه بضبعي، فقال: دعوه، فأرسلت فذهبت لأجلس، فأبوا أن يدعوني أجلس، فنظرت إليه فقال: تكلم بحاجتك، فدفعت إليه الكتاب مختوماً، ففض خاتمه وقرأ حتى انتهى إلى آخره، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته، إلا أني رأيت أخاه أرق منه. قال: ألا تخبرني عن قريش كيف صنعت؟ فقلت: تبعوه إما راغب في الدين، وإما مقهور بالسيف. قال: ومن معه؟ قلت: الناس قد رغبوا في الإسلام، واختاروه على غيره، وعرفوا بعقولهم مع

**هدى الله إياهم أنهم كانوا في ضلال، فما أعلم أحداً بقي غيرك في هذه الخرجة، وأنت إن لم تسلم اليوم وتتبعه توطئك الخيل وتبيد خضراك، فأسلم تسلم، ويستعملك على قومك، ولا تدخل عليك الخيل والرجال. قال: دعني يومي هذا وارجع إليَّ غداً. فرجعت إلى أخيه، فقال: يا عمرو إني لأرجو أن يسلم إن لم يضن بملكه، حتى إذا كان الغد أتيت إليه، فأبى أن يأذن لي فانصرفت إلى أخيه فأخبرته أني لم أصل إليه فأوصلني إليه، فقال: إني فكرت فيما دعوتني إليه، فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلاً ما في يدي وهو لا تبلغ خيله ههنا، وإن بلغت خيله لقت قتالاً ليس كقتال من لاقى. قلت: وأنا خارج غداً. فلما أيقن بمخرجي خلا به أخوه، فقال: ما نحن فيما ظهر عليه، وكل من أرسل إليه قد أجابه. فأصبح فأرسل إليَّ فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعاً، وصدقا النبي وخليا بيني وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم، وكانا لي عوناً على من خالفني[1].**

**فتح مكة**

**لقد وعد الله رسوله -ووعده الحق- أن يفتح مكة، ويطهرها من**

---

([1]) زاد المعاد في هدي خير العباد، للإمام ابن القيم، ج٣ ص٦٢-٦٣.

**رجس الأوثان والأصنام، وترتفع فيها راية التوحيد، وتكون الكعبة فيها قبلة للمسلمين، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وقد أوفى رسول الله بعهده وبر، وصدق بما عاهد الله عليه في صلح الحديبية، رغم ما كان المسلمون يجدونه في أنفسهم من هذا الصلح. ولكن المشركين نكثوا العهد، ونقضوا ما عاهدوه عليه من عدم الاعتداء على من دخل في عهده؛ ففي هذا الصلح دخلت قبيلة خزاعة في عهد رسول الله ، ودخل بنو بكر في عهد قريش، فبينما كانت خزاعة على ماء في مكة يستسقون منه يسمى الوتير[1] اعتدت بنو بكر عليها أخذاً بثأر لها في الجاهلية، وقد أعانت قريش بني بكر على خزاعة بالسلاح والمال والرجال؛ فنقضت بذلك العهد الذي عقدته مع رسول الله ، فخرج على إثر ذلك عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على رسول الله في المدينة، فوقف عليه وهو جالس بين الناس، فناشده الوفاء بالحلف الذي بين رسول الله وقبيلته، وذكَّره بأن قريشاً نقضت العهد، وقتلت رجالاً من خزاعة وهم راكعون وساجدون في الحرم[2]. فقال رسول الله : (نصرت يا عمرو بن سالم)[1]. ثم عرض**

---

([1]) الوتير: ماء في أسفل مكة، وهو لقبيلة خزاعة، ويعرف اليوم بالوتائر جمع وتير وقد يقال الوتران: وهما شعبان جنوب غربي مكة بطرف حدود الحرم، وهي ديار خزاعة تبعد عن مكة ١٦ كيلاً، انظر معجم معالم الحجاز للبلادي، ج٩ ص١١٨-١١٩ .

([2]) ومما قاله سالم بن عمرو في مناشدته:

**رسول الله عنان من السماء، فقال: (إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب)[٢]. ويذكر أنّ قتلى خزاعة بلغوا عشرين رجلاً[٣]، وقد أوضح موسى بن عقبة أنّ الذين أعانوا بكراً على خزاعة من زعماء قريش فيهم صفوان بن أمية، وشيبة بن عثمان، وسهيل بن عمرو[٤]. ثم خرج بعد ذلك بُدَيْل بن ورقاء في نفر من خزاعة إلى المدينة، فأخبروا رسول الله الخبر ثم رجعوا إلى مكة، وكان رسول الله قد قال لأصحابه: (كأنكم بأبي سفيان قد جاء ليشد العقد، ويزيد في المدة)[٥]. وفي عسفان لقي بديل بن ورقاء أبا سفيان متجهاً إلى المدينة لتجديد العهد، فسأل بديلاً عن مكان قدومه، فقال بديل من خزاعة في الساحل، ثم سأله عما إذا كان قد أتى محمداً فنفى ذلك، ثم**

---

| | |
|---|---|
| يا رب إني ناشدٌ محمداً | حلف أبيه وأبينا الأتلدا |
| قد كنتم وُلْداً وكنا والداً | ثَمْتَ أسلمنا فلم ننزع يدا |
| فانصر هداك الله نصراً اعتدا | وادع عباد الله يأتوا مددا |
| فيهم رسول الله قد تجردوا | إن سيم خسفاً وجهه تربدا |
| في فيلق كالبحر يجري مزبدا | أن قريشاً أخلفوك الموعدا |
| ونقضوا ميثاقك المؤكدا | وجعلوا في كدا رصّدا |
| وزعموا أن لست أدعو أحدا | وهم أذل وأقل عددا |
| هم بيتونا بالوتير هُجَّدا | وقتلونا ركعاً وسجدا |

انظر هذه الأبيات في السيرة النبوية، لابن هشام ج٤ ص٥٢-٥٣، البداية والنهاية ج٤ ص٢٧٧.

(١) البداية والنهاية ج٤ ص٢٧٨ .

(٢) السيرة النبوية، لابن هشام ج٤ ص٥٤ .

(٣) ذكره الواقدي في المغازي ج٢ ص٧٨٤ .

(٤) البداية والنهاية ج٤ ص٢٨٠-٢٨١ .

(٥) سيرة ابن هشام ج٤ ص٥٤ .

عرف أبو سفيان من أثر ناقته أنه أتى إلى المدينة، فاشتد عليه الخوف.

لقد علم أبو سفيان أن الأمر لن يكون لقريش، وأن محمداً وأصحابه قادمون إلى مكة لا محالة، فخرج حتى قدم المدينة، فدخل على ابنته أم حبيبة زوج النبي ، فلما أراد الجلوس على فراش رسول الله نزعته عنه، فقال: يا بنية ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟ فقالت: إنه فراش رسول الله وأنت مشرك نجس، فلم أحب أن تجلس عليه، فقال: لقد أصابك يا بنية بعدي شر، فقالت: بل إن الله قد هداني للإسلام، ثم أتى النبي فكلمه فلم يرد عليه، ثم أبا بكر وعمر فكلمهما فرد عليه عمر بقوله: والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به. ثم أتى عليًّا وعنده فاطمة وعندهما ابنهما الحسن صغير يدب بينهما، فكلمه فقال له علي: لقد عزم رسول الله على أمر لا نستطيع أن نكلمه فيه، فالتفت إلى فاطمة، فقال لها: يا ابنة محمد هل لك أن تأمري ابنك هذا أن يجير بين الناس فيكون سيد العرب، فقالت: ما بلغ ابني أن يجير بين الناس، وما يجير على رسول الله أحد. فالتفت إلى علي فقال: يا علي أرى الأمور قد اشتدت عليّ فانصحني، فقال علي: أنت سيد كنانة فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك، فقام أبو

**سفيان في المسجد فقال: أيها الناس قد أجرت بين الناس، ثم ذهب إلى مكة وأخبر قريشاً بما فعل، وما أشار به عليه علي، فقالوا: والله ما زاد على أن يسخر بك.**

**لم يكن رسول الله ليفعل غير الذي أمره به ربه، فتجهز وأمر الناس أن يتجهزوا في المسير إلى مكة، وقال: (اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها[1] في بلادها)[2]، فخرج عليه الصلاة والسلام في العاشر من شهر رمضان بعد أن استخلف على المدينة أبارُهم كلثوم بن حصين الغفاري، فصام عليه الصلاة والسلام حتى بلغ كُدَيداً[3]، فأفطر ومن معه فأدركه نفر من قريش؛ منهم أبو سفيان بن الحارث ابن عم رسول الله وأخوه من الرضاعة[4] فأسلموا . ونزل رسول الله عليه الصلاة والسلام مر**

---

([1]) أي نأتيها بغتة فلا تشعر بنا من قبل.

([2]) سيرة ابن هشام ج٤ ص٥٧ .

([3]) كديد عين جارية تبعد عن مكة ٨٦ كيلاً، وبينها وبين المدينة ٣٠١ كيل . انظر: السيرة النبوية الصحيحة ج٢ ص٤٧٥ د. أكرم ضياء العمري، وفي معجم معالم الحجاز: أن كديد يعرف اليوم بالحمض لكثرة نبات العصلاء فيه وهو مكان من أسفل غران قبل مصبه في وادي أمج كثير الرمال والطريق بين الدف وعسفان يطأ طرف الكديد الغربي على اثنين وتسعين كيلاً من مكة، ج٧ ص٢٠٤.

([4]) أراد الدخول على رسول الله فلم يأذن له لما كان منه من العداء والهجاء لرسول الله فقال: والله ليأذنن لي أو لآخذ ابني هذا ثم لنذهب في الأرض حتى نموت عطشاً . فرقّ له وأذن له، وقال عليه الصلاة والسلام: (لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين).

**الظهران[1]، ومعه عشرة آلاف فارس من الأنصار وقبائل غفار ومزينة وبني سليم وجهينة وقريش ومجاميع من العرب.**

**فلما رأى العباس بن عبد المطلب هذه الجموع، قال: يا هلاك قريش وجلس على بغلة النبي ، وقال: أخرج إلى الأراك[2]لعلي أرى حطَّاباً[3] أو رجلاً يدخل مكة، فيخبرهم بمكان رسول الله فيأتونه ويستأمنونه. قال: فخرجت أطوف في الأراك، إذ سمعت صوت أبي سفيان، وبديل بن ورقاء الخزاعي، وحكيم بن حزام قد خرجوا يتلمسون الخبر، فقال أبو سفيان: ما رأيت نيراناً أكثر من هذه، فقال بديل بن ورقاء: هذه نيران خزاعة، فقال أبو سفيان: خزاعة أذل من ذلك، فقلت: يا أبا حنظلة[4] هذا رسول الله في المسلمين أتاكم في عشرة آلاف فارس . قال: ماذا تأمرني؟ قلت: تركب معي، فأستأمن لك رسول الله فوالله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فردفني فخرجت أجري به إلى رسول الله. فكلما مررت بنار**

---

(1) مر الظهران وادٍ من أكبر أودية الحجاز، يأخذ مياهه من السفوح الشرقية للسراة غرب الطائف، ويمر على مرحلة من مكة قصيرة شمالاً أربعة وعشرين كيلاً على جادة المدينة المنورة، انظر: معجم معالم الحجاز ج٨ ص١٠٠-١٠٢ .

(2) الأراك: هو شجر السواك يُستاك بفروعه، والأراك موضع بعرفة من ناحية الشام، انظر: النهاية في غريب الحديث ج١ ص٤٠ ، المصباح المنير ص١٢ .

(3) يقصد من يبحث عن الحطب ليجلبه ويبيعه للناس.

(4) كنية أبي سفيان أبو حنظلة.

من نيران المسلمين ونظروا إليَّ يقولون: عم رسول الله على بغلة رسول الله، حتى مررنا بنار عمر بن الخطاب، فقال: يا أبا سفيان الحمد لله الذي أمكن منك بغير عهد ولا عقد، ثم ذهب إلى النبي فسبقته البغلة ودخل عمر على رسول الله وقال: دعني أضرب عنقه، فقلت: يا رسول الله، إني قد أجرته، فقال رسول الله: (اذهب فقد أمناه حتى تغدو عليَّ به الغداة) فرجعت به إلى منزلي، فلما أصبحت غدوت به على رسول الله، فلما رآه قال: (ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إلَه إلا الله؟) قال: بلى بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إلَه غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد، فقال رسول الله: (ويحك ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟) فقال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أما هذه ففي النفس منها شيء. قال العباس: فقلت له ويحك أشهد شهادة الحق قبل أن تضرب عنقك، قال: فتشهد وأسلم معه بديل بن ورقاء وحكيم بن حزام . فقال رسول الله للعباس: (اذهب فاحبس أبا سفيان عند أنف الجبل بمضيق الوادي حتى تمر عليه جنود الله)، فقلت: يا رسول الله إنه يحب الفخر، فاجعل له شيئاً يكون في قومه، فقال عليه الصلاة والسلام: (من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل دار حكيم بن حزام

**فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن)[1].**

**قال العباس: فخرجت به فحبسته عند أنف الجبل، فمرت عليه القبائل فيقول: من هؤلاء؟ فأقول: جهينة، فيقول: ما لي ولجهينة. ويقول: من هؤلاء؟ فأقول أسلم، فيقول: ما لي ولأسلم . حتى مر رسول الله في كتيبته الخضراء مع المهاجرين والأنصار، فقال: من هؤلاء؟ فقلت: هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار، فقال: ما لأحد بهؤلاء قِبَل ولا طاقة، لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً، فقلت: ويحك إنها النبوة، فقال: نعم، فقلت: الحق بقومك سريعاً فحذرهم. فخرج حتى أتى مكة ومعه حكيم بن حزام، فصاح في المسجد: يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قِبَلَ لكم به، فقالوا: فماذا؟ قال: من دخل داري فهو آمن، قالوا: ويحك وما تغني عنا دارك، فقال: ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ثم قال: يا معشر قريش أسلموا تسلموا، فأقبلت امرأته هند بنت عتبة فأخذت بلحيته، وقالت: يا آل غالب اقتلوا هذا الشيخ الأحمق، فقال لها: أرسلي لحيتي، والله لئن لم تسلمي أنت لتضربن عنقك. ادخلي بيتك، فتركته.**

---

([1]) سيرة ابن هشام ج٤ ص٦٣-٦٤ .

**وبعث رسول الله الزبير وأمره أن يدخل ببعض الرجال من كداء[١] وأمر سعد بن عبادة أن يدخل ببعض الرجال من كدي[٢] فقال سعد: اليوم يوم الملحمة: اليوم تستحل الكعبة، فسمع ذلك رجل من المهاجرين فأخبر رسول الله فقال لعلي بن أبي طالب: (أدركه، وخذ الراية منه، وكن أنت الذي تدخل بها)[٣]. وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من الليط[٤] أسفل مكة في بعض الرجال وكان معه قبائل أسلم وغفار وجهينة ومزينة وقبائل من العرب . ولما وصل رسول الله إلى ذي طوى وقف على راحلته، وهو مطأطىء رأسه تواضعاً لله عز وجل، حين رأى ما منَّ الله به عليه من الفتح المبين والنصر العزيز، حتى إن لحيته لتلمس واسطة رحله، ثم**

---

(١) كَداء: بالفتح والمد: الثّنيّة التي تهبط على البطحاء من الشمال الغربي فوق المسجد الحرام مما يلي الشمال الشرقي، وفيها مقبرة المعلاة، وتعرف اليوم هذه الثنية بـ«ريع الحجون»، معجم معالم الحجاز ج٧ ص١٩٦-١٩٧ .

(٢) كُدَيّ: بالضم والتنوين: ثنية بمكة يخرج منها الطريق من الحرم إلى جرول، جعل فيها في زمن الأشراف مركز لرسم البضائع القادمة من جدة، فسميت «ريع الرسام»، ولا تعرف اليوم إلا بهذا الاسم، معجم معالم الحجاز ج٧ ص٢٠٢ . وكُدَيَّ بالضم وتشديد الياء: ثنية لا زالت معروفة بهذا الاسم، يخرج فيها الطريق من مسفلة مكة إلى ثور، معجم معالم الحجاز ج٧ ص١٩٧ .

(٣) وقال : (ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تُكسى فيه الكعبة). انظر: صحيح البخاري ج٥ ص١٨٦ ، ولعلّه قصد من ذلك أن لا يفهم خطأ أن جيش المسلمين جاؤوا للتدمير، بل لتعظيم الكعبة المشرّفة وتطهيرها من الأوثان.

(٤) الليط: هو أسفل ذي طوى بمكة، ومنه اليوم: جرول والتنضباوي والحفاير، حتى يجتمع بسيل وادي إبراهيم، ثم يسمى المغش إلى عرنه، انظر معالم الحجاز ج٧ ص٢٧١-٢٧٢ .

**تقدم ودخل من أذاخر[1] من أعلاها، وضربت قبته هناك.**

**وفي تلك الأثناء كان عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهيل ابن عمرو قد جمعوا أناساً بالخندمة[2] ليقاتلوا، ومعهم جموع من بني بكر وبني الحارث والأحابيش، فقاتلهم خالد بن الوليد فانهزموا[3]، فجعل نساؤهم يلطمن وجوه الخيل، وقد نشرن شعورهن، فتبسم رسول الله وقال: (يا أبا بكر كيف قال حسان) فأنشده[4]:**

**عَدِمْنا خيلنا إن لم تَروها تثير النقعَ موعدها كداء**

**يُنازعن الأعِنَّة مصْغِياتٍ على أكتافها الأسَلُ الظِّمَاءُ**

---

(1) أذاخر: الثنية التي تشرف على حائط خرمان، ومن هذه الثنية دخل النبي يوم فتح مكة. وحائط خرمان يعرف اليوم بـ«الخرمانية» بصدر مكة، معجم معالم الحجاز ج١ ص٧٨-٧٩.

(2) الخندمة: هي جبال مكة الشرقية التي تبدأ من أبي قبيس متجهة شرقاً إلى المفجر، الذي يفصل بين جبال منى وجبال مكة، وشمالها يشرف على الأبطح والحجون. معجم معالم الحجاز ج٤ ص١٥٥-١٥٦.

(3) البداية والنهاية ج٤ ص٢٩٣ .

(4) كان مع عكرمة بن أبي جهل حماس بن قيس، وقد وعد هذا امرأته أن يهزم المسلمين، ويهديها خادماً من أصحاب محمد، فلما رجع إليها منهزماً، وطلب منها إغلاق الباب عليه، قالت مستهزئة به: أين الخادم؟ فقال:

إنك لو شهدت يوم الخندمة إذ فر صفوان وفر عكرمة

وأبو يزيد قائم كالموتمة واستقبلتهم بالسيوف المسلمة

يقطعن كل ساعد وجمجمة ضرباً فلا تسمع إلا غمغمة

لهم نهيت خلفنا وهمهمة لم تنطقي في اللوم أدنى كلمة

تظــلُّ جِيــادنا مُتَمطِّراتٍ يلطِّمُهــنَّ بالخُمــرِ النِّسَــاء

ولما دخل رسول الله مكة وقف على باب الكعبة، وقال: (لا إلَه إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل دم أو مأثرة أو مال يدعى فهو تحت قدمي، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج)، ثم قال: (يا معشر قريش ما ترون إني فاعل بكم؟) قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم. قال: (اذهبوا فأنتم الطلقاء)[1]، فعفا عنهم وطاف بالكعبة سبعة أشواط، وصلى فيها، ورأى فيها صور الأنبياء فأمر بها فمحيت . وكان على الكعبة ثلاث مئة وستون صنماً، وكان بيده قضيب فكان يشير به إلى الأصنام، وهو يقرأ: ﴿وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[الإسراء:٨١]، فلا يشير إلى صنم منها إلا سقط لوجهه، ثم جلس عليه الصلاة والسلام للبيعة على الصفا، وعمر بن الخطاب تحته، واجتمع الناس لبيعته على الإسلام؛ فكان يبايعهم على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا، فكانت هذه بيعة الرجال.

ولما فرغ من مبايعة الرجال بايع النساء[2]، وقال لهن: (تبايعن

---

(1) سيرة ابن هشام ج٤ ص٧٧-٧٨ .

(2) كان ممن بايعن من نساء قريش أم هانئ بنت أبي طالب وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان، وكانت متنكرة لفعلها بحمزة يوم أحد، ومنهن أيضاً أم حكيم بنت الحارث بن هشام زوجة

**على ألا تشركن بالله شيئًا) . فقالت هند بنت عتبة: إنك والله لتأخذ علينا ما لا تأخذه على الرجال فسنؤتيكم، قال: (ولا تسرقن) قالت: والله إن كنت لأصبت من مال أبي سفيان الهنة والهنة، فقال أبو سفيان وكان حاضراً: أما ما مضى فأنت منه في حل، فقال رسول الله : (أهند؟) قالت: أنا هند فاعف عما سلف عفا الله عنك، قال: (ولا تزنين) قالت: وهل تزني الحرة؟ قال: (ولا تقتلن أولادكن) قالت: قد ربيناهم صغاراً وقتلتهم يوم بدر كباراً، فأنت وهم أعلم، فضحك عمر. قال: (ولا تأتين ببهتان يفترينه بين أيديكن وأرجلكن) قالت: والله إن إتيان البهتان لقبيح وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق، قال: (ولا تعصين في معروف) قالت: ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك في معروف، فقال رسول الله لعمر: (بايعهن)، واستغفر لهن رسول الله فبايعهن عمر، وكان رسول الله لا يمس النساء ولا يصافح امرأة، ولا تمسه امرأة إلا امرأة أحلها الله أو ذات محرم منه[1].**

**ولما حان وقت صلاة الظهر أمر رسول الله بلال بن أبي رباح**

---

عكرمة بن أبي جهل، وأم حبيبة بنت العاص بن أمية، وأروى بنت أبي العيص، وفاختة بنت الوليد ابن المغيرة زوجة صفوان بن أمية .

([1]) البداية والنهاية ج٤ ص٣١٧-٣١٨ .

أن يؤذن على ظهر الكعبة، وقريش تسمعه فوق الجبال، فمنهم من كان يتأهب لطلب الأمان، ومنهم من قد أَمِنَ، فلما قال بلال: »أشهد أن محمداً رسول الله« ورددت صداها الجبال امتعضت نفوس من كان في قلبه بقية من عهد الجاهلية، فقيل إن ابنة أبي جهل قالت: لقد رفع الله ذكر محمد، وأما نحن فسنصلي ولكنا لا نحب من قتل الأحبة. وقال آخرون نحواً من ذلك، ولكن الإسلام وقر في نفوسهم فأسلموا وحسن إسلامهم، فرضي الله عنهم أجمعين.

قلت: هذه هي قصة دخول مكة بإيجاز كانت ملحمة من ملاحم الإيمان، لم تكن ثأراً من شخص كان معانداً للرسالة، ولا تشفياً من شخص كان معادياً للنبوة، ولا انتقاماً من شخص كان يؤذي رسول الله بكل أساليب الأذى، وإنما كانت هداية للبشرية ودعوة إلى الله؛ فهذا عكرمة بن أبي جهل كان من أشد أعداء رسول الله كما كان أبوه يفعل، فلما دخل رسول الله مكة خشي على نفسه فهرب إلى جهة اليمن. فأسلمت امرأته ثم أدركته وهو يهم بركوب البحر، فقالت: جئتك من عند أوصل الناس، وأحلمهم، وأكرمهم، وقد أمنك فارجع . فلما قدم على رسول الله سر به، فأسلم وسأل رسول الله أن يستغفر له عما مضى منه؛ فاستغفر له.

وهذا صفوان بن أمية بن خلف كان من أشد الناس عداوة لرسول

**الله، ولما فتحت مكة هرب إلى جده، فجاء عمير الجمحي إلى رسول الله وقال: يا نبي الله إن صفوان سيد قومي، وقد خرج خائفاً منك فأمنه، فقال عليه الصلاة والسلام: (هو آمن)، وأعطاه عمامته التي دخل بها مكة، ليعرف بها أمانه، فخرج بها عمير فأدركه في الطريق وأبلغه بأمانه وقال عمير: إن رسول الله أحلم الناس، وأبرهم وإنه ابن عمك، فقال صفوان: إني أخافه على نفسي، فقال عمير: إنه أحلم من ذلك، فرجع صفوان وقال لرسول الله: اجعلني بالخيار شهرين، قال: (أنت فيه أربعة أشهر)، فأقام معه كافراً وشهد معه معركة حنين والطائف ثم أسلم وحسن إسلامه. وهذه هند بنت عتبة كانت معادية ومؤذية لرسول الله في مكة، ومثلت بحمزة بن عبد المطلب يوم أحد شر تمثيل، فجاءت إليه مع النساء متنكرة -كما ذكر آنفاً- فأسلمت وكسرت الأصنام التي كانت عندها، وقالت: «يا رسول الله لقد كنا منك في غرور، فالحمد لله الذي هدانا للإسلام».**

**معركة حنين**

**وتسمى هذه معركة حنين وأوطاس[1]، كما تسمى معركة هوازن؛ ذلك أن هذه لما علمت بفتح رسول الله مكة، وما مَنَّ الله**

---

([1]) أوطاس: واد في ديار هوازن، وفيه كانت وقعة حنين بين رسول الله وجمع من هوازن وثقيف، وهو ما يعرف اليوم بـ«عقيق عشيرة»، معجم معالم الحجاز ج١ ص١٥٢-١٥٤.

**به عليه من النصر المبين، خشيت أن تكون الدائرة عليها، فقالت نبادره بالغزو قبل أن يغزونا، فجمعها لذلك مالك بن عوف من بني نصر من بكر، واجتمع معه وقومه أناس من ثقيف، وكان مع القوم دريد بن الصمة المعروف برأيه في الحرب.**

**فلما عزم مالك بن عوف على المسير إلى رسول الله ، جعل مع قومه أموالهم ونساءهم، فلما نزلوا بأوطاس جمع الناس ليهيئهم للحرب، فقال دريد -وكان يتصور هزيمة هوازن- ما لي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، ويعار الشاء، وبكاء الصغير؟ فقالوا له: ساق مالك مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم، فقال دريد: يا مالك إن هذا يوم له ما بعده ما حملك على ما صنعت؟ فقال مالك: فعلت ذلك ليقاتل كل إنسان عن حريمه وماله، فقال دريد: وهل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل برمحه وسيفه، وإن كانت عليك فُضِحْتَ في أهلك ومالك، ثم قال دريد: ما فعلت كلاب وكعب؟ قالوا لم يشهدها أحد منهم، قال: غاب الجد والحد[1] لو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب ولا كلاب، ولوددت أنكم فعلتم ما فعلا فمن شهدها منكم؟ قالوا: عمرو بن عامر وعوف بن عامر. قال: ذانك الجذعان[2] من عامر لا ينفعان ولا يضران.**

---

([1]) الجد: الحظر. والحد: منتهى الأمر.

([2]) الجذعان: مفردها جذع وهو: صغير البهائم يريد أنّهما ضعيفان في الحرب بمنزلة الجذع في سِنِّه.

**ثم خاطب مالكاً، وقال: يا مالك إنك لم تصنع بتقديم البيضة بيضة[١] هوازن إلى نحور الخيل شيئاً، ارفعهم إلى متمنع بلادهم وعلياء قومهم ثم ألق الصباء[٢] على متون الخيل فإن كانت لك لحق بك من وراءك، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك. فقال مالك بن عوف: والله لا أفعل، إنك قد كبرت وكبر عقلك، والله لتطيعنّني هوازن أو لأتّكئنَّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهري. فقال من معه: أطعناك، فقال دريد كلمته المشهورة: «هذا يوم لم أشهده ولم يفتني»[٣].**

**وبعث مالك رجاله ليأتوه بالخبر، فرجعوا إليه وقد تفرقت أوصالهم[٤]. فقال: ويلكم ما شأنكم؟ فقالوا: رأينا رجالاً بيضاً على خيل بُلقْ[٥] فوالله ما تماسكنا أن حل بنا ما ترى، ورغم ما سمعه لم يثنه ذلك عما يريد من الغزو[٦].**

**ولما بلغ رسول الله أمر هوازن قرر المسير إليهم ومنازلتهم، وبلغه أنه عند صفوان بن أمية أدراعاً وسلاحاً، فأرسل إليه وكان**

---

(١) بيضة هوازن: جماعتهم .

(٢) هو جمع صابئ، وهم المسلمون عندهم، كانوا يسمونهم بهذا، لأنّهم صبؤوا عن دينهم، أي خرجوا.

(٣) البداية والنهاية ج٤ ص٣٢٢.

(٤) الأوصال: المفاصل، أو مجتمع العظام، وجمع وُصْلٍ بالكسر والضم، لكل عظم لا يُكسر ولا يختلط بغيره. القاموس المحيط، للفيروزآبادي ص١٣٨٠.

(٥) البلق: سواد وبياض، المعجم الصافي في اللغة العربية، ص٥٤.

(٦) البداية والنهاية ج٤ ص٣٢٢.

**يومئذٍ مشركاً، وقال: (أعرنا سلاحكم نلق به عدونا غدًا)، فقال صفوان: أغصباً يا محمد؟ فقال عليه الصلاة والسلام: (بل عارية مضمونة، نؤديها إليك)[1]. فقال صفوان: ليس بهذا بأس، فأعطاه مئة درع بما يصلحها من السلاح، وحينئذٍ سار النبي ومعه ألفان من أهل مكة من مسلمة الفتح الذين سموا بالطلقاء، وعشرة آلاف من أصحابه، فلما رأى رسول الله كثرة من معه، قال أحد أصحابه: لن نغلب اليوم من قلة[2].**

**وقال في ذلك جابر بن عبدالله: لما استقبلنا وادي حنين انحدرنا في واد من أودية تهامة ننحدر فيه انحداراً، وفي عماية الصبح كان القوم قد سبقونا إلى الوادي فكمنوا لنا في شعابه وأحنائه ومضايقه وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدوا علينا شدة رجل واحد، فانهزم الناس راجعين لا يلوي أحد منهم على أحد، وانحاز رسول الله ذات اليمين، ثم قال: (إلى أين أيها الناس هلموا إليَّ أنا رسول الله أنا محمد بن عبدالله) قالها ثلاثاً. وبقي معه عليه الصلاة والسلام نفر من المهاجرين، منهم أبو بكر وعمر ومن أهل بيته العباس وعلي**

---

(1) وقد أعادها إليه بعد غزوة حنين شاكراً له صنيعه، سنن ابن ماجة ج٢ ص٨٠٩.

(2) وردت روايات كلها ضعيفة في تحديد قائل ذلك، انظر: المغازي، للواقدي ج٣ ص٨٩٠. وسيرة ابن هشام ج٤ ص١٢٤.

**وأبو سفيان بن الحارث وابنه والفضل بن العباس وربيعة بن الحارث وأسامة بن زيد وأيمن بن أم أيمن[١].**

**ولما انهزم الناس أظهر أناس من أهل مكة ما في نفوسهم من الضغينة، فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وكانت الأزلام معه في كنانته، وصاح كلدة بن الحنبلي: الآن بطل السحر. فقال صفوان بن أمية (وهو أخوه لأمه وكان يومئذٍ مشركاً): اسكت فض الله فاك، فوالله لأن يربّني رجل من قريش أحب إليَّ أن يربني[٢] رجل من هوازن. وقال شيبة بن عثمان الجمحي: اليوم أدرك ثأري من محمد، وكان أبوه قتل يوم أحد[٣].**

---

(١) سيرة ابن هشام ج٤ ص١٢٢.

(٢) يربني أي أن يكون ربّاً لي أي ملكاً عليَّ وسيداً.

(٣) قال شيبة: لما دخل رسول الله مكة عنوة، قلت في نفسي: أسير مع قريش إلى هوازن، لعلي أصيب من محمد غرة فأثأر منه، فأكون أنا الذي قمت بثأر قريش، وأقول في نفسي كذلك لو لم يبق من العرب = =والعجم أحد إلا اتبع محمداً ما اتبعته، فلما اختلط الناس اقتحم رسول الله عن بغلته، فأصلت سيفي، ودنوت أريد منه ما أريد، ورفعت سيفي حتى كدت أشعره إياه، فرفع لي شواظ من نار كالبرق كاد يقتلني فوضعت يدي على بصري خوفاً عليه فالتفت إلي رسول الله فناداني: (يا شيب ادن مني) فدنوت منه فمسح صدري، ثم قال: (اللهم أعذه من الشيطان). وقال شيبة: فوالله لهو كان ساعتئذٍ أحب إليَّ من سمعي وبصري ونفسي، وأذهب الله ما كان في نفسي، ثم قال: (ادن) فقاتل فتقدمت أمامه أضرب بسيفي، والله أعلم أني أحب أن أقيه بنفسي كل شيء، ولو لقيت تلك الساعة أبي لو كان حيًّا لأوقعت به السيف، فجعلت ألزمه فيمن لزمه، حتى تراجع المسلمون فكروا كرة رجل واحد، وقربت بغلة رسول الله فاستوى عليها، وخرج في أثرهم حتى تفرقوا ورجع إلى معسكره، فدخل خباءه فدخلت عليه ما دخل عليه أحد غيري حباً لرؤية وجهه وسروراً به، فقال لي: (يا شيبة الذي أراد الله بك خيراً مما أردت به لنفسك)، ثم حدثني بكل ما أضمرت في نفسي، فلم أكن أذكره لأحد قط، فقلت: فإني أشهد أن لا إلَه إلا الله وأنك رسول الله. ثم

**وكان العباس مع رسول الله آخذ بزمام بغلته وهو عليها، فقال له رسول الله: (يا عباس اصرخ يا معشر الأنصار يا أصحاب السمرة) ففعل فأجابوه: لبيك لبيك، فاجتمع على رسول الله مئة رجل فاستقبل لهم القوم فقاتلهم، فلما رأى عليه الصلاة والسلام شدة القتال، قال: (الآن حمى الوطيس)[1]، فاقتتل الناس قتالاً شديداً، وقال رسول الله لبغلته: (دلدل البدي دلدل)، فوضعت بطنها على الأرض فأخذ حفنة من التراب، فرمى بها في وجوههم، فكانت الهزيمة عليهم وقتل في تلك المعركة دريد بن الصمة، وظفر المسلمون بالغنائم وأسر من هوازن ومن معها رجال كثيرون، وكان من بين السبايا الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى، فقالت لهم: والله إني أخت صاحبكم من الرضاعة، فلم يصدقوها حتى أتوا بها النبي ، فقالت له: إني أختك. قال: (وما علامة ذلك). قالت: عضة عَضضْتَنِيهَا في ظهري وأنا متوركتك[2] فعرفها وبسط لها رداءه وأجلسها عليه وخيرها، فقال: (إن أحببت فعندي مُحَبَّةْ مُكْرَمَةً، وإن أحببت أن أمّتِّعك وترجعي إلى قومك فعلتُ؟). فقالت:**

---

قلت استغفر لي، فقال: (غفر الله لك). انظر: البداية والنهاية ج٤ ص٣٣١-٣٣٢. تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٣٠-٣٣١. كنز العمال، لحسام الدين البرهان فوري ج١ ص٥٤٥.

(1) الوطيس: في أصل اللغة التنور، وأرادها هنا موضع القتال.

(2) قولها: وأنا متوركتك: معناه جعلتك أن تتورك عليّ.

بل تمتعني وتردني إلى قومي ففعل[1].

وفي هذه المعركة حكم عظيمة منها: أن الله جل وعلا هو الناصر لدينه ورسوله، وأن كثرة العدد والعدة لا تغني شيئاً إذا لم يمنح الله النصر ويمن به على عباده، وأن عليهم ألا يعجبوا بقوتهم مهما كانت، وهذا هو مصداق قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ* ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ﴾[التوبة: ٢٥-٢٦].

ومن هذه الحكم أن هذه المعركة كانت المعركة التي انهزمت فيها قبائل العرب بعد معركة بدر، وبهاتين المعركتين طفئت جمرة العرب لغزو رسول الله والمسلمين، فالأولى خوَّفتهم وكسرت من حدهم، والثانية -حنين- استفرغت قواهم، واستنفدت سهامهم، وأذلت جمعهم حتى لم يجدوا بدًّا من الدخول في دين الله[2]. ومن هذه الحكم ما يجب على الإمام أو القائد أن يكون حذراً في جهاده، فإذا سمع عمن يضمر له شرًّا وجب عليه بث العيون

---

(1) سيرة ابن هشام ج٤ ص١٤٤-١٤٥.

(2) زاد المعاد في هدي خير العباد، للإمام ابن القيم ج٢ ص١٩٠.

والحراس ليعرف خبر أعدائه، وأن عليه أن يباغتهم ولا ينتظرهم حتى يباغتوه فيظفروا به، ومن هذه الحكم جواز الاستعانة بسلاح من هم على غير دينه لقتال أعدائه، كما فعل ذلك رسول الله مع صفوان بن أمية كما ذكر.

**خصائص النبي محمد ﷺ**

لقد جعل الله لنبيه ورسوله محمد عليه الصلاة والسلام خصائص وفضائل عديدة، اختصه بها تكريماً له، وامتناناً عليه، وعلى أمته. ومن هذه الخصائص أنه خاتم الأنبياء والمرسلين، وأن رسالته عامة للثقلين الجن والإنس، وأنه صاحب الشفاعة الكبرى، وأنه قد أعطي من الفضائل والمزايا ما لم يعطه نبي قبله.

**ختم النبوة:**

ليس هناك نبي ولا رسول بعد محمد عليه الصلاة والسلام إلى أن تقوم الساعة، والأصل في هذا الكتاب والسنة. أما الكتاب فقول الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠]

ففي هذه الآية حكم قاطع أنه ليس بعده نبي، كما أنه ليس بعده رسول من باب أولى، لأن الرسالة أخص من النبوة، فإن كل

**رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً. وأما السنة فقوله عليه الصلاة والسلام: (إنَّ مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاْ فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلاَ وِضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللَّبنة؛ وأنا خاتم النبيين)[1]. وقوله عليه الصلاة والسلام: (لم يبق من النبوة إلا المبشرات)، قالوا: وما المبشرات؟ قال: (الرؤيا الصالحة). وفي رواية: (لا نبوة بعدي إلا المبشرات) قيل: وما المبشرات يا رسول الله؟ قال: (الرؤيا الصالحة)[2]. وقوله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم: (إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله تعالى بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي)[3].**

**فدل هذا حكماً على أنه لا نبي ولا رسول بعده، وأن كل من ادعى ذلك أو يدعيه يعد كاذباً ومفترياً على الله، وفي هذا قال الإمام ابن**

---

(1) متفق عليه، وأخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب خاتم النبيين برقم (٣٥٣٤، ٣٥٣٥)، فتح الباري ج٦ ص٦٤٥، وأخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب ذكر كونه خاتم النبيين، برقم (٢٢٨٦)، صحيح مسلم مع شرحه إكمال إكمال المعلم ج٨ ص٢٠-٢٣، وأخرجه الترمذي في كتاب الأمثال، باب ما جاء في مثل النبي والأنبياء قبله برقم (٢٨٦٢) ، سنن الترمذي ج٥ ص١٣٨.

(2) أخرجه البخاري في كتاب التعبير، باب المبشرات، برقم (٦٩٩٠)، فتح الباري ج١٢ ص٣٩١-٣٩٢، والرواية الثانية لأبي يعلى من حديث أنس رفعه، كما قال الحافظ ابن حجر.

(3) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب في أسمائه ، رقم الحديث (٢٣٥٤)، صحيح مسلم مع شرحه إكمال إكمال المعلم ج٨ ص٩٢-٩٤.

كثير رحمه الله: «فمن رحمة الله تعالى بالعباد إرسال محمد إليهم، ثم من تشريفه لهم ختم الأنبياء والمرسلين به، وإكمال الدين الحنيف له، وقد أخبر الله تعالى في كتابه ورسوله في السنة المتواترة عنه أنه لا نبي بعده، ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك دجال ضال مضل، ولو تخرق وشعبذ وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنيرنجيات، فكلها محال وضلال عند أولي الألباب، كما أجرى الله سبحانه وتعالى على يد الأسود العنسي باليمن ومسيلمة الكذاب باليمامة من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة ما علم كل ذي لب وفهم وحجى أنهما كاذبان ضالان، لعنهما الله، وكذلك كل مدع لذلك إلى يوم القيامة، حتى يختموا بالمسيح الدجال؛ فكل واحد من هؤلاء الكذابين يخلق الله تعالى معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها، وهذا من تمام لطف الله تعالى بخلقه، فإنهم بضرورة الواقع لا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر إلا على سبيل الاتفاق، أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره، ويكون في غاية الإفك والفجور في أقوالهم وأفعالهم، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِين * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيم﴾[الشعراء:٢٢١-٢٢٢]. وهذا بخلاف حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإنهم في غاية البر والصدق والرشد والاستقامة

**والعدل فيما يقولونه ويفعلونه ويأمرون به وينهون عنه، مع ما يؤيدون به من الخوارق للعادات والأدلة الواضحات والبراهين الباهرات، فصلوات الله وسلامه عليهم دائماً مستمراً ما دامت الأرض والسموات»[1].**

**وقال الإمام ابن أبي العز: «لما ثبت أنه خاتم النبيين علم أن من ادعى بعده النبوة فهو كاذب. ولا يقال: فلو جاء المدعي للنبوة بالمعجزات الخارقة والبراهين الصادقة، كيف يقال بتكذيبه؟ لأنا نقول: هذا لا يتصور أن يوجد، وهو من باب فرض المحال، لأن الله تعالى لما أخبر أنه خاتم النبيين؛ فمن المحال أن يأتي مدع يدعي النبوة، ولا تظهر إمارة كذبه في دعواه»[2].**

**عموم رسالته:**

**ومن خصائص رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام أن رسالته عامة للثقلين الإنس والجن، أرسله الله يبشرهم إذا آمنوا وصدقوا واتبعوا ما أمر الله به، واجتنبوا ما نهى عنه، ولينذرهم إذا عصوا، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا * وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً**

---

([1]) تفسير القرآن العظيم، للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير، ج٥ ص٤٧٢-٤٧٣.

([2]) شرح العقيدة الطحاوية، للإمام القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي، ص١٦٧.

كَبِيرًا﴾[الأحزاب:٤٥-٤٧] . والأصل في عموم رسالته قول الله عز وجل:﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]. وهذا أمر لنبيه ورسوله أن يبلغ جميع الناس أنه رسول إليهم على مختلف ألوانهم ولغاتهم وأماكنهم وأزمانهم. وقوله -عز وجل-:﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ:٢٨]، وقوله جل ثناؤه:﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾[الجن:١-٢]. وهذا أيضاً أمر لنبيه أن يبلغ أن الجن قد استمعوا القرآن وآمنوا به.

وأما السنة فالأحاديث المتواترة كثيرة، منها ما روي عن جابر بن عبدالله الأنصاري -رضي الله عنهما- مرفوعاً أن رسول الله قال: (أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي: كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود، وأحلَت لي الغنائم، ولم تحلَّ لأحد قبلي. وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً؛ فأيِما رجل أدركته الصلاة صلَى حيثٍ كان. ونصرت بالرعب مسيرة شهر. وأعطيتٍ الشفاعة)[1]. ومنها ما رواه أبو هريرةرضي الله عنه أن

(1) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المساجد ومواضع الصلاة برقم (٥٢١)، صحيح مسلم مع شرحه إكمال إكمال المعلم ج٢ ص٤١١-٤١٢.

**رسول الله قال: (والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلتٍ به إلا كان من أصحاب النار)[1].**

**ومن هذه الأحاديث ما رواه أبو الدرداء أنه كانت بين أبي بكر وعمر عنهما محاورة، فأغضب أبو بكر عمر فانصرف عنه عمر مغضباً، فاتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله فقال أبو الدرداء ونحن عنده، فقال رسول الله : (أما صاحبكم هذا فقد غامر) أي غاضب وحاقد، قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلم، وجلس إلى النبيﷺ ، وقص على رسول الله الخبر. قال أبو الدرداء فغضب رسول الله وجعل أبو بكر يقول: يا رسول الله لأنا كنت أظلم، فقال رسول الله : (هل أنتم تاركو لي صاحبي؟ هل أنتم تاركو لي صاحبي؟ إني قلت: يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت)[2].**

**ومن هذه الأحاديث أن رسول الله قال: (سيكون في أمتي ثلاثون كذابون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي**

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ونسخ الملل بملته، رقم الحديث (١٥٣) ، صحيح مسلم مع شرحه إكمال إكمال المعلم ج١ ص٤٤٠-٤٤٢.

(2) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، تفسير سورة الأعراف، باب (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض) رقم الحديث (٤٦٤٠) ، فتح الباري ج٨ ص١٥٣-١٥٤.

**بعدي)[1].**

**فبهذه الأحكام من الكتاب والسنة أصبح من المعلوم من الدين بالضرورة أن رسالة رسول الله رسالة عامة، وأن الله أراد أن تكون هذه الرسالة في عمومها خاتمة الرسالات، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وأن من قال بغير ذلك أو ادعى وجود نبي أو رسول بعده يعد كافراً.**

**الشفاعة الكبرى:**

**لقد منح الله نبيه ورسوله محمداً العديد من الفضائل الكثيرة والمنح الجليلة، فهو أول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع ومشفع، وله الشفاعة العظمى، وهي المقام المحمود الذي وعده به ربه، وهذه الشفاعة حق يؤمن بها صحابة رسول الله وتابعوهم ومن تبعهم، كما يؤمن بها أهل السنة والجماعة، ولم ينكرها إلا الخوارج والمعتزلة الذين يقولون بأن العصاة من الموحدين يخلدون في النار.**

**والأصل في ثبوت الشفاعة لرسول الله قول الله جل ثناؤه: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾**

---

([1]) أخرجه الترمذي في كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يخرج كذابون، برقم (٢٢١٨، ٢٢١٩)، سنن الترمذي ج٤ ص٤٣٢.

**[الإسراء:٧٩]. وهذا أمر من الله لنبيه أن يتهجد بعد الصلاة المكتوبة من الليل، لكي يقيمه ذلك المقام المحمود يوم القيامة، فيشفع في الناس ليزول عنهم ما يعانونه في ذلك اليوم من الكرب والشدة، وقد كان رسول الله يفعل ما أمره ربه من التهجد في الليل، كما دلت على ذلك الأحاديث المتواترة، منها ما روته عائشة -رضي الله عنها- أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه(١).**

**وأما السنة فعن ابن عمر -رضي الله عنهما- أن الناس يصيرون يوم القيامة جثاء، كل أمة تتبع نبيها يقولون: يا فلان اشفع، يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى محمد ، فذلك يوم يبعثه الله مقاماً محموداً(٢). وعن جابر عن النبي : (لكل نبي دعوة قد ﷺ دعا بها في أمته، وخبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة)(٣). وعن أبي هريرة رضي الله عنهأن رسول الله قال: (لكل نبي دعوة**

---

(١) الحديث متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب التفسير باب قوله تعالى: ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك برقم (٤٨٣٧) ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب إكثار الإعمال والاجتهاد في العبادة برقم (٢٨٢٠). انظر: رياض الصالحين، للإمام النووي، باب فضل قيام الليل ص٣٥٧، تحقيق: د. جميل غازي.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب (عسى أن يبعثك ربّك مقاماً محموداً)، رقم الحديث (٤٧١٨)، فتح الباري ج٨ ص٢٥١.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب اختباء النبي دعوة الشفاعة لأمته برقم (٣٣٤، ٣٣٥، ٣٤٥)، صحيح مسلم مع شرحه إكمال إكمال المعلم ج١ ص٦١٣.

**مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً)[1].**

**وعن عبدالله بن عمرو بن العاص أن النبيﷺ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيم﴾[إبراهيم:٣٦] ، وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيم﴾[المائدة:١١٨]**

**، فرفع يده، وقال: (اللهم أمتي) وبكى، فقال الله -عز وجل-: [يا جبريل اذهب إلى محمد -وربك أعلم- فسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله بما قال وهو أعلم، فقال الله تعالى: يا جبريل اذهب إلى محمد، فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك][2]. وفي حديث الشفاعة الكبرى الذي روي من عدة طرق متقاربة، روى مسلم في صحيحه ما حدث به أبو عوانة عن قتادة عن أنس بن مالكرضي الله عنهقال: قال رسول اللهﷺ : «يجمع الله**

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب اختباء النبي دعوة الشفاعة لأمته برقم (٣٣٨)، صحيح مسلم مع شرحه إكمال إكمال المعلم ج١ ص٦١٤.

(2) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب دعاء النبي لأمته وبكائه شفقة عليهم، برقم (٣٤٦)، صحيح مسلم مع شرحه إكمال إكمال المعلم ج١ ص٦١٥.

**الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك» وقال ابن عبيد: «فيلهمون لذلك» فيقولون: لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا ! قال: فيأتون آدم -عليه السلام- فيقولون: أنت آدم أبو الخلق. خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه. وأمر الملائكة فسجدوا لك. اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا. فيقول: لست هُنَاكُمْ[1]. فيذكر خطيئته التي أصاب. فيستحيي ربه منها. ولكن ائتوا نوحاً أوّل رسول بعثه الله. قال: فيأتون نوحاً -عليه السلام- فيقول: لست هناكم. فيذكر خطيئته التي أصاب فيستحيي ربه منها. ولكن ائتوا إبراهيم -عليه السلام- الذي اتخذه الله خليلاً. فيأتون إبراهيم -عليه السلام- فيقول: لستُ هُنَاكُمْ. ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحيي ربه منها. ولكن ائتوا موسى -عليه السلام-. الذي كلمه الله وأعطاه التوراة. قال: فيأتون موسى -عليه السلام-. فيقول: لست هناكم. ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحيي ربه منها. ولكن ائتوا عيسى روح الله وكلمته. فيأتون عيسى روح الله وكلمته. فيقول: لست هُنَاكُمْ. ولكن ائتوا محمداً . عبداً غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال: قال رسول الله : (فيأتوني. فأستاذن على ربي فيؤذن لي. فإذا أنا رأيته وقعت ساجداً. فيَدَعُني ما شاء الله. فيقال:**

---

([1]) معنى «لست هُنَاكمُ»: لستُ في المكان والمنزل الذي تحسبونني فيه يريد الشفاعة. انظر: مكمل إكمال إكمال المعلم شرح صحيح مسلم، للسنوسي ج١ ص٥٩٠-٥٩١.

**يا محمدُ! ارفع رأسك. قل تُسمع. سَل تُعْطَهْ. اشفع تُشَفَّع. فأرفع رأسي. فأحمد ربي بتحميد يعَلّمُنِيه ربي. ثم أشفع. فيحدُّ لي حدًّا[1] فأُخرِجهم من النار، وأُدخلُهم الجنة. ثم أعود فأقع ساجداً. فيَدَعُني ما شاء الله أن يدَعَني ثم يقال: ارفع رأسك يا محمد ! قل تُسمع. سَل تعطه. اشفع تشفّع. فأرفع رأسي. فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه. ثم أشفع. فيحدّ لي حدًّا فأُخرجهم من النار. وأدخلُهم الجنة. (قال: فلا أدري في الثالثة أو الرابعة قال) يا رب ! ما بقي في النّار إلا من حبسه القرآن أي وجب عليه الخلود» (قال ابن عبيد في روايته: قال قتادة: أي وجب عليه الخلود)[2].**

**هذه هي شفاعة رسول الله للناس، وهذه الشفاعة لا تكون إلا بإذن الله، فليس لملك أو نبي أو غيره أن يشفع إلا بعد أن يأذن الله له بالشفاعة، لأن الأمر كله له، فهو الحاكم والمدبر والعالم بأحوال عباده. وقد دلت آيات عديدة من القرآن الكريم على اختصاصه المطلق بالإذن للشافع والمشفوع فيه ووقت الشفاعة، ومن هذه**

---

(1) قال محمد السنوسي الحسني في مكمل إكمال إكمال المعلم ج١ ص٥٩٥: «فيحد لي حدًّا: قلت يريد أنّه يبيّن في كل طور من أطوار الشفاعة حدًّا أقف عنده فلا أتعداه، مثل أن يقول شفعتك فيمن أخل بالجماعات..».

(2) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، برقم (٣٢٢)، صحيح مسلم مع شرحه إكمال إكمال المعلم للإمام الوشتاني الأبي وشرحه مكمل إكمال الإكمال للإمام محمد السنوسي، ج١ ص٥٨٨-٥٩٦.

الآيات قوله جل ثناؤه:﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾[البقرة:٢٥٥]. وقوله تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس:٣]. وقوله: ﴿لاَ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾[مريم:٨٧]. وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾[طه:١٠٩]. وقوله: ﴿* وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى﴾[النجم:٢٦].

## ثبوت الخلة له ووجوب الأدب معه:

لرسول الله خصائص عديدة منها ثبوت الخلة له، وهذه عالية المرتبة من المحبة، فقد أخرج مسلم في صحيحه أنه عليه الصلاة والسلام قال: (لو كنت متخذاْ من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله)[1]. وفي رواية: (لو كنتٍ متخذاً خليلاً لاتَّخذتٍ أبا بكر خليلاً. ولكنَه أخي وصاحبي، وقد اتخذ الله عز وجل، صاحبكم خليلاْ)[2].

ومن هذه الخصائص وجوب الأدب معه، فهو قد جبل على الأخلاق الحميدة والصفات العلية، وقد وصفه الله عز وجل بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيم﴾[القلم:٤]. أي أدب عظيم. ولما سئلت عائشة - رضي الله عنها- عن خلقه عليه الصلاة والسلام قالت: »كان خلقه القرآن»[3].

وفي هذا يقول الإمام ابن كثير: «ومعنى هذا أنه عليه الصلاة والسلام صار امتثال القرآن أمراً ونهياً سجية له وخلقاً، تطبعه

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة -رضي الله عنهم-، باب من فضائل أبي بكر الصديق ، برقم (٢٣٨٣)، صحيح مسلم مع شرحه إكمال إكمال المعلم ج٨ ص١٧٨-١٧٩..

(2) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر ، رقم الحديث (٢٣٨٣)، صحيح مسلم مع شرحه إكمال إكمال المعلم ج٨ ص١٧٨.

(3) أخرجه ابن ماجة في كتاب الأحكام، باب الحكم فيمن كسر شيئاً، برقم (٢٣٣٣)، سنن ابن ماجة ج٢ ص٧٨١-٧٨٢.

**وترك طبعه الجبلي فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم وكل خلق جميل»[1].**

**وهذا الخلق العظيم الذي عليه رسول الله ليس مجرد صفة أو خاصية فيه فحسب، بل هو أداء وتطبيق قوله وفعله ومعاملته ففي هذا قال أنس بن مالك ﷺ : «خدمت رسول الله عشر سنين، فما قال لي أف قط، ولا قال لشيء فعلته لم فعلته؟ ولا بشيء لم أفعله ألا فعلته؟ وكان أحسن الناس خلقاً، ولا مسست خزاً ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله ، ولا شممت مسكاً ولا عطراً كان أطيب من عرق رسول الله »[2].**

**وفي هذا أيضاً قالت عائشة -رضي الله عنها-: «ما ضرب رسول الله بيده خادماً له قط، ولا ضرب امرأة، ولا ضرب بيده شيئاً قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا خيِّر بين شيئين قط، إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثماً، فإذا كان إثماً كان أبعد الناس عن الإثم، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه، إلا أن**

---

(1) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير، ج٧ ص٨١.

(2) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب طيب رائحة النبي ولين حسه والتبرك بمسحه، برقم (٢٣٣٠)، صحيح مسلم مع شرحه إكمال إكمال المعلم ج٨ ص٦٣ ، وأخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في خلق النبي ، برقم (٢٠١٥)، سنن الترمذي ج٤ ص٣٢٣-٣٢٤.

**تنتهك حرمات الله، فيكون هو ينتقم لله عز وجل»[1].**

**هذا هو رسول الله في أخلاقه وصفاته، بعث ليتمم مكارم الأخلاق، كما قال عليه الصلاة والسلام[2]. فوجب حكماً التأدب معه في حياته وبعد مماته. أما في حياته فقد أمر الله أصحابه بالتأدب معه وعدم التقدم بين يديه احتراماً وتكريماً له، فقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيم﴾[الحجرات:١] . أي لا تستعجلوا في أي أمر تتقدمونه به، بل يجب عليكم أن تتبعوه فيما يأمركم به وينهاكم عنه، وهذا من كمال التأدب معه واحترامه وتعظيمه. ثم أكد الله على التأدب معه بعدم رفع الصوت فوق صوته وعدم الجهر له بالقول لما في ذلك من الإثم العظيم، فقال جل ثناؤه: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُون﴾ [الحجرات:٢]. وقد روي أن هذه الآية نزلت في الخليفتين الراشدين أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما-، فقد روى ابن أبي مليكة أن الخيّريْن كادا أن**

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب مباعدته للآثام، واختياره من المباح أسهله، وانتقامه لله عند انتهاك حرماته، برقم (٢٣٢٧، ٢٣٢٨) ، صحيح مسلم مع شرحه إكمال إكمال المعلم ج٨ ص٥٩-٦٢.

(2) أخرجه الإمام مالك في الموطأ، باب ما جاء في حسن الخلق، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لابن عبد البر، ج١٥ ص٣٠-٣١.

**يهلكا: أبا بكر وعمر -رضي الله عنهما-، حين قدم عليه ركب بني تميم فأشار أحدهما بالأقرع بن حابسرضي الله عنه أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر فقال أبو بكر لعمر -رضي الله عنهما-: ما أردت إلا خلافي. قال: ما أردت خلافك. فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية. قال ابن الزبير -رضي الله عنهما-: فما كان عمر رضي الله عنهيسمع رسول الله بعد هذه الآية حتى يستفهمه(١).**

**كما روى أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيسرضي الله عنه، فقال رجل: يا رسول الله أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده في بيته منكساً رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر، كان يرفع صوته فوق صوت النبيﷺ ، فقد حبط عمله، فهو من أهل النار. فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا. فقال موسى: فرجع إليه المرة الأخيرة ببشارة عظيمة، فقال: (اذهب إليه، فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة)(٢).**

**ثم بيّن الله تعالى أن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله، كما**

---

(١) تفسير ابن كثير ج٤ ص٢٠٧-٢٠٨ ، والحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) برقم (٤٨٤٥) ، فتح الباري ج٨ ص٤٥٤.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) الآية. رقم الحديث (٤٨٤٥) ، فتح الباري ج٨ ص٤٥٤-٤٥٥ ، وراجع تفسير الآية في تفسير ابن كثير ج٤ ص٢٠٨-٢٠٩.

**يفعل أبو بكر وعمر وغيرهما من الصحابة، هم الذين شرح الله قلوبهم بالتقوى، وستنالهم بذلك المغفرة والأجر العظيم، جزاء تأدبهم واحترامهم لرسول الله. وفي هذا السياق من الأمر بالتأدب مع رسول الله ﷺ واحترامه وتوقيره، ذم الله من يناديه بكلمات غير لائقة بمقامه كالخشونة والغلظة في القول، فقال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُون *وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيم﴾ [الحجرات:٤-٥]. وسبب نزول هذه الآية أن وفداً من الأعراب منهم الأقرع بن حابس، وقفوا على حجرات النبي، أي بيوت نسائه فنادوه وهو نائم: يا محمد يا محمد أخرج إلينا، فإن مدحنا زين وذمنا شين. فعاب الله عليهم ذلك الجفاء والغلظة في القول، وعدم التأدب مع رسوله، وأنه كان من الخير لهم الانتظار حتى يخرج إليهم ويقابلهم(١).**

**وإذا كان هذا هو الأمر في التأدب والاحترام لرسول الله في حياته، فهو كذلك بعد مماته؛ فاحترامه والتأدب معه أمر لازم لاينفك بموته، لأن رسالته كما كانت قائمة في حياته فهي قائمة بعد مماته، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ومن هذا التأدب**

(١) تفسير القرآن العظيم ج٤ ص٢٠٩-٢١٠ ، وفتح الباري ج٨ ص٤٥٧.

**محبته واتباع ما أمر به واجتناب ما نهى عنه. كما سيأتي إن شاء الله. ومن هذا التأدب الصلاة عليه، فقد أمر الله عز وجل بذلك في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[الأحزاب:٥٦] . وفي هذه الآية بيان وأمر.**

**أما البيان فهو أن الله جل وعلا يصلي على نبيه، وصلاته تعالى: سبوح قدوس سبقت رحمتي غضبي وقيل: صلاة الرب: الرحمة[1]. كما أن ملائكته يصلون عليه وصلاتهم الدعاء له والثناء عليه. أما الأمر فهو إلزام المؤمنين من أهل الأرض بالصلاة والتسليم عليه، فيجتمع له بذلك الحسنيان: صلاة أهل السماء، وصلاة أهل الأرض.**

**وقال الإمام البخاري في تفسير هذه الآية: حدثنا سعيد ابن يحيى بن سعيد أخبرنا أبي عن مسعر عن الحكم عن ابن أبي ليلى عن كعب ابن عجرة قال: قيل يا رسول الله أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة؟ قال: (قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد**

---

([1]) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٣ ص٤٨٦.

**مجيد)[1]. وقد ذكر الإمام ابن كثير ما ذهب إليه الإمام الشافعي وأحمد بأنه يجب على المصلي أن يصلي على رسول الله في التشهد الأخير، فإن تركه لم تصح صلاته[2].**

**وقد وردت في الصلاة على رسول الله ﷺ عدة أحاديث، منها ما رواه عبدالله بن أبي طلحة عن أبيه، أنّ رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والبِشْرُ في وجهه، فقال: (إنه جاءني جبريل، فقال: أما يرضيك يا محمد أنه لا يصلي عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشراً؟ ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمتٍ عليه عشرًا)[3]. ومنها قوله عليه الصلاة والسلام: (من صلى عليَ صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشرًا)[4]. ومنها قوله عليه الصلاة والسلام: (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليَّ فإنه من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشرا، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له**

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب (إن الله وملائكته يصلون على النبي ...) ، رقم الحديث (٤٧٩٧) ، فتح الباري ج٨ ص٣٩٢.

(2) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٨٨.

(3) أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة، باب ثواب الصلاة على النبيﷺ ، ص٣٨.

(4) أخرجه الإمام أحمد في المسند ج٣ ص١٠٢.

**الشفاعة)[1]. ومنها ما رواه عمر بن الخطاب ﷺ قال: خرج رسول الله ﷺ لحاجة فلم يجد أحداً يتبعه ففزع عمر، فأتاه بمطهرة من خلفه فوجد النبي ﷺ ساجداً في مشربة، فتنحى عنه من خلفه حتى رفع النبي ﷺ رأسه، فقال: (أحسنت يا عمر حين وجدتني ساجداً فتنحيت عني، إن جبريل أتاني فقال: من صلى عليك من أمتك واحدة صلى الله عليه عشر صلوات، ورفعه عشر درجات)[2].**

**وهذا يقتضي نفي هذا الثواب العظيم لمن ترك أو بخل بالصلاة على نبي الله، لأن من أعطاه الله أجراً على فعل يفعله فتركه فقد حرم نفسه من هذا الأجر، لأن الجزاء على الفعل لا يكون إلا بإتيانه، وفي هذا روى أبو هريرةرضي الله عنه أن رسول اللهﷺ قال: (ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة يوم القيامة)[3]. كما روى علي بن الحسين عن أبيه أن رسول الله ﷺقال: (البخيل من ذكرت عنده ثم لم يصل**

---

(1) أخرجه النسائي في سننه في كتاب الأذان، باب الصلاة على النبي ﷺ بعد الأذان، ج٢ ص٢٥-٢٦.

(2) أخرجه الإمام أحمد في المسند ج٤ ص٢٩. قال ابن كثير في تفسيره ج٣ ص٤٩٠: «وقد اختار هذا الحديث الحافظ المقدسي في كتابه المستخرج على الصحيحين».

(3) أخرجه الإمام أحمد في المسند ج٢ ص٤٤٦ . قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث: «الترة: النقص» ج١ ص١٨٩.

عليَّ)[1].

ومن التأدب مع رسول الله غض الصوت عند زيارة مسجده وعند السلام عليه، فكما يجب عدم رفع الصوت بين يديه في حياته يجب عدم رفع الصوت عند قبره أو في مسجده، فقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنهسمع صوت رجلين في مسجده عليه الصلاة والسلام وقد ارتفعت أصواتهما، فجاء فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ فقالا: من أهل الطائف. فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً[2].

مقتضى الإيمان بنبوة محمد ﷺورسالتة

من المعلوم باليقين أن الله أرسل نبيه ورسوله محمداً إلى الثقلين، لإبلاغهم بلاغاً مبيناً بما فرضه عليهم أمراً ونهياً ؛ فيبشر من أطاعه، وينذر من عصاه. وبشارة الرسول وإنذاره دعوة صادقة لصالح المبشَّرين والمنذَرين، قال -تعالى-: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا﴾[الأحزاب:٤٧]. وقال -تعالى-:﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ

(1) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، باب قول رسول اللهﷺ : (رغم أنف رجل) ، برقم (٣٥٤٦)، سنن الترمذي ج٥ ص٥١٥. وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة، باب من البخيل؟ برقم (٥٥، ٥٦، ٥٧)، ص٣٦-٣٧.

(2) تفسير ابن كثير ج٤ ص٢٠٩.

قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾[إبراهيم:٤٤].

والبشارة والإنذار بكل ما فيهما من المعاني دليل قاطع على محبة الله لخلقه؛ فهو بأمره ونهيه لهم يريد أن يكونوا على ما يحبه لهم من الهدى، وما يكرهه لهم من الضلال، لهذا أمرهم أن يدعوه أن يهديهم الطريق القويم، وأن يجنبهم طريق الضلال، وذلك في قوله -عز وجل-: ﴿اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيم * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ﴾[الفاتحة:٦-٧].

فقد قطع على نفسه جل وعلا بالرحمة، وأمر عباده أن يرحموا أنفسهم، قال -تعالى-: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[النساء:٢٩]. وأكد عز وجل في آيات كثيرة من كتابه العزيز أنه: ﴿غَفُورٌ رَّحِيم﴾[الحديد:٢٨]. وأمر رسوله أن يكون رحيماً بأمّته حين دعوته لها فيعفو عن مسيئها، ويستغفر لمذنبها. كما أمره أن يشاورها، وأن يكون لين الجانب معها، قال -تعالى-: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩].

ولهذا وجب على الناس أن يؤمنوا برسول الله محمد ﷺ في بشارته، وإنذاره. والأصل في هذا الوجوب الكتاب والسنة والإجماع. أما الكتاب فقول الله -تعالى-: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ

بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾[النساء:١٣٦]. وقوله -عز وجل-: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ﴾[النساء:١٧٠]. وقوله: ﴿فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُون﴾[الأعراف:١٥٨]. وقوله جل ثناؤه: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[الحديد:٧] .

والإيمان برسول الله واجب وجوباً قاطعاً على كل البشر، فهو سيد ولد آدم، وأول من ينشق عنه القبر، وهو صاحب الشفاعة العظمى، والحوض المورود، وأمته أفضل الأمم، وهو أفضل الرسل، فقد فضّله الله على الأنبياء والمرسلين، حيث أخذ عليهم الميثاق على الإيمان برسالته ونصرتها؛ فوجب على كل واحد منهم أن يتبعه، وفي هذا قال -تعالى-: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِين﴾[آل عمران:٨١].

وفي هذا قال ابن عباس وعلي -رضي الله عنهما-: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً وهو حي

ليؤمنن به ولينصرنه[1]. وقد روى عبدالله بن ثابت أن عمر بن الخطاب ﷺ جاء إلى الرسول ، فقال: يا رسول الله إني مررت بأخ يهودي من يهود قريظة، فكتب لي جوامع من التوراة، ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغير وجه رسول الله قال عبدالله بن ثابت قلت له: ألا ترى ما بوجه رسول الله ؟ فقال عمر: رضيت بالله ربًّا وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً. قال فسري عن النبي وقال: (والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السلام ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم، وأنا حظكم من النبيين)[2].

أمَّا الأصل الثاني في وجوب الإيمان بالرسالة فهو السنة، وفيها قول رسول الله : (والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني ثم لا يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار)[3].

وأما الإجماع فقد أجمع علماء الأمة في سلفها وخلفها: أن الإيمان برسول الله وتصديقه في نبوته ورسالته أساس في عقيدة المسلم، وأن من لم يؤمن بهذه الرسالة في كلياتها وجزئياتها لا

---

(1) تفسير القرآن العظيم: لابن كثير ج١ ص٣٥٧ .

(2) أخرجه الإمام أحمد في المسند ج٣ ص٤٧٠-٤٧١ .

(3) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبيّنا محمد إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته، برقم (٢٤٠)، صحيح مسلم مع شرحه إكمال إكمال المعلم ج١ ص٤٤٠-٤٤٢.

**يعد مسلماً.**

**قلت: والإيمان بنبوة ورسالة رسول الله محمد ﷺ يقتضي حكما: محبته، وطاعته، وتصديق ما جاء به ونصرته ومؤازرته، والإخلاص في اتباعه، والتسليم بأحكامه وقضائه.**

**محبة رسول الله :**

**المحبة كل ما يتكون في النفس من ميل إلى المحبوب وتعلقها به، بحيث تكون هذه المحبة جزءاً لا ينفك عن النفس، فإذا انفك هذا الميل ولو جزئيًّا لم يكن هناك محبة بالمعنى الصحيح، فاقتضى ذلك ملازمة قلب من يحب لمن يحبه ملازمة أبدية؛ فمحبة رسول الله عليه الصلاة والسلام فرض عين على المسلم، ويجب أن تكون ملازمة للنفس في السر والعلن، وفي السراء والضراء، وهذا هو ما بايع الأنصار عليه رسول الله على السمع والطاعة في المنشط والمكره، والنفقة في العسر واليسر؛ فكان هذا غاية المحبة منهم لرسول الله وعزمهم على نصرته بكل ما يملكون من النفس والمال.**

**ومحبته عليه الصلاة والسلام يجب أن تعلو على محبة النفس، والمال، والأهل، والولد، والأصل في ذلك الكتاب والسنة. أما الكتاب فقول الله - عز وجل-: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ**

وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِين﴾[التوبة: ٢٤]. وقوله - عز وجل-: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُون﴾[المجادلة: ٢٢].

والمعنى واضح في الآية الأولى أنه إذا كان العبد يحب أهله وولده وزوجه وعشيرته وأمواله أكثر من حبه لله ولرسوله، فعليه أن ينتظر ما سيحل به من العقاب. والمعنى أيضاً واضح في الآية الثانية بأن المؤمنين الصادقين هم الذين يجعلون محبة الله ورسوله فوق كل محبة، حتى إن منهم من قَتَلَ أباه أو أخاه أو قريبه في سبيل هذه المحبة[١].

وأما السنة، فقد روى زهرة بن معبد عن جده قال: كنا مع رسول الله وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال: والله يا رسول الله

---

(١) قيل: إن هذه الآية نزلت في أبي عبيدة عامر بن الجراح حين قتل أباه يوم معركة بدر، وفي أبي بكر حين هم بقتل ابنه عبدالرحمن، وفي مصعب بن عمير حين قتل أخاه عبيد بن عمير، وفي عمر بن الخطاب حين قتل قريباً له . انظر: تفسير القرآن العظيم، ج٤ ص ٣٢٩ .

**لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال رسول اللهﷺ : (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه). فقال عمر: فأنت الآن والله أحب إليَّ من نفسي، فقال رسول اللهﷺ : (الآن يا عمر)[1]. وروي أنه عليه الصلاة والسلام قال: (والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين)[2]**

**وقد عرف صحابة رسول الله ﷺ معنى الحب له، فآثروه على أنفسهم، وعلى أهلهم، لما عرفوه بأن حبهم له حب لله الذي أمرهم بحب رسوله . والقصص في هذا كثيرة في السراء والضراء، ففي الضراء التي يتجلى فيها معنى الحب: جاءت إلى رسول الله ﷺ أم سعد بن معاذ وسعد آخذ بلجام فرسه، فقال: يا رسول الله أمي، فقال: (مرحباً بها) ووقف لها فلما قربت منه عزاها بابنها عمرو بن معاذ، فقالت: أما إذا رأيتك سالماً فقد اشتويت المصيبة أي استقللتها. ولما كان يسير في المدينة بعد معركة أحد، وما حدث فيها من هزيمة المسلمين، رأته امرأة من بني دينار، وقد أصيب أبوها وزوجها وأخوها، فلما نعوهم لها، قالت: فما فعل رسول الله**

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في المسند، والإمام البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ برقم (٦٦٣٢) ، فتح الباري ج١١ ص٥٣٢ .

(2) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين، وإطلاق عدم الإيمان على من لم يحبه هذه المحبة، برقم (٦٩)، صحيح مسلم مع شرحه إكمال إكمال المعلم، ج١ ص٢٣٨-٢٣٩ .

ﷺ؟ قالوا: خيراً يا أم فلان، وهو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه أنظر إليه، فلما رأته قالت: كل مصيبة بعدك يا رسول الله جلل[1].

**طاعة رسول الله ﷺ في أمره ونهيه:**

الطاعة: القبول والانقياد لأمر الآمر؛ فالولد يطيع أمر والديه وينقاد لهما، والمرؤوس يطيع أمر رئيسه وينقاد له. والمعصية ضد الطاعة فمن لا ينقاد لأمر والديه يعد عاصياً وعاقاً لهما، ويترتب عليه جزاء العقوق، ومن لا يقبل أو ينفذ أمر رئيسه يعد عاصياً له، وهكذا.

وطاعة رسول الله فرض عين على المسلم؛ لأنها من طاعة الله، فمن أطاع رسوله فقد أطاعه، ومن عصاه، فقد عصاه، ويترتب الجزاء من جنس العمل. إذاً فشهادة أن محمداً رسول الله تقتضي حكماً طاعته فيما أمر به، وما نهى عنه.

وقد وردت طاعة رسول الله في آيات كثيرة من كتاب الله الكريم، منها ما هو للدلالة على أن طاعته طاعة لله، ومعصيته معصية لله، وذلك في قوله عز وجل: ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ

(1) جلل: أي صغيرة، وقد تقدمت قصة المرأة.

اللّهَ﴾[النساء:٨٠]. ومنها ما هو للأمر والتكليف، وذلك في قوله -عز وجل-: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِين﴾[آل عمران:٣٢]. وقوله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[النساء:٥٩]. وقوله: ﴿فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ﴾[الأنفال:١].

ومن هذه الآيات ما هو للترغيب، كما في قوله عز وجل:﴿وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾[النساء:١٣]. وقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقًا﴾[النساء:٦٩]. وقوله جل ثناؤه: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُون﴾[النور:٥٢]. وقوله عز من قائل: ﴿وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب:٧١].

ومن هذه الآيات ما هو للتحذير، كما في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُون﴾[الأنفال:٢٠]. وقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[الأنفال:٤٦]. وقوله جل ثناؤه: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾

[النور:٥٤]. وقوله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُم﴾[محمد:٣٣].

وطاعة رسول الله تقتضي حكماً الاستجابة لأمره، عملاً بقول الله عز وجل: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾[الحشر:٧]. فكل ما أمر به عليه الصلاة والسلام مما جاء في سنته عن العبادات والمعاملات لزم قبوله والاستجابة له، فالمسلم يجب أن يصلي كما كان عليه الصلاة والسلام يصلي، عملاً بقوله: (صلوا كما رأيتموني أصلي)[١]. ويزكي ماله وفقاً لما جاءت به السنة في أنواع الزكاة وأنصبتها . والمسلم يصوم ويحج وفقاً لما جاءت به السنة، والمسلم يتعامل وفقاً لكل ما ورد فيها من ضوابط لمعاملاته، وعلاقاته مع الله ومع الناس، فإذا ائتمن وجب عليه أداء الأمانة، عملاً بقول الله عز وجل: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُون﴾[الأنفال:٢٧]. وعملاً بقول رسوله عليه الصلاة والسلام: (أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك)[٢]. وإذا استعار وجب عليه ضمان الإعارة، عملاً

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب الأذان للمسافرين إذا كانوا جماعة والإقامة، برقم (٦٣١)، فتح الباري ج٢ ص١٣١-١٣٢ .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه في كتاب البيوع، باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده رقم الحديث (٣٥٣٥)، وأخرجه الترمذي في كتاب البيوع، باب أد الأمانة إلى من ائتمنك، برقم (١٢٦٤)، ج٣ ص٥٦٤.

بقول رسول الله عليه الصلاة والسلام: (العارية مضمونة)[1]. وإذا قبل بشرط صحيح في بيعه وشرائه وجب عليه الوفاء به، عملاً بقول رسـول الله ﷺ: (المسلمون على شروطهم، إلا شرطاً حرَم حلالاً أو أحلَّ حرامًا)[2]. وهكذا في كل أمر من أمور المسلم يجب عليه الاستجابة لكل ما أمر به رسول الله عليه الصلاة والسلام من قول، أو فعل، أو تقرير، فإن فعل خلاف ذلك فقد خالفه وشاقه. وقد حذر الله من يفعل ذلك بأنه يصاب بالكفر والنفاق أو بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، وذلك في قوله عز وجل: ﴿لاَ تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم ﴾[النور:٦٣].

وطاعة رسول الله تقتضي حكماً الاستجابة لنهيه، عملاً بقول الله تعالى: ﴿وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[الحشر:٧]. فالمسلم يجب أن ينتهي عما نهى عنه رسول الله ﷺ، سواء فيما يتعلق بعبادته ربه، أو علاقته مع غيره، فلا يصلي مثلاً عند طلوع الشمس أو عند غروبها، ولا يزكي من مال حرام، ولا يصوم يوم الشك، ولا يحج

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب البيوع، باب في تضمين العارية برقم (٣٥٦١) ، ج٣ ص٢٩٦ .

(2) أخرجه ابن ماجة في كتاب الأحكام، باب في الصلح برقم (٢٣٥٣) ، وأخرجه الترمذي في كتاب الأحكام، باب ما جاء في الرقبى برقم (١٣٥٢) ، ج٣ ص٦٣٤-٦٣٥ .

**من مال حرام . والمسلم يجب ألا يغش في معاملاته، ولا يغتاب غيره، ولا يبخسه حقه، ولا يبيع على بيعه، ولا يخطب على خطبة أخيه. فكل هذه النواهي حذر منها رسول الله ؛ فإذا لم ينته المسلم عنها فقد عصى الله، لأنه بذلك قد عصى رسول الله، وفي هذا روي عن ابن مسعود أنه قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله عز وجل. فبلغ ذلك امرأة يقال لها أم يعقوب فجاءت إليه فقالت: بلغني أنك كنت قلت كيت وكيت؟ قال: ما لي لا ألعن من لعن رسول الله وفي كتاب الله تعالى. فقالت: إني لأقرأ ما بين لوحيه فما وجدته. فقال: إن كنت قرأتيه وجدتيه، أما قرأت: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾. قالت: بلى، قال: فإن رسول الله نهى عنه، قالت: إني لأظن أهلك يفعلونه، قال: اذهبي فانظري، فذهبت فلم تر من حاجتها شيئاً، فجاءت فقالت: ما رأيت شيئاً، قال: لو كان كذا لم تجامعنا[1].**

**تصديق ما جاء به:**

**الصدق ضد الكذب، وصدق خلاف كذب، ومن صدق فقد أخبر**

---

([1]) أخرجه الإمام أحمد في المسند ج٧ ص١٩٨ والبخاري في كتاب التفسير باب وما أتاكم الرسول فخذوه برقم (٤٨٨٦)، والترمذي في كتاب اللباس، باب ما جاء في مواصلة الشعر، برقم (١٧٥٩)، ج٤ ص٢٠٧. وانظر: تفسير القرآن العظيم ج٤ ص٣٣٧.

**بالواقع[1]، ولا يصدق إلا أمين. ورسول الله أصدق الخلق، ومن أسمائه (الأمين)، ومن صفاته الأمانة. وكان أبو بكر وعلي بن أبي طالب -رضي الله عنهما- أول من أسلموا من الرجال الأحرار، وآمنا برسالته، وخديجة بنت خويلد -رضي الله عنها- أول من صدقته من النساء، وآمنت برسالته [2]. أما تصديق أبي بكر فقد ذكر الإمام البيهقي في دلائل النبوة: أنّ أبا بكر الصديق لقي رسول الله فقال: أحَقٌّ ما تقول قريش يا محمد من تركك آلهتنا وتسفيهك عقولنا وتكفيرك آباءنا؟ فقال رسول الله : (بلى، إنِّي رسول الله ونبيه، بعثني لأبلغ رسالته، وأدعوك إلى الحق، فوالله إنه للحق، أدعوك يا أبا بكر إلى الله وحده لا شريك له، ولا تعبد غيره، والموالاة على طاعته)، وقرأ عليه القرآن فلم يُقرَّ ولم ينكر، فأسلم، وكفر بالأصنام، وخلع الأنداد، وآمن بحق الإسلام، ورجع أبو بكر وهو مؤمن مصدّق [3].**

**ولما أُسري برسول الله تحدث بذلك إلى الناس، فارتد ناس ممن كان صدقوه، وآمنوا به، وسعوا بذلك إلى أبي بكر، فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس؟ قال: أو قال**

---

(1) المصباح المنير، للفيومي ج١ ص٣٣٥. والمعجم الوسيط ج١ ص٥١٠، مادة صدق.

(2) سيرة ابن هشام ج١ ص٢٢٤ ، ومصنف ابن أبي شيبة ج١٤ ص٧٤ .

(3) دلائل النبوة، للبيهقي ج٢ ص١٦٣-١٦٤ .

**ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: أو تصدقه أنه ذهب إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء، أفلا أصدقه في غدوة أو روحة؟ فلذلك سمي أبو بكر بالصديق[1].**

**أما خديجة -رضي الله عنها- فصدقت رسول الله وآمنت بما ذكره عن الوحي الذي ينزل إليه، وقالت: أبشر يا ابن عم واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة.**

**لقد صدَّقوه، وعرفوا يقيناً أن كل ما قاله عن الله وحي أوحي إليه، وبلَّغه إلى خلقه من الجن والإنس بصدق وأمانة، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم:٣-٤]، وفي هذا روى عبدالله بن عمرو قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله أريد حفظه، فنهتني قريش، فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله، وإنه بشر يتكلم في الغضب؛ فأمسكت عن الكتاب وذكرت ذلك لرسول الله ، فقال: (اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا الحق)[2].**

---

(1) رواه الحاكم في مستدركه ج٣ ص٦٣، ٦٧-٧٧ . وصححه ووافقه الذهبي، انظر: السلسلة الصحيحة للألباني ج١ ص٥٥٢، ورواه البيهقي في دلائل النبوة ج٢ ص٣٦٠ .

(2) انظر: تفسير القرآن العظيم ج٤ ص٢٤٨ ، والحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج٦ ص٦٩ وأبو داود عن مسدد في كتاب العلم برقم (٣٦٤٦).

وتصديق رسول الله أساس للإيمان به، والذين صدقوا رسول الله في حياته، ويصدقونه بعد مماته هم المتقون، كما قال عز وجل عنهم: ﴿وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُون * لَهُم مَّا يَشَاءونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِين﴾[الزمر:٣٣-٣٤]. ومن لم يصدق رسول الله فليس أحد أظلم منه؛ لأنه إذا كذبه فقد كذب الله، وفي هذا قال عز وجل: ﴿* فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِين﴾ [الزمر:٢٣].

وقد بين الله كذب الذين لم يصدقوا رسول الله وما جاء به، وأبطل زعمهم بأن القرآن قول شاعر وأنه قول كاهن، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيم *وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُون *وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُون*تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِين﴾[الحاقة:٤٠-٤٣].

وفي هذا قال عمر بن الخطاب : خرجت أتعرض لرسول الله قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقمت خلفه فاستفتح سورة الحاقة، فجعلت أعجب من تأليف القرآن، فقلت: هذا والله شاعر، كما قالت قريش، فقرأ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيم *وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُون﴾[الحاقة:٤٠-٤١] فقلت: هذا والله كاهن

فقرأ: ﴿وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُون * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِين *وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيل *لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِين *ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِين* فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِين﴾ [الحاقة:٤٢-٤٧]، إلى آخر السورة فوقع الإسلام في قلبي كل موقع[1].

وما زال السياق في تأكيد صدق رسول الله وأن ما جاء به حق وصدق، وأن الذي نقل القرآن هو رسول أمين على الوحي وهو جبريل عليه السلام، وله مكانة في السماوات، فلم يزد في القرآن أو ينقص منه، وأن الذي بلَّغَهُ وهو محمد سليم في عقله فليس بضنين أي بمتهم يزيد منه أو ينقص فيه، وليس ببخيل يخفي أو يكتم منه، وأن القرآن ليس قول شيطان استرق السمع فيكذب منه . وهذا هو معنى قول الله -عز وجل-: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيم * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِين*مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِين *وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُون *وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِين*وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِين*وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيم﴾[التكوير:١٩-٢٥].

وقد بين الله في موضع آخر من كتابه الكريم ما سيلقاه من كَذَّبَ

---

([1]) تفسير القرآن العظيم ج٤ ص٤١٧. وانظر قصة إسلام عمر في: مسند الإمام أحمد ج١ ص١٧-١٨ بسند صحيح إلى شريح بن عبيد لكنه مرسل ضعيف لأن شريحاً لم يدرك عمر، ومجمع الزوائد، للهيثمي ج٩ ص٦٢، ومصنف ابن أبي شيبة ج١٤ ص١٠٣، ودلائل النبوة للبيهقي ج٢ ص٢١٩.

**رسوله من العذاب، وكان الوليد بن المغيرة المخزومي ممن توعده الله فقد كان هذا يملك مالاً وولداً ومقاماً كبيراً في قريش، وكان من أشد الطغاة المكذبين لرسول الله الجاحدين لرسالته، وكان يزعم أن القرآن ليس إلا مجرد سحر، وأنه من قول البشر، فتوعده الله على كذبه وعدم تصديقه برسوله فقال جل ثناؤه: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا *وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا*وَبَنِينَ شُهُودًا *وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيد * كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا *سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّر * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّر * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّر *ثُمَّ نَظَر*ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَر * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَر * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَر*إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَر *سَأُصْلِيهِ سَقَر﴾ [المدثر: ١١-٢٦].**

**نصرته ومؤازرته:**

**النصر: الإعانة والمؤازرة، ونصرة رسول الله: إعانته وتقويته على أعدائه. والفاعل ناصر وجمعه أنصار[1]. ولهذا سمي الأنصار في المدينة بهذا الاسم، لنصرتهم رسول الله ، والوقوف معه وتأييده وإيوائه بعد أن حاربه المشركون في بلده مكة.**

---

([1]) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ج٥ ص٦٣، ٦٤مادة نصر، والمصباح المنير ج٢ ص٦٠٧-٦٠٨.

ونصرة رسول الله تقتضي تحقق شرطين: أولهما: مؤازرته في حياته حين كان يدعو إلى توحيد الله، وقد فعل هذا أولئك الذين تركوا أهلهم وهاجروا معه وجاهدوا معه، ودافعوا عنه، ونصروه بأموالهم وأنفسهم، كما فعل أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والأنصار وسائر الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين. وقد مدحهم الله بقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون﴾[الأعراف:١٥٧] . وقوله - عز وجل-: ﴿لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُون﴾[الحشر:٨].

وفي هذا المعنى ذم الله المتثاقلين عن نصرته، والذهاب معه للجهاد في معركة تبوك بعد أن فضلوا مطايب الحياة الدنيا على الآخرة. ثم توعد بالعذاب من ترك الجهاد وباستبدال قومٍ بهم ينصرون نبيه، وفي هذا قال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيل * إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير﴾[التوبة:٣٨-٣٩].

**ثم أكد -عز وجل- أنهم إن لم ينصروا رسوله فإنه سينصره ويؤيده، فهو القادر على ذلك، وقد تولى نصره حين أراد المشركون قتله عام الهجرة، فخرج إلى غار ثور مع صاحبه أبي بكر، فكان هذا يجزع أن يصل أحد من المشركين إلى الغار فيؤذي رسول الله، فكان عليه الصلاة والسلام يسكنه ويطمئنه، ويقول له: (يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما)[1]. وفي هذا قال الله -عز وجل-: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيم﴾[التوبة: ٤٠][2].**

**وثاني الشرطين في نصرة رسول الله نصرته بعد موته، وهذا يقتضي اتباع سنته، وسنة خلفائه الراشدين، ومن تبعهم بإحسان. وذلك فيما رواه العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله يوماً بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها**

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب (ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إنّ الله معنا)، برقم (٤٦٦٣) ، فتح الباري ج٨ ص١٧٦-١٧٧ .

(2) هذه الآيات نزلت في غزوة تبوك، فقد علم رسول الله أن هرقل ملك الروم قد جمع الجموع لحرب رسول الله؛ فاستنفر عليه الصلاة والسلام الناس. وكان ذلك وقت صيف حار وكانت البلاد مجدبة، فاستحث الله الناس أن يخرجوا مع رسوله للجهاد فتثاقل منهم من تثاقل، ربما بسبب ما كان من ضائقة زمن تلك المعركة، التي سميت معركة العسرة لما كان فيها من الجهد. انظر: تفسير القرآن العظيم ج٢ ص٣٤٢-٣٤٤.

**القلوب، فقال رجل إن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟ قال: (أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة) إلى قوله: (فإنه من يعش منكم ير اختلافًا كثيرًا، وإياكم ومحدثات الأمور، فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ)[1].**

**وما رواه كثير بن عبدالله عن أبيه عن جده أن رسول الله قال لبلال بن الحارث: (اعلم)، قال: ما أعلم يا رسول الله؟ قال: (إنه من أحيا سنة من سنتي قد أُميتّتً بعدي كان له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئاْ، ومن ابتدع بدعة ضلالة لا يرضاها الله ورسوله كان عليه مثل آثام من عمل بها لا ينقص ذلك من أوزار الناس شيئًا)[2].**

**فأما اتباع سنته فيقتضي قبول كل أمر أمر به، فأداء الأمانة - مثلاً- مما أمر به عليه الصلاة والسلام، فوجب على المسلم أن يكون أميناً في سلوكه، سواء في عبادته أو معاملته، فمن لا يؤدي صلاته ولا يخرج زكاته على الوجه الذي أمر به رسول الله لا يكون**

---

(1) أخرجه الترمذي في أبواب العلم، باب الأخذ بالسنة واجتناب البدعة برقم (٢٨١٥)، تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي ج٧ ص٣٦٥-٣٦٨ . وأخرجه ابن ماجة في المقدمة باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين برقم (٤٤) ، ج١ ص١٥-١٦ .

(2) أخرجه الترمذي في أبواب العلم، باب الأخذ بالسنة واجتناب البدعة برقم (٢٨١٧). تحفة الأحوذي ج٧ ص٣٦٩-٣٧٠ .

**أميناً في عبادته، ومن يتعامل مع غيره بالكذب أو الخداع لا يكون أميناً، وهكذا في كل أمر مما أمر به أو نهي نهى عنه.**

**كما أن اتباع سنة رسول الله يقتضي نبذ كل أمر نهى عنه، فالغش -مثلاً- مما حذر منه عليه الصلاة والسلام، فمن يبيع للناس الأطعمة الفاسدة يعد غاشاً، ومن يعرض لهم أقمشة قديمة على أنها أقمشة جديدة يعد غاشاً، وكلاهما يدخل في قول رسول الله : (من غشنا فليس منا)[1]. وهكذا في كل أمر نهى عنه رسول الله عليه الصلاة والسلام مما هو معروف لدى المسلم في دينه.**

**أما اتباع سنة خلفائه الراشدين؛ فلأنهم -رضوان الله عليهم- كانوا أحرص ما يكونون على الالتزام بسنته في حياته، وبعد مماته، فإذا عرض لهم أمر أو نزلت بهم نازلة رجعوا إلى كتاب الله وسنة رسوله، فإن لم يجدوا فيهما دليلاً اجتهدوا برأيهم، كما في حديث معاذ بن جبلرضي الله عنهلما بعثه رسول الله إلى اليمن، وسأله عما يقضي به، قال: بكتاب الله. قال: (فإن لم تجد؟) قال: فبسنة رسول الله، قال: (فإن لم تجد؟) قال: أجتهد رأيي. فقال رسول الله: (الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي**

---

([1]) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب قول النبي : (من غشنا فليس منّا) ، برقم (١٦٤، ١٦٥)، صحيح مسلم مع شرحه إكمال إكمال المعلم ج١ ص٣٤٨ .

**رسول الله)[1].**

**ومن ذلك اتفاقهم على جمع المصاحف في مصحف واحد بعد مقتل العديد من قراء الصحابة في اليمامة، وخشيتهم من قتل جميع القراء في المعارك فيذهب القرآن . ومن ذلك أيضاً اتفاقهم على حد شارب الخمر ثمانين جلدة، لمَّا تبين لهم أن من سكر هذَى، ومن هذَى فقد افترى، فجعلوا عليه حد المفتري، ومن ذلك قتل الجماعة بالواحد لما فيه من حفظ الشريعة وعصمة الأنفس من الاعتداء والظلم، ومن ذلك تضمين الصناع لحاجة الناس إليهم، وغلبة التفريط منهم، وعدم حفظ أمتعة الناس، وما سيؤدي إليه عدم تضمينهم من ضياع الأموال.**

**فهذه كلها اجتهادات من خلفاء رسول الله بنوها على مقاصد الشريعة، وغاياتها، في ابتغاء مصالح الأمة، والحفاظ على دمائها، وأموالها، وأعراضها، فيعدّ اجتهادهم هذا وغيره سنة ويلزم اتباعه[2].**

**وأما اتباع تابعي خلفاء رسول الله وصحابته، فهو أيضاً اتباع**

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب الأقضية، باب اجتهاد الرأي في القضاء، برقم (٣٥٩٢) . سنن أبي داود ج٣ ص٣٠٣ . وأخرجه الإمام أحمد في المسند ج٥ ص٢٣٠، ٢٣٦، ٢٤٢ .

(2) انظر على سبيل المثال: إرشاد الفحول للإمام الشوكاني ص٨١-٨٣ ، طبع دار الفكر، وعون المعبود شرح سنن أبي داود ج٩ ص٣٦٨-٣٧٢ .

لسنة رسول الله، وما ذاك إلا لأن هؤلاء سلكوا الطريق الذي سلكه الخلفاء في الاهتداء والاستدلال بكتاب الله، وسنة رسوله، وخلفائه وصحابته، فإذا أعوزهم الدليل استنبطوا الحكم من أصول الشريعة ومقاصدها، وفي هذا قال الآجري[1]: «نأمر بحفظ السنن عن رسول الله، وسنن أصحابه والتابعين لهم بإحسان، وقول أئمة المسلمين، مثل: مالك بن أنس والأوزاعي وسفيان الثوري وابن المبارك وأمثالهم والشافعي وأحمد بن حنبل والقاسم بن سلام، ومن كان على طريقتهم من العلماء، ونبذ ما سواهم».[2]

**اتباع رسول الله محمدﷺ :**

من أهم الأمور في الإيمان الإيمان بنبوة رسول الله محمدﷺ ورسالته واتباعه، والأصل في هذا الكتاب والسنة والإجماع. أما الكتاب فقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[آل عمران:٣١]. وقوله -عز وجل-: ﴿وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون﴾[الأنعام:١٥٣]. وقوله عز من قائل:﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ

(١) الآجري: هو محمد بن حسين.

(٢) المختار في أصول السنة، لأبي علي الحسن البغدادي الحنبلي، ص٤٩، نقلاً عن الشريعة للآجري ص٦٤.

يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَـاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُون﴾[الأعراف:١٥٦] . وقوله سبحانه:﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾[الأعراف: ١٥٧] .وقوله جل ثناؤه: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون﴾[الأعراف: ١٥٧]. وقوله:﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُون﴾[الأعراف: ١٥٨]. وقوله:﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى﴾ [طه:١٢٣].

وأما السنة: فقد روى عبدالله بن مسعود أن رسول الله خط خطاً، ثم قال: (هذا سبيل الله)، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله، وقال: (هذه سبِلِ على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه)، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾[الأنعام:١٥٣] الآية[١]. كما روى بلال بن الحارث أن رسول الله قال: (من أحيا سنة أميتت بعدي، فإن له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن ابتدع بدعة ضلالة لا يرضاها الله ورسوله كان عليه مثل آثام من عمل بها لا ينقص ذلك من أوزار

(١)أخرجه الدارمي في مقدمة سننه، باب في كراهية أخذ الرأي برقم (٢٠٢)، ج١ ص٧٨. وأخرج ابن ماجة بمثله في مقدمة سننه، باب اتباع سنة رسول الله برقم (١١)، ج١ ص٦ . وهذا لفظه: عن جابر بن عبدالله قال: كنّا عند النبي فخطَّ خطّاً. وخطَّ خَطَّين عن يمينه . وخطَّ خطّين عن يساره. ثم وضع يده في الخط الأوسط، فقال: **(هذا سبيل الله)**، ثم تلا هذه الآية:﴿وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾

**الناس شيئًا)[1].**

**وأما الإجماع: فقد أجمعت الأمة بيقين على وجوب اتباع ما جاء به رسول الله، واقتفاء طريقته، وعدم مخالفة أمره ونهيه، ولزوم جماعة المسلمين الذين يتبعونه، ويهتدون بهداه، ويسلكون طريقه. وقد كان السلف الصالح أشد ما يكونون حرصاً على اتباع السنة، واجتناب البدع، فقد خطب معاوية بن أبي سفيان في الناس قائلاً: «ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة وأن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة، اثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة»[2]. وكان الإمام الأوزاعي يقول: «اصبر نفسك على السنة، وقف حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكف عما كفوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح، فإنه يسعك ما وسعهم».[3]**

---

(1) أخرجه الترمذي في أبواب العلم، باب الأخذ بالسنة واجتناب البدعة برقم (٢٦٧٧)، سنن الترمذي ج٥ ص٤٤.

(2) وهو جزء من حديث النبي ، أخرجه الترمذي في كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة برقم (٢٥٤٠ ، ٢٦٤١)، ج٥ ص٢٥-٢٦. وأخرجه ابن ماجة في كتاب الفتن، باب افتراق الأمم، برقم (٣٩٩١، ٣٩٩٢، ٣٩٩٣)، ج٢ ص١٣٢١-١٣٢٢ . ورواه ابن بطة في الإبانة ج١ ص٣٦٨ من طريق أحمد بن ملاعب به، ورواه اللالكائي في شرح الاعتقاد ج١ ص٩٩، وأخرجه أبو علي البغدادي في المختار من أصول السنة، باب وجوب النصيحة ولزوم السنة والجماعة برقم (٧)، ص٤٠.

(3) ذكره اللالكائي في: شرح أصول اعتقاد أهل السنة ج١ ص١٥٤-١٥٥، وابن الجوزي في: تلبيس إبليس ص٨-٩. والسيوطي في: الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع ص٤٩.

**ومن لم يفعل ما فعل السلف، وما كانوا عليه من الاتباع وسلك سبيلاً غير سبيلهم فقد ضل عن سواء السبيل؛ لأنه عندما ترك سبيلهم سلك سبيلاً آخر مضاداً له، وهذا السبيل جعل منه مشاقاً للرسول ومن اتبعه من المؤمنين، وفي هذا قال الله عز وجل: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥].**

**فالمشاقة للرسول تعني عدم الاتباع لسبيله، ومخالفة ما جاء به من الشريعة فيكون المشاق في سبيل آخر واتباع غير سبيل المؤمنين، كما يقول الإمام ابن كثير- ملازماً للصفة الأولى، ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع، وقد تكون لما اجتمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً، فإنه قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ، تشريفاً لهم وتعظيماً لنبيهم[1].**

**واتباع رسول الله يقتضي الإخلاص له، فليس الاتباع مجرد قول فحسب، بل هو عمل مراده الإخلاص، وعلى هذا فالذين يقولون: إنهم يتبعون رسول الله، وهم يخالفون أمره بأهوائهم، يعدون غير متبعين، بل هم مبتدعون، كما ورد في الحديث الذي رواه ابن مسعود أن**

---

(1) تفسير القرآن العظيم ج٢ ص٣٩٣ .

رسول الله قال: (أنا فرطكم على الحوض، وليرفعنَ رجال منكم، ثم ليختلجّنَ دوني، فأقول: يا ربي أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك).[1]

**التسليم بأحكام رسول الله وقضائه:**

أحكام رسول الله وقضاؤه من أحكام الله، فهو لا يحكم ولا يقضي بهواه، بل يحكم بما أنزل الله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى *إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾[النجم:٣-٤]. فمن سَلَّمَ بأحكامه وقضائه فقد آمن بما جاء به، ومن لم يؤمن بها فقد خالفه وحاد عن جادته وطريقه.

والأصل في التسليم بأحكامه وقضائه الكتاب والسنة والإجماع. أما الكتاب فقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾[النساء:٦٠]. وقيل في سبب نزول هذه الآية أنه كان بين رجل من المنافقين ويهودي خصومة، فقال اليهودي: نذهب إلى محمد. وقال المنافق: بل نذهب إلى كعب بن الأشرف، فأبى

---

([1]) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب في الحوض. وقول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، برقم (٦٥٧٦)، فتح الباري ج١١ ص٤٧١-٤٧٢. وأخرجه أيضاً في كتاب الفتن، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] وما كان النبي يحذّر من الفتن، برقم (٧٠٤٩)، فتح الباري، ج١٣ ص٥.

**اليهودي أن يخاصمه إلا إلى رسول الله ، فلما رأى ذلك المنافق أتى معه إلى رسول الله فقضى لليهودي، فلما خرجا قال المنافق: لا أرضى، انطلق إلى أبي بكر، فحكم أبو بكر لليهودي، فلم يرض، وقال: انطلق بنا إلى عمر، فأقبلا على عمر، فقال اليهودي: إنا صرنا إلى رسول الله ثم إلى أبي بكر فلم يرض، فقال عمر للمنافق: أكذلك هو؟ قال: نعم، فقال: رويدكما حتى أخرج إليكما، فخرج إليهما وضرب المنافق حتى مات، وقال: هكذا أقضي على من لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله. فنزلت الآية، وقيل: إن رسول الله قال لعمر: (أنت الفاروق).[1]**

**وفي الكتاب أيضاً قول الله عز وجل: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[النساء:٦٥]. وفي هذه الآية أقسم الله بنفسه العظيمة المقدسة أن أحداً لا يؤمن حتى يحكّم الرسول، ويسلم بقضائه في جميع الأمور، فما حكم به وجب طاعته والانقياد له إخلاصاً وتصديقاً، دون حرج أو شك أو امتناع أو منازعة.**

**وقد نزلت هذه الآية في خصومة وقعت بين الزبير ورجل من الأنصار في شريج من الحرة فقال النبي : (اسق يا زبير، ثم أرسل**

---

([1]) تفسير القرآن العظيم ج١ ص٤٩١-٤٩٤ .

**الماء إلى جارك) فقال الأنصاري: يا رسول الله أن كان ابن عمّتك؟ فتلوَّن وجهه، ثم قال: (اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر، ثم أرسل الماء إلى جارك). واستوفى النبي للزبير حقه في صريح الحكم حين أحفظه الأنصاري، وكان أشار عليهما بأمر لهما فيه سعة. قال الزبير: فما أحسب هذه الآيات إلا نزلت في ذلك:﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء:٦٥][1].**

**فلما قال الأنصاري ما قال، حكم عليه الصلاة والسلام بحق الزبير في أن يحبس الماء حتى يرتفع إلى الجدار لري مزرعته بوصفه الأعلى فيكون أحق بالشرب من الأسفل[2].**

**وفي الكتاب أيضاً قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُون * وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِين *أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُون* إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا**

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب التفسير تفسير سورة النساء باب (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) برقم (٤٥٨٥) فتح الباري ج٨ ص١٠٣.

(2) كان رسول الله يريد الصلح بينهما، فحث الزبير على التساهل؛ لأن الأصل أن يدخل الأعلى جميع الماء في مزرعته ويسقي منه، فإذا بلغ فيها مبلغ الكعبين صرف ما زاد من الماء على هذا المقدار إلى الأسفل الذي يليه، وكان الأنصاري يريد من الزبير ألا يمسك من الماء شيئاً، فلهذا قال قولته الجائرة فرجع رسول الله إلى الأصل، وقال للزبير ما قال. انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج١ ص٤٩٣ .

دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون﴾[النور:٤٨-٥١].

وفي هذا إخبار من الله تعالى عن صفات المنافقين، الذين يعرضون إذا دعوا لحكم الله ورسوله إذا علموا أن الحق ليس لهم . أما إذا كانوا يرون أن الحق لهم أتوا طائعين مذعنين، ولا يخرج أمرهم هذا عن كونهم إما مصابين بمرض في قلوبهم، وإما أنهم يخشون أن يحيف الله عليهم ورسوله في الحكم، وهم في كلا الأمرين قد كفروا وأصبحوا من الظالمين.

وقيل في سبب نزول هذه الآية أنه كان بين المغيرة بن وائل من بني أمية وعلي بن أبي طالب خصومة في ماء وأرض، فامتنع المغيرة من التحاكم إلى رسول الله وقال لعلي: إن رسول الله يبغضني[1]. وقيل نزلت في غير ذلك، وعلى أي حال فهي عامة في وصف من يرتاب في حكم الله ورسوله.

وخلافاً لهؤلاء المنافقين مدح الله المؤمنين، وأثنى عليهم، ووصفهم بالفلاح، لكونهم يستجيبون لحكم الله ورسوله إذا دعوا إليه، لا يبتغون غير كتاب الله وسنة رسوله، ولا يحتكمون إلا لحكم الله ورسوله. وقد روي أن عبادة بن الصامترضي الله عنه لما

(1) النكت والعيون تفسير الماوردي ج٤ ص١١٥ .

**حضره الموت، قال لابن أخيه جنادة بن أبي أمية: ألا أنبئك بماذا عليك وبماذا لك؟ قال: بلى. قال: فإن عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة، عليك وعليك أن تقيم لسانك بالعدل، وألا تنازع الأمر أهله إلا أن يأمروك بمعصية الله بواحاً، فما أمرت به من شيء يخالف كتاب الله فاتبع كتاب الله[١].**

**الأصل الثاني في التسليم بأحكام رسول الله وقضائه: السنة، فقد ورد في الحديث قول رسول الله : (والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاْ لما جئت به).[٢]**

**وأما الإجماع: فقد أجمعت الأمة على أن كل من اتهم رسول الله في الحكم فهو كافر.**

**وينبني على هذا وجوب تحكيم كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام في كل الأمور كبيرها وصغيرها. وهذا الواجب فرض عام، ولا يستثنى منه أحد، حاكم أو محكوم، تابع أو متبوع، فمن ابتغى غير ذلك بأي صفة أو تأويل أو تفسير يخالف كتاب الله وسنة رسوله فليس من الإسلام في شيء.**

**الأفعال المنافية لمقتضى الإيمان برسالة رسول الله محمدﷺ**

---

(١) تفسير القرآن العظيم ج٣ ص٢٨٩ وسير أعلام النبلاء ج٢ ص٧.

(٢) حديث مشهور، ذكره الإمام النووي في الأربعين النووية، وقال: حديث حسن صحيح برقم (٤١).

**الإيمان برسالة رسول الله مبني على قاعدة كلية هي التصديق المطلق، بما جاءت به هذه الرسالة من أمر ونهي، وما أحلته من حلال، وما حرمته من حرام، وأن من يخالفها بتأويل أو تفسير يعد خارجاً عليها ومحارباً لها. وهذا يشمل كل من يأوّل النصوص حسب هواه فيترك المحكم، ويأخذ بالمتشابه، وهذا هو ما بينه الله بقوله تعالى:** ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَاب﴾ **[آل عمران:٧]. وهذا هو ما بيَّنه رسول الله عندما تلا هذه الآية، فقال: (إذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عناهم الله فاحذروهم)**[١]**. وهؤلاء هم الخوارج في سابق عهدهم، ومن على شاكلتهم ممن يأتي بعدهم؛ فإن أول فتنة وقعت في الإسلام كانت فتنتهم، وكانت بدايتها حين قسم رسول الله غنائم معركة حنين، فزعموا أنه لم يعدل في قسمة الغنائم، فقال رئيسهم (ذو الخويصرة)**[٢]**: «اعدل فإنك لم تعدل». فقال رسول الله : (لقد خبت**

---

(١) أخرجه ابن ماجة في المقدمة، باب اجتناب البدع والجدل برقم (٤٧)، سنن ابن ماجة ج١ ص١٨-١٩.

(٢) البداية والنهاية ج٤ ص٣٦٢ .

**وخسرت إن لم أكن أعدل، أيأمنني على أهل الأرض ولا تأمنوني). فلما ولَّى الرجل استأذن عمر بن الخطاب في قتله، فقال عليه الصلاة والسلام: (دعه، فإنه يخرج من ضئضئ[1] هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وقراءته مع قراءتهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم، أجراً لمن قتلهم)[2].**

**كما يشمل عدم الإيمان بالرسالة أولئك الذين يردون النصوص الصريحة الصحيحة عند عامة الأمة وخاصتها، فيتقولون على الله وعلى رسوله بغير علم، فيفرقون الأمة، ويشقون عصاها، وينشرون الخلاف فيها، فتتعدد الطوائف وتكثر الفرق، ثم تزعم كل طائفة وكل فرقة أن الحق معها، وأن الباطل فيما عداها فيقتتل الناس ويكثر الفساد. وهذا هو ما بينه الله لرسوله، وأمره ألا يكون من هؤلاء في قوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ**

---

(1) أي من جنسه .

(2) أخرجه ابن ماجة في المقدمة، باب في ذكر الخوارج برقم (١٦٨، ١٦٩، ١٧٢)، سنن ابن ماجة ج١ ص٦١ وأصل الحديث متفق علية، في البخاري برقم (٣٦١٠) وعند مسلم برقم (١٠٦٤) .

**يَفْعَلُون﴾[الأنعام:١٥٩][١]. وهذا هو ما عناه رسول الله في قوله: (.. وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة) ولما قيل له من هي يا رسول الله؟ قال: (من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي)[٢].**

**كما يشمل عدم الإيمان بالرسالة أولئك الذين ينافقون في سلوكهم فيظهرون للناس إيمانهم بها، ويخفون في أنفسهم العداء لها، كما كان أوائل المنافقين يفعلون، من أمثال عبدالله بن أبي ابن سلول، فقد كان يخطب في الناس، ويقول: أيها الناس، هذا رسول الله بين أظهركم أكرمكم الله وأعزكم به، فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوه، ثم يفعل خلاف ذلك في سره، وبين قومه فيتوعد المهاجرين بإخراجهم من المدينة[٣].**

**والنفاق ليس له زمان ولا مكان، فالذين يتظاهرون اليوم أو غداً بالإيمان برسالة رسول الله محمدﷺ ، ويتفوهون بتصديقها واتباعها، ثم يخالفونها فينتسبون -مثلاً- إلى المحافل السرية**

---

(١) والشيع في الآية هم أهل البدع وأهل الضلالات والشبه، كما قال الإمام ابن كثير. انظر: تفسير القرآن العظيم ج٢ ص١٨٧ .

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه ج١ ص ٢١٨، وأخرج الدارمي الجزء الأول من الحديث في كتاب السير، باب في افتراق هذه الأمة برقم (٢٥١٨)، سنن الدارمي ج٢ ص٣١٤ . وأخرجه الترمذي في كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة برقم (٢٦٤١) ، ج٥ ص٢٦ .

(٣) السيرة النبوية لابن إسحاق ج٢ ص٧.

والمجامع الخفية القائمة على هدم الدين، ونشر الانحلال والفساد - هؤلاء المنافقون هم الذين ذكرهم الله في قوله جل ثناؤه: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُون *ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُون﴾ [المنافقون:٢-٣]، إلى أن قال -عز وجل-: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُون﴾ [المنافقون:٤].

وأخطر الأفعال المنافية لمقتضى الإيمان برسالة رسول الله محمدﷺ :

- وصفه خلافاً لصفته النبوية.
- الغلو فيه.
- الابتداع خلافاً لسنته.

وصف رسول الله خلافاً لصفته النبوية:

المسلم الحق المؤمن برسالة رسول الله محمد ﷺ يعرف ويؤمن أنه بشر أوحى الله إليه، وجعله خاتم الأنبياء والمرسلين، وجعل رسالته عامة للثقلين، وأرسله بشيراً ونذيراً، فمن وصفه بغير

ذلك، وزعم أن له صفة غير صفة البشر فغلا فيه، أو استعاذ به، أو استغاثه، أو دعاه، أو رجاه، أو توكل عليه، أو توسل بقبره، أو زعم أنه مظهر يتجلى الله فيه، كما يقول أصحاب عقيدة وحدة الوجود، فليس من الإسلام في شيء . وقد أكد الله على بشريته حين اجتمع إليه نفر من قريش فعرضوا عليه المال، وما يريد حتى يتخلى عن دعوته، وقالوا له: إن لم توافق على ما عرضنا عليك فأنت تعلم أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلاداً، ولا أقل مالاً، ولا أشد عيشاً منا، فاسأل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب، فإنه كان شيخاً صدوقاً، فنسألهم عما تقول: أحق هو أم باطل؟ فإن صنعت ما سألناك وصدقوك صدقناك، وعرفنا به منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولاً كما تقول.

فقال لهم رسول الله : (ما بهذا بعثت، إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم). قالوا: فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك فسل ربك أن

**يبعث ملكاً يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وتسأله فيجعل لك جنات وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة، ويغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم، فقال لهم رسول الله : (ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا وما بعثت إليكم بهذا)، قالوا: فأسقط السماء كما زعمت إن ربك إن شاء فعل ذلك، فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل، فقال لهم رسول الله : (ذلك إلى الله إن شاء فعل بكم ذلك)، واستمروا في الجدال والخصام، إلى أن قالوا: لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً.**

**فلما قالوا ذلك قام رسول الله عنهم، فتبعه عبدالله ابن أبي أمية (وهو ابن عمته)، فقال: يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا منزلتك من الله فلم تفعل ذلك، ثم سألوك أن تعجل لهم ما تخوفهم به من العذاب، فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ثم ترقى فيه، وأنا أنظر إليك حتى تأتيها وتأتي معك بصحيفة منشورة، ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول[1].**

**وقال أهل العلم في ذلك: لو علم الله منهم أنهم يسألون ذلك**

---

([1]) تفسير القرآن العظيم ج٣ ص٦١-٦٣ والسيرة النبوية لابن هشام ج١ ص٣٦٤-٣٦٩.

**استرشاداً لأجيبوا إليه، ولكن علم أنهم يطلبون ذلك كفراً وعناداً، فقيل لرسول الله : إن شئت أعطيناهم ما سألوا، فإن كفروا عذبتهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة، فقال رسول الله : (بل تفتح عليهم باب التوبة والرحمة).[1]**

**وقد قص الله ذلك عنهم في قوله عز وجل: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا *أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾[الإسراء:٩٠-٩٣] .**

**وقد أمر الله نبيه أن يقول لهم: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولا﴾[الإسراء:٩٣]. كما أمره أن يقول لهم ولغيرهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠]. فهاتان الآيتان أصلان في الدلالة على بشريته عليه الصلاة والسلام، كما يدل عليها أيضاً قول الله تعالى: ﴿وَمَا**

---

([1]) تفسير القرآن العظيم ج٣ ص٦١-٦٢ .

جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾[الأنبياء:٣٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُون﴾[الزمر:٣٠]، فاقتضى ذلك حكماً أنه بشر يجوز عليه ما يجوز على البشر من الطعام، والشراب، واللباس، والنوم، والنسيان، وإنما ميزه الله برسالته بما يوحى إليه ليبلغه إلى الثقلين، فلا يجوز لأحد أن ينزله خلاف المنزلة التي أرادها الله له، أو يصفه بغير الصفة التي وصفه الله بها، فيشركه مع الله في عبادته، لأن العبادة، والاستعاذة، والاستغاثة، والخشوع، والخضوع لله رب العالمين، ولا شك أن هذا معلوم من الدين بالضرورة، وهو عقيدة أهل السنة والجماعة، وقد بينها السلف الصالح في كتبهم بياناً واضحاً، وفي ذلك يقول الإمام ابن تيمية: «فدين الإسلام مبني على أصلين من خرج عن واحد منهما فلا عمل له ولا دين: أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وعلى أن نعبده بما شرع لا بالحوادث والبدع. وهو حقيقة قول لا إله إلا الله محمد رسول الله. فإن الإله هو الذي تألهه القلوب عبادة واستعانة ومحبة وتعظيماً وخوفاً ورجاء وإجلالاً وإكراماً، وهو سبحانه له حق لا يشركه فيه غيره، فلا يعبد إلا الله، ولا يدعى إلا الله، ولا يخاف إلا الله، ولا يطاع إلا الله، والرسول هو المبلغ عن الله طاعته وأمره ونهيه وتحليله وتحريمه، فهو واسطة بين الله وبين خلقه

**في تبليغ أمره ونهيه ووعده ووعيده. وأما إجابة الدعاء وكشف البلاء والهداية والإغناء ونحو ذلك، فالله تعالى هو المتفرد بذلك، الذي يسمع ويرى ويعلم السر والنجوى، وهو القادر على إنزال النعم وإزالة الضر من غير احتياج منه إلى أن يعرّفه أحد أحوال عباده أو يعينه على قضاء حوائجهم. والأسباب التي بها يحصل ذلك هو خلقها ويسّرها، فهو مسبب الأسباب التي بها يحصل ذلك. ولهذا فرض سبحانه على المصلي أن يقول في صلاته: «إياك نعبد وإياك نستعين» وقال النبيﷺ : (إذا قام أحدكم إلى صلاته فلا يبصقن قُبّل وجهه، فإن الله قبل وجهه. ولا عن يمينه، فإن عن يمينه ملكًا، ولكن عن يساره، أو تحت قدمه)[1]. وهذا الحديث في الصحيحين من غير وجه . وهو سبحانه فوق سماواته على عرشه بائن من خلقه، ليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته، بل الحامل بقدرته للعرش وحملته. وقد جعل سبحانه العالم طبقات، ولم يجعل أعلاه مفتقراً إلى أسفله، فالسماء لا تفتقر إلى الهواء، والهواء لا يفتقر إلى الأرض . فالعلي الأعلى رب السماوات والأرض وما بينهما أجل وأعظم،**

---

([1]) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب حكِّ البزاق من المسجد باليد برقم (٤٠٥، ٤٠٦). انظر: فتح الباري ج١ ص٦٠٥-٦٠٦ .

**وأغنى وأعلى من أن يفتقر إلى شيء، بل هو الأحد الصمد، وكل ما سواه مفتقر إليه، وهو مستغن عن كل ما سواه .. وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: (لا أِلفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رُغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة لها ثُغاء، أو رقاع تخفق، فيقول: يا محمد أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاْ، قد أبلغتك)[1]. فهؤلاء الذين بلغهم أخبر أنهم إذا استغاثوا به يوم القيامة وسألوه الشفاعة، يقول لهم: لا أملك لكم من الله شيئاً قد أبلغتكم . والله سبحانه قد وعد أهل التقوى بالتخليص من الكربات وبإحسانه إليهم برفع الدرجات، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣]. وقال تعالى: ﴿يِاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيم﴾ [الأنفال: ٢٩]**

**[2]». (انتهى).**

**الغلو في رسول الله :**

---

(1) متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، باب الغلول، برقم (٣٠٧٣)، فتح الباري ج٦ ص٢١٤-٢١٥، وأخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب غلظ تحريم الغلول، برقم (٢٤). صحيح مسلم مع شرحه إكمال إكمال المعلم ج٦ ص٥١٧-٥١٨.

(2) تلخيص كتاب الاستغاثة المعروف بالرد على البكري، وبهامشه كتاب الرد على الأخنائي، للإمام ابن تيمية ص٥٢-٥٤.

**الغلو في اللغة: مجاوزة الحد والقدر، وفي الاصطلاح مجاوزة الحد، يقال: غلا في الدين غلوًّا، تشدد وتصلب حتى جاوز الحد[1].**

**والأصل في النهي عن الغلو الكتاب والسنة، أما الكتاب: فقول الله تعالى:** ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾**[النساء:١٧١] . وقوله -عز وجل-:** ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ﴾**[المائدة:٧٧]. وفي هاتين الآيتين نهى الله أهل الكتاب عن الإطراء والغلو لما غلوا في نبي الله عيسى، وجعلوا له منزلة غير منزلة النبوة، فجعلوه تارة إلهًا يعبدونه، وجعلوه تارة أخرى ابناً لله. كما غلوا في حواريه وأتباعه، فاعتقدوا فيهم العصمة واتبعوهم على ما هم عليه دون النظر في صحة أقوالهم وأفعالهم، ولهذا قال الله فيهم:** ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ **[التوبة:٣١].**

**وأما السنة، فما رواه ابن عباس أن رسول الله قال: (لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنَما أنا عبده،**

---

([1]) لسان العرب، لابن منظور، مادة غلو. والقاموس المحيط، مادة غلو.

**فقولـوا: عبد الله ورسوله).[١]**

**وما رواه أنس بن مالك رضي الله عنهأن رجلاً قال: يا محمد يا سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا، فقال رسول الله : (أيها الناس عليكم بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد بن عبدالله، عبدالله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل)[٢].**

**وما رواه جبير بن مطعم أن أعرابيًّا جاء إلى النبي فقال: يا رسول الله، هلكت الأنفس، وجاع العيال، وهلكت الأموال، فاستسق لنا ربك، فإنا نستشفع بالله عليك وبك على الله. فقال النبي : (سبحان الله سبحان الله) فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجه أصحابه، ثم قال عليه الصلاة والسلام: (ويحك أتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظم من ذلك، إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه)[٣].**

**وما رواه عمر أن رسول الله ﷺ قال: (أيها الناس إياكم والغلو**

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب (واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها) برقم (٣٤٤٥)، فتح الباري ج٦ ص٥٥١ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج٣ ص١٥٣.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب السنة، باب في الجهمية برقم (٤٧٢٦)، سنن أبي داود ج٤ ص٢٣٢.

**في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو)[1]. وما رواه ابن مسعود أن رسول الله قال: (هلك المتنطعون) قالها ثلاثاً.[2]**

**والغلو في رسول الله ﷺ يتخذ مسلكين: أولهما: الغلو في ذاته. وثانيهما: الغلو في قبره.**

**فأما الغلو في ذاته، فنوعان: اعتقادي وعملي. فالاعتقادي أن يؤمن أن الرسول ينفع ويضر من دون الله، فيشفع دون إذن ربه، ويستجيب لمن دعاه، ويعيذ من استعاذ به، ويغيث من استغاث به، ونحو ذلك مما هو حق مطلق لله تعالى لا يشركه معه أحد، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، فهذا يعد شركاً، لا يختلف عن شرك الذين غلوا في نبي الله عيسى، فعبدوه من دون الله، ولا يختلف عن شرك المشركين، الذين جعلوا مع الله إلها يعبدونه ويعظمونه من دونه، ويكفي في هذا الغلو الاعتقاد بالقلب ولو لم يمارسه صاحبه عملاً، وسواء كان هذا الاعتقاد شعوراً في النفس أو قولاً ظاهراً، شعراً ونثراً أو وصفاً يصف رسول الله خلاف صفة النبوة، أو ينزله منزلة خلاف منزلة الرسالة، كقول البوصيري في بردته:**

---

(1) أخرجه ابن ماجة في كتاب المناسك، باب قدر حصى الرمي برقم (٣٠٢٩)، سنن ابن ماجة ج٢ ص١٠٠٨.

(2) أخرجه مسلم في كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، برقم (٢٦٧٠)، صحيح مسلم مع شرحه إكمال إكمال المعلم ج٩ ص٥٨ .

**يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به**

**ســواك عند حلـول الحـادث العمم**

**فإن مـن جـودك الدنيا وضـرتهـا**

**ومـن علــومك علـم اللـوح والقلـم**

**وأما الغلو العملي، فهو ممارسة الغلو عملاً كترك القبلة، والصلاة إلى قبر رسول الله، والذبح باسمه، والتوكل عليه، ودعائه، والخشوع له، وعبادته، وغير ذلك مما هو أيضاً حق مطلق لله تعالى في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.**

**فهذا الغلو في صورتيه شرك وكفر بواح وضلال مبين، يستتاب صاحبه، فإن تاب وإلا وجب عليه القتل . ولعظم خطر هذه الأفعال وضلالتها حَذَّرَ رسول الله أمّته منها، خشية منه أن يصيبها ما أصاب الأمم التي أشركت مع الله غيره فحبط عملها، وأصبحت من الخاسرين في الدنيا والآخرة، فقال عليه الصلاة والسلام: (من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت)[1]. ولما قال له أحد السائلين ما شاء الله وشئت، تغير وجهه، فقال محذراً له: (أجعلتني والله عدلاً؟**

---

([1]) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور، باب لا تحلفوا بآبائكم، وأخرجه مسلم في كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله، والترمذي في الأيمان والنذور، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله برقم (١٥٣٤) ، ج٤ ص٩٣ .

**بل ما شاء الله وحده.)[1]. وقال : (إذا حلف أحدكم فلا يقل: ما شاء الله وشئت. ولكن ليقل: ما شاء الله ثمَ شئت)[2]. وقال عليه الصلاة والسلام: (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)[3]. ولما قدم معاذ من الشام سَجَدَ للنبي . قال: (ما هذا يا معاذ؟)، قال: أتيتُ الشام فوافقتُهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم، فوددت في نفسي أن نفعل ذلك. فقال رسول الله : (فلا تفعلوه)[4].**

**وأما الغلو في قبره، فهو مما حذر عنه عليه الصلاة والسلام، ذلكم أن من أعظم أسباب الشرك تعظيم القبور للعبادة وغيرها. فكان شرك قوم نوح بسبب عكوفهم على قبور الصالحين، ثم تصوير تماثيلهم وعبادتها، وكان شرك الأمم السابقة بسبب تعظيمهم للقبور واتخاذ مساجد وبِيَع عليها، وفي هذا قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: (لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)، يحذر ما صنعوا. قالت عائشة -رضي الله عنها-: لولا ذلك**

---

([1]) أخرجه الإمام أحمد في المسند ج١ ص٢١٤، ٢٢٤، ٢٨٣ .

([2]) أخرجه ابن ماجة في كتاب الكفارات، باب النهي أن يقال ما شاء الله وشئت برقم (٢١١٧). سنن ابن ماجة ج٢ ص٦٨٤ .

([3]) أخرجه الترمذي في كتاب الأيمان والنذور، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله برقم (١٥٣٥)، سنن الترمذي ج٤ ص٩٣-٩٤ .

([4]) أخرجه ابن ماجة في كتاب النكاح، باب حق الزوج على المرأة، برقم (١٨٥٣)، ج١ ص٥٩٥.

**لأبرز قبره، ولكن كره أن يتخذ مسجداً [1]. وقال عليه الصلاة والسلام: (لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تجعلوا قبري عيدًا، وصلّوا عليَّ فإنَ صلاتكم تبلغني حيث كنتم).[2]**

**ولما ذكرت له أم سلمة -رضي الله عنها- كنيسة رأتها في بلاد الحبشة وما فيها من الصور، قال -عليه الصلاة والسلام-: (أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة)[3]. ودعا عليه الصلاة والسلام ربه ألا يجعل قبره وثناً يعبد، فقال: (اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)[4].**

**وينبني على الأحاديث السابقة وما فيها من نهي عن تعظيم القبور أن تكون الزيارة لمسجد رسول الله ، ولا يقصد بها قبره؛**

---

(1) متفق عليه أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد؟ رقم الباب ٤٨. وأخرجه مسلم في كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد برقم (١٦، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢). صحيح مسلم مع شرحه إكمال إكمال المعلم ج٢ ص٤٢٤-٤٢٥ .

(2) أخرجه أبو داود في كتاب المناسك، باب زيارة القبور برقم (٢٠٤٢)، سنن أبي داود ج٢ ص٢١٨.

(3) انظر: الجواب الباهر في زوار المقابر لابن تيمية ص٤٨. وأخرج البخاري بمثله في كتاب التفسير، تفسير سورة نوح، باب (ودّاً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق) برقم (٤٩٢٠)، فتح الباري ج٨ ص٣٧٥ رقم ٥٢٨)./٥٣٥ ومسلم (١

(4) أخرجه الإمام مالك في الموطأ كتاب الصلاة، باب جامع الصلاة برقم (٤١٤)، ص١١٩، رواية الليثي.

**لأن الأحاديث التي وردت في شد الرحال لزيارة قبره ضعيفة وموضوعة لا يحتج بها كحديث: (من حج فزار قبري بعد موتي كان كمن زارني في حياتي)[١]. وحديث: (من حج ولم يزرني فقد جفاني)[٢] أما السلام عليه -عليه الصلاة والسلام- عند زيارة مسجده فمشروع بالإجماع، ولا شبهة فيه، ففي الحديث الذي رواه أبو داود قوله عليه الصلاة والسلام: (ما من أحد يسلم عليَّ إلا رد الله علي روحي)[٣]. وقد كان السلف يفعل ذلك، فروي أن عبدالله بن عمر كان إذا دخل المسجد قال: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبت، ثم ينصرف[٤].**

**وقد ذكر الإمام ابن تيمية في رده على الأخنائي حول زيارة قبره عليه الصلاة والسلام ما يلي: «وأما الرسول فقبره أجل وأعظم**

---

(١) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ج١ ص٦٢: «موضوع». وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه القاعدة الجليلة في التوسل والوسيلة ص٥٧: «وأحاديث زيارة قبره كلها ضعيفة، لا يعتمد على شيء منها في الدين، ولهذا لم يرو أهل الصحاح والسنن شيئاً منها، وإنّما يرويها من يروي الضعاف كالدارقطني والبزار وغيرهما» ثم ذكر هذا الحديث، وقال: «فإنّ هذا كذبه ظاهر مخالف لدى المسلمين ...».

(٢) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ج١ ص٦١: «موضوع». قاله الحافظ الذهبي في «الميزان» ج٣ ص٢٣٧، وأورده الصنعاني في الأحاديث الموضوعة ص٦، وكذا الزركشي وابن الجوزي، كما في «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني ص٤٢.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب المناسك باب زيارة القبور برقم (٢٠٤١) والإمام أحمد في المسند بإسناد حسن ج٢ ص٥٢٧ .

(٤) أخرجه الإمام مالك في الموطأ، كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ، برقم (٣٩٧)، ص١١٥، رواية يحيى الليثي .

من أن يزار، كما تزار قبور سائر المؤمنين، فإن أولئك إذا حصل الزائر عند قبورهم وشاهد القبر فإنه يحصل له من الرغبة في الدعاء للميت والترحم عليه والمحبة والمودة، ما قد يكون أعظم مما لو كان غائباً. ولهذا شرعت الصلاة على قبره. واختلف العلماء هل تشرع على القبر مطلقاً؟ على قولين في مذهب الشافعي وأحمد مع اتفاقهم على أنه لا يصلى على قبر النبي . وذلك لعظم قدره وحقه لا لنقص ذلك، فإن الناس مأمورون أن يحبوه ويعظموه ويذكروه، ويذكروا ما منّ الله به عليه، وما منَّ به عليهم بسببه، ويصلوا عليه ويسلموا عليه في كل مكان وأن لا يفعلوا ذلك عند قبره أعظم مما يفعلونه في سائر البقاع، فإنه يفضي إلى نقص ذلك في سائر البقاع إذا خص قبره بما لا يوجد عند غيره. ومعلوم أنه لا يمكن أن يكون أحد عند قبره في كل وقت، لو كان مما يوصل إليه، فكيف إذا كان محجوباً؟ فتخصيص قبره بصلاة عليه أو سلام أو دعاء أو ثناء، يقتضي هضم ذلك ونقصه في سائر البقاع؛ فينقص إيمانهم به وتوسلهم بالإيمان به، ويفوتهم حظ عظيم من كرامة الله لهم بقيامهم بحقه، مع أن ذلك ذريعة إلى الشرك. فكان في تخصيص قبره بما يخص به قبر غيره مفسدة وفوات مصلحة. ولهذا جاءت سنته بأن لا يزار قبره كما

تزار القبور، لعظم قدره وحقه كما بينا. وأما من زار قبره أو قبر غيره ليشرك به ويدعوه من دون الله، فهذا حرام كله، وهو مع كونه شركاً بالله، فهو ترك لما يجب من حقه ، وطلب منه ما ليس إليه بل إلى الله، وأين من يطيعه ويعينه على ما أمر الله به، ويقوم بما يجب عليه من حقه ممن يقصر في حقه وطاعته وإعانته، ويقصر في عبادة الله وتوحيده ودعائه، ويكلف المخلوق بما لا يقدر عليه إلا الخالق سبحانه وتعالى، فيؤذيه بذلك ويؤذي الله بالشرك به؟ وقد قال النبيﷺ في الحديث الصحيح: (ما أحد أصبر على أذى يسمعه من الله، يجعلون له ندا وشريكًا، ويجعلون له ولداً، وهو يعافيهم ويرزقهم)[1]. وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[الأحزاب:٥٦]. فهذا حقه . قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب:٥٧].

وأهل البدع والجهل يفعلون ما هو من جنس الأذى لله ورسوله، ويدعون ما أمر الله به من حقوقه، وهم يظنون أنهم يعظمونه، كما

---

([1]) أخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب لا أحد أصبر على أذى من الله عز وجل، برقم (٤٩، ٥٠)، صحيح مسلم مع شرحه إكمال إكمال المعلم ج٩ ص٢٥١ .

**تفعل النصارى بالمسيح، فيضلهم الشيطان كما أضل النصارى، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً».[1] انتهى.**

**وينبني على ما سبق أن الغلو في رسول الله سواء في ذاته، أو في قبره مناقض للإيمان بنبوته ورسالته، وأن على المسلم الحذر من هذا الغلو، لما فيه من حرص إبليس على إغوائه، وتزيين الباطل له لإيقاعه في الشرك بالله، كما أوقع العديد من الأمم التي زين لها سوء عملها، فأضلها عن الطريق القويم، فحق عليها ما حق من العذاب.**

**الابتداع خلاف سنة رسول الله محمد :**

**البدعة: الطريقة غير المسبوقة، وابتدع فلان كذا: ابتدأ طريقة لم يسبقه إليها سابق، فسمي العمل الذي لا دليل عليه في الشرع بدعة. فالبدعة إذن: طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية، يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه[2].**

**ويدخل في عموم لفظها «البدعة التركية كما يدخل فيه البدعة غير التركية، فقد يقع الابتداع بنفس الترك تحريماً للمتروك أو غير**

---

([1]) الرد على الأخنائي، هامش تلخيص كتاب الاستغاثة، المعروف بالرد على البكري، لشيخ الإسلام ابن تيمية ص٧٨-٨٠ .

([2]) الاعتصام، للشاطبي ج١ ص٢٨ .

تحريم، فإن الفعل -مثلاً- قد يكون حلالاً بالشرع فيحرمه الإنسان على نفسه أو يقصد تركه قصداً»[1].

والأصل في تحريم الابتداع: الكتاب والسنة والإجماع. أما الكتاب: فالآيات كثيرة، منها قول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]. فاقتضى هذا أن الدين جاء كاملاً، لا يحتاج إلى زيادة أو نقص، فمن زاد فيه أو نقص منه فقد خالفه بإنكاره كماله، واقتضى هذا أيضاً أن النعمة كملت به، وأن الله رضيه للأمة، وكمال النعمة ورضا الله لا يساويهما شيء في الكمال والرضا، فمن فعل في الدين ما لم يأت به، فقد جحد هذا الكمال، ولم يرض بما رضي الله به؛ فأصبح مضاهياً لله مشاقاً له.

والدافع للابتداع اتباع الهوى المترتب من عدم الإيمان بما شرعه الله بما أنزله على رسوله، وقد حذر الله من اتباع الهوى، لكونه وسيلة تفضي إلى الابتداع، فقال عز وجل محذراً: ﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨] . وبين عز وجل ما حذر به داود نبيه بقوله: ﴿يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ

---

([1]) الاعتصام، للشاطبي ج١ ص٣٢ .

الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَاب﴾[ص:٢٦]. كما بين عز وجل أنه ليس أحد أضل ممن اتبع هواه بقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾[القصص:٥٠]. وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُون﴾[الجاثية:٢٣].

ولما كان الهوى وسيلة إلى الكذب على الله، والقول بشرع غير شرعه، وسنة غير سنة رسوله، فقد توعد الكذابين بالخسران في قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللّهُ افْتِرَاء عَلَى اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِين﴾ [الأنعام:١٤٠]. وقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[الأنعام:١٤٤] . وقوله جل ثناؤه: ﴿مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَـكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ﴾[المائدة:١٠٣].

وأما السنة، ففي حديث العرباض بن سارية أن رسول الله وعظ موعظة، وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا، قال: (أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد، فإنه من يعش منكم

**فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة)[١].**

**وفي حديث بلال بن الحارث أن رسول الله قال: (من أحيا سنة قد أميتت بعدي، فإن له من الأجر مثل من عمل بها من الناس، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاْ، ومن ابتدع بدعة لا ترضي الله ورسوله، فإن له مثل إثم من عمل بها من الناس لا ينقص ذلك من آثام الناس شيئًا)[٢].**

**وفي حديث آخر قال: (.. تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك)[٣]. وفي حديث عائشة -رضي الله عنها- قول رسول الله : (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)[٤].**

**وفي حديث حذيفة بن اليمان أنه قال: يا رسول الله هل بعد هذا**

---

(١) أخرجه ابن ماجة في المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، برقم (٤٢، ٤٣) ج١ ص١٥-١٦.

(٢) أخرجه الترمذي في أبواب العلم، باب الأخذ بالسنة واجتناب البدعة برقم (٢٦٧٧) ج٥ ص٤٤.

(٣) أخرجه ابن ماجة في المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين برقم (٤٣) ، ج١ ص١٦.

(٤) متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور، فالصلح مردود برقم (٢٦٩٧)، ومسلم في كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور برقم (١٧١٨).

**الخير شر؟ قال: (نعم قوم يستنون بغير سنتي، ويهتدون بغير هديي)، قال فقلت: هل بعد ذلك شر؟ قال: (نعم، دعاة على نار جهنم، من أجابهم قذفوه فيها)، قلت: يا رسول الله صفهم لنا؟ قال: (نعم، هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا)، قلت: فما تأمرني إن أدركت ذلك؟ قال: (تلزم جماعة المسلمين وإمامهم)، قلت: فإن لم يكن إمام ولا جماعة؟ قال: (فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك)[1]. والأحاديث في ذم الابتداع كثيرة.**

**وأما الإجماع: فإن الأمة في سلفها وخلفها قد أجمعت على أن من ابتدع في الدين ما ليس منه فقد ضل ضلالاً مبيناً، وعليه إثم من عمل ببدعته، لا ينقص ذلك من إثمه شيئاً . وقد كان السلف يأمرون ويوصون بلزوم السنة، واجتناب ما يحدثه المُحْدِثون من أصحاب الفرق والضلالات، فقد كتب عمر بن عبدالعزيز إلى عدي بن أرطأة لما استشاره في بعض القدرية، قائلاً: «أما بعد: فإني أوصيك بتقوى الله، والاقتصاد في أمره، واتباع سنة نبيه ، وترك ما أحدث المحدثون فيما قد جرت سنته وكُفوا مؤنته، فعليك بلزوم السنة، فإن**

---

(1) متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب الفتن، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة؟ برقم (٧٠٨٤)، فتح الباري ج٣ ص٣٨، ومسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة برقم (٥١)، صحيح مسلم مع شرحه إكمال إكمال المعلم ج٦ ص٥٤٧-٥٥٢ . وأخرجه ابن ماجة في كتاب الفتن، باب العزلة، برقم (٣٩٧٩)، ج٢ ص١٣١٧.

**السنة إنما سنها من قد عرف ما في خلافها من الخطأ والزلل والحمق والتعمق، فارض لنفسك بما رضي به القوم لأنفسهم، فإنهم على علم وقفوا، وببصر نافذ قد كفوا، وهم كانوا على كشف الأمور أقوى، وبفضل كانوا فيه أحرى . فلئن قلتم: أمر حدث بعدهم، ما أحدثه بعدهم إلا من اتبع غير سنتهم، ورغب بنفسه عنهم، إنهم لهم السابقون، فقد تكلموا منه بما يكفي، ووصفوا منه ما يشفي، فما دونهم مقصر، وما فوقهم محسر، لقد قصر عنهم آخرون فغلوا، وإنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم»[1].**

**أما معاذ بن جبل رضي الله عنهفقد نصح الأمة بقوله: «من ورائكم فتناً يكثر فيها المال، ويفتح فيه القرآن، حتى يأخذه المؤمن والمنافق والرجل والمرأة والصغير والكبير والعبد والحر، فيوشك أن يقول قائل ما للناس لا يتبعوني وقد قرأت القرآن؟ ما هم بمتبعي حتى أبتدع لهم غيره. وإياكم ما ابتدع فإن ما ابتدعه ضلالة، وأحذركم زيغة الحكيم، فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافق كلمة الحق. قال الراوي: قلت لمعاذ: وما يدريني يرحمك الله أن الحكيم قد يقول كلمة ضلالة، وأن المنافق قد يقول كلمة الحق؟ قال: بلى اجتنب من كلام الحكيم غير الشهرات، التي**

---

([1]) الاعتصام ج ١ ص٣٨ .

**يقال فيها: ما هذه؟ ولا يثنينك ذلك عنه، فإنه لعله أن يراجع وتلقي الحق إذا سمعته، فإن على الحق نوراً»[1].**

**إن المبتدع من يضيف إلى الدين ما لم يأت به، ولو كان يقصد بذلك التقرب إلى الله، لأن العبادات توقيفية، فلا يجوز الزيادة فيها، أو النقصان؛ فمن ينقطع للعبادة، ويترك عياله دون نفقة فقد ابتدع في الدين ما ليس منه؛ لأن للعبادة أوقاتها المعلومة من فرائض وسنن، وللعيال حقوقهم الواجبة في النفقة من طعام وشراب ولباس وسكن. ومن يصاب بالهزال في نفسه مما يسبب له مرضاً بسبب اقتصاده في الأكل والشرب خوف الإسراف المنهي عنه؛ فقد ابتدع في الدين ما ليس منه؛ لأن الإسراف المنهي عنه هو ما زاد عن حاجة النفس، وليس المقصود منه الإضرار بها وإهلاكها.**

**ومن الابتداع في الدين الصيام في الأيام المنهي عنها كصيام يوم العيد، خشية أن تكون رؤية الهلال غير صحيحة، أو صيام ليلة النصف من شهر شعبان، أو أي يوم معين لم يرد فيه نص، فهذه كلها بدع مخالفة للدين.**

**ومن الابتداع في الدين عزوف بعض الشباب المتدينين عن**

---

(1) رواه أبو داود في كتاب السنة، باب لزوم السنة برقم (٤٦١١)، ج٤ ص٢٠٢ . وأخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ج١ ص٨٨-٨٩ . والسيوطي في الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع ص٥٧-٥٨ .

**استخدام الآلات الحديثة كمبردات الماء، وحافظات الطعام، ومنظفات الملابس ونحوها بحجة أنها آلات محدثة لم يرد نص بجواز استعمالها.**

**ومن الابتداع في الدين تقصير الرجل ثوبه إلى حد الركبة خشية الإسبال، مع أنه لم يرد نص إلا بالنهي عن بلوغ الثوب أسفل الكعبين..، فهذه الأفعال وما يشابهها مبتدعات في الدين.**

**وقد أثر عن الإمام مالك رحمه الله قوله: «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً خان الرسالة؛ لأن الله يقول:﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فما لم يكن يومئذٍ ديناً فلا يكون اليوم ديناً»[1].**

---

([1]) الاعتصام ج٢ ص٢٨٣ .